



الشاهيت والاهتمول

بحث في الاتباع والابداع عند العرب

٢ -- تاصيل الاصول

حقوق الطبع محفوظة لدار العودة

الطبعة الاولى ١٩٧٧

الطبعة الثانية ١٩٧٩

دارالعودة - بيروت

كورنيش المزرعة - بناية ريفيرا سنتر

هاتف ٣١٨١٦٥ - ٣١٠٨٤٠

ادونيس

الثابت والمتحول

الكتاب الثاني

دار الفؤاد - بيروت

للشاعر

مجموعات شعرية

(طبعة اولى)	(طبعة ثانية)	(طبعة ثالثة)	
١٩٥٧	١٩٦٣	١٩٧٠	قصائد اولى
١٩٥٨	١٩٥٩	١٩٧٠	اوراق في الريح
١٩٦١	١٩٧٠	١٩٧١	اغاني مهيار الدمشقي
			كتاب التحولات والهجرة
١٩٦٥	١٩٧٠		في اقاليم النهار والليل
١٩٦٨			المسرح والمرايا
١٩٧٠	١٩٧١		وقت بين الرماد والورد
١٩٧١			الآثار الشعرية الكاملة
			(مجلدان)
١٩٧٧			مفرد بصيغة الجمع

دراسات

١٩٧١	مقدمة للشعر العربي
١٩٧٢	زمن الشعر
١٩٧٤	الثابت والمتحول / ١ - الاصول

مختارات

	ديوان الشعر العربي : (المكتبة العصرية)
١٩٦٤	الكتاب الاول
١٩٦٤	الكتاب الثاني
١٩٦٨	الكتاب الثالث
١٩٦٧	(دار الاداب) مختارات من شعر السياب
١٩٦٣	(دار مجلة شعر) مختارات من شعر يوسف الخال

ترجمات

مسرح جودج شحاده

١٧٢	وزارة الاعلام الكويت	١ - حكاية فاسكو
١٧٢	« « «	٢ - السيد بوبل
١٧٣	« « «	٣ - مهاجر بريسبان
١٧٣	« « «	٤ - البنفسج
١٧٥	« « «	٥ - السفر
١٧٥	« « «	٦ - سهرة الامثال

الآثار الشعرية الكاملة لسان - جون بيرس

١ - منارات	وزارة الثقافة والارشاد القومي دمشق
------------	------------------------------------

الكتاب الثاني

الثابت والمتحول

منذ نهاية العهد الاموي حتى اوائل القرن الرابع الهجري

القسم الاول

تأصيل الاتباع او الثبات

الفصل الاول

الشافعي وتاصيل الاصول الدينية - السياسية

I

بدءا من نشوء الدولة الاموية اخذت الجزيرة العربية تتقلص اقتصاديا واجتماعيا في مكة والمدينة ، واصبحت مهمتها تقتصر على توفير الجنود لنجيش العربي . وكان مجتمع الجزيرة يتكوّن من ثلاث طبقات : ارسوقراطية تجارية هي الحاكمة وهي قريش البواطن ، وطبقة وسطى هي قريش الظواهر ، وطبقة دنيا (بروليتارية ، رثة) هي البدو ، والغرباء أو الموالي . وكانت كل طبقة تعيش في شبه عزلة واستقلال عن الاخرى ، لذلك لم تطالب الطبقة الدنيا بالمساواة على مستوى المجتمع ككل ، وانما انحصرت هذه المطالبة في اطار القبيلة وحدها . وهكذا عرفت القبيلة نوعا من الملكية الجماعية للمراعي ومجاري المياه ، وللقطعان احيانا .

لكن القبائل اندمجت ، بعد الاسلام ، في امة واحدة ، وتغيرت بذلك البنية الاجتماعية في الجزيرة . وهكذا اخذ المحرومون يشعرون بالتفاوت الطبقي ، واخذت القبائل التي كانت تعيش منعزلة محرومة ، تشعر بوطأة الحرمان والعزلة اكثر من ذي قبل ، خصوصا حين تقارن بين الواقع الذي تعيشه ومثالية القرآن الذي وضع مبادئ لتحقيق العدالة والمساواة ، وان لم يبلغ الملكية الفردية ، وحين ترى الى الامويين كيف ان جدهم لم يعد منصبا على سكان الجزيرة ، بل على تعريب سكان المناطق المفتوحة .

وفي المدن التي تحولت الى بؤر اقتصادية وسياسية اخذ الفقراء يزدادون بسرعة ، ويشكلون فئة هامشية ليس لها عمل . ومع اتساع الاسواق وتراكم رؤوس الاموال ، اختل ميزان التبادل بين الارياف والمدن وانحصر دور الاولى في دفع الاتاوات والضرائب . وفي هذا ما يفسر هجرة الريفيين الى

المدن . ومما يذكر ان الحجاج منع هذه الهجرة في عهد عبد الملك ، فقد منع غير المسلمين من المجيء الى المدن ، ومنعهم لاجل ذلك ، من اعتناق الاسلام ، وفرض عليهم ان يبقوا في الريف . بل انه طرد الموالي من المدن ، ولم يسمح لهم بالسكن فيها الا في عهد عمر بن عبد العزيز .

اما الارض في الارياف فقد اشتراها الاغنياء العرب او اخذوها بالاقطاع . ولم يقيموا فيها ، وانما استخدموا العبيد لزراعتها واستغلالها . وهكذا انضافت الى الارستوقراطية التجارية ارستوقراطية عقارية ، واتسعت الرأسمالية التجارية والعقارية فنشأت ارستوقراطية مدنية قوامها الحكام والبيروقراطيون من موظفي الدولة الكبار ، وقواد الجيش ، والتجار . ومن هنا ازداد التفاوت بين طبقات المجتمع العربي ، خصوصا بين العرب والموالي ، وتعمق الوعي بالظلم والاستغلال والامساواة .

في هذه البنية الجديدة الاجتماعية - الاقتصادية حيث كانت السلطة تتركز في ايدي العائلة الاموية ومن يوالونها ، وحيث تتراكم معظم الثروات بين ايدي طبقة قليلة محظوظة ، ولم تكن تستخدم للاستهلاك المباشر ، بقدر ما كانت تستخدم لاعادة الانتاج بشكل اوسع ، سادت ثقافة المجانسة مع النظام القائم . لكن ، كانت تنشأ الى جانبها اتجاهات اخرى تشكل نواة لما يمكن ان نسميه بثقافة المعارضة او التجاوز . الاولى ترتبط بالنظام ، والثانية تخرج عليه بحثا عن نظام آخر . هكذا اصبحت التنويعات الايدولوجية : الدين ، السياسة ، اللغة ، الشعر ، الفلسفة ... الخ دالا يتغير مدلوله بحسب استخدامه ، وبحسب الموقع الذي تستخدم منه .

II

يُعتبر الشافعي (١) اول من « اصل الاصول » واول من انشا « علم الاصول » . وهو يلقب « بفتيحه السنة الاكبر » و « ناصر السنة » (٢) . ويقول عنه الامام احمد : « كان افقه الناس في كتاب الله عز وجل ، وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣) . ويقول الفخر الرازي ان « نسبة الشافعي الى علم الشرع كنسبة ارسطاطليس الى علم العقل » (٤) .

ويقول ابن القيم في هذا المعنى ان الشافعي قسم في فقهه الامر الى اثنين

لا ثالث لهما : اما الاستجابة لله وللرسول وما جاء به . واما اتباع الهوى . فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوى « (٥) . ومعنى ذلك أن « العقل مضطر الى قبول الحق » (٦) كما يعبر الشافعي ، اي الى قبول ما جاء به القرآن والسنة .

ويصف الجويني مذهب الشافعي بمقارنته مع مذهبي ابي حنيفة ومالك ، قائلا « فمالك افراط في مراعاة المصالح المطلقة المرسله غير المستندة الى شواهد الشرع ، وابو حنيفة قصر نظره على الجزئيات والفروع والتفاصيل من غير مراعاة القواعد والاصول ، والشافعي رضي الله عنه جمع بين القواعد والفروع ، فكان مذهبه اقصد المذاهب ومطلبه اسد المطالب . » (٧)

III

كان الناس ، قبل الاسلام ، في نظر الشافعي صنفين : اهل كتاب «بدلوا احكامهم وافتعلوا كذبا صاغوه بالسنتهم » وكفرة « ابتدعوا ما لم ياذن به الله » . (٨) وجاء الاسلام انقاذا للناس بكتابه الذي « لا يانيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : تنزيل من حكيم حميد » (٩) ، « فنقلهم من الكفر والعمل الى الضياء والهدى » (١٠) . فالقرآن نفي لما سبقه ، وتأسيس جديد . فقد احاط بكل شيء ، ما كان وما يكون ، وعلم كل شيء ، ما كان وما يكون ، وهدى الى الحق والنور في كل شيء ، ما كان وما يكون . فكل ما انزل فيه ، « رحمة وحجة » ، علمه من علمه وجهله من جهله ، لا يعلم من جهله ، ولا يجهل من علمه . « (١١) . ولهذا « لا يدرك خير الا بعونه » وحق علمه «نصا واستنباطا» « ومن ادرك علم احكام الله في كتابه نصا واستدلالا ، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه ، فاز بالفضيلة في دينه ودنياه ، وانتفت عنه الريب ، ونورت في قلبه الحكمة ، واستوجب في الدين موضع الامامة » . (١٢) ، اذ « لا تنزل باحد من اهل دين الله نازلة الا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها » . (١٣)

لكن العلم بالقرآن لا يتم الا بمعرفة بيانه ، ولهذا البيان وجوه : منها « ما ابانه لخلقه نصا » ، ومنها « ما احكم فرضه بكتابه وبين كيف هو على لسان نبيه » ، ومنها « ما سن رسول الله مما ليس له فيه نص حكم ، وقد

فرض الله في كتابه طاعة رسوله ، والانتهاه الى حكمه . فمن قبل عن رسول الله فبفرض الله قبل ، ومنها « ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه ، وابتلى طاعتهم في الاجتهاد ، كما ابتلى طاعتهم في غيره مما فرض عليهم » . (١٤) ، ومنها اخيرا البيان بالقياس الذي « يطلب فيه الدليل على صواب المثل » . (١٥)

وينتهي الشافعي الى القول « ليس لاحد ابدا ان يقول في شيء حل ولا حرم الا من جهة العلم ، وجهة العلم الخبر في الكتاب او السنة ، او الاجماع او القياس » . (١٦) وهو يعرف القياس بانه « ما طلب بالدلائل على موافقة الخبر المتقدم من الكتاب او السنة » وتكون الموافقة من وجهين : اما ان يكون الله او رسوله « حرم الشيء منصوصا ، او احله لمعنى . فاذا وجدنا ما في مثل ذلك المعنى فيما لم ينص فيه بعينه كتاب ولا سنة ، احللناه او حرمناه لانه في معنى الحلال او الحرام » ، واما ان يكون الشيء « يشبه الشيء منه والشيء من غيره ، ولا نجد شيئا اقرب به شبهها من احدهما ، فنلحقه باولى الاشياء شبهها به » . (١٧)

ثم يشرح الشافعي كيف فرض الله في كتابه اتباع سنة نبيه ، فيقول : « وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذي ابان جل ثناؤه انه جعله علما لدينه ، بما افترض من طاعته ، وحرّم من معصيته وابان من فضيلته بما قرن من الايمان برسوله مع الايمان به » . (١٨) فالسنة مقرونة مع كتاب الله وهو يفسرها بانها الحكمة (١٩) ، ولذلك فان طاعة رسول الله مقرونة بطاعة الله . (٢٠)

والسنة كما يراها الشافعي اما انها تطبيق اي « نص كتاب اتبعه رسول الله كما انزل الله » واما انها تفسير وتبيان ، اي « جملة بين رسول الله » معناها كما اراد الله ، و « اوضح كيف فرضها ، عاما او خاصا ، وكيف اراد ان يأتي به العباد » . ، واما انها سنة « فيما ليس فيه نص كتاب » (٢١) . واذا صحت السنة لا يرى الحجة في غيرها « فما لاحد من دون رسول الله رأي او اجتهاد او حجة ، فاذا جاء الاثر وصح ووضحت دلالتة وليس له ناسخ او مخالف ، فهو الشرع لا شرع سواه » . (٢٢)

واذا كان النص او الخبر مقياسا ومصدرا للحكم في القضية العارضة ،

وهما اللذان يعصمان من الخطأ ، فكيف السبيل الى معرفة الخطأ والصواب فيما لا يكون فيه نص او خبر ؟ او كيف يمكن ان نحل ونحرم ونفرق بلا مثال موجود نحتدي عليه ؟ » (٢٣) والجواب كما يقول الشافعي : « ليس لي ولا لعالم ان يقول في اباحة شيء ولا حظره ، ولا اخذ شيء من احد ولا اعطائه الا ان يجد ذلك نصا في كتاب الله او سنة او اجماع او خبر يلزم . فما لم يكن داخلا في واحد من هذه الاخبار ، فلا يجوز لنا ان نقوله بما استحسنا ، ولا بما خطر على قلوبنا ، ولا نقوله الا قياسا على اجتهاد به على طلب الاخبار اللازمة . ولو جاز لنا ان نقوله على غير مثال ، من قياس يعرف به الصواب من الخطأ ، جاز لكل احد ان يقول معنا بما خطر على باله . ولكن علينا وعلى اهل زماننا ان لا نقول الا من حيث وصفت » . (٢٤)

وهذا يعني ان الراي يجب ان ينشئ ، بالضرورة ، من اصل ديني : القرآن ، او السنة ، او الاجماع . فالراي المقبول هو ما كان في معنى هذه الاصول ، او مثل معناها . وحين لا يكون في هذه الاصول مثل للراي او الحكم او ما هو في معناه ، فلا يجوز النطق به .

غير ان الاجتهاد الذي يعنيه الشافعي هو الذي يكون حكما « على المثل » (٢٥) كما يعبر . فاذا كان لا يجوز لاحد ان يقول في شيء من العلم الا بالاجتهاد ، فان الاجتهاد لا يكون « الا لمن عرف الدلائل عليه » من خبر لازم : كتاب او سنة او اجماع . ثم يطلب ذلك بالقياس عليه . . . فاما من لا آلة له فيه فلا يحل له ان يقول في العلم شيئا » . (٢٦) « فالواجب على العالمين ان لا يقولوا الا من حيث علموا » (٢٧) ويقول : « ومن تكلف ما جهل وما لم تثبته معرفته ، كانت موافقته للصواب ، ان وافقه من حيث لا يعرفه ، غير محمود . وكان بخطئه غير معذور ، اذا ما نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب فيه » . (٢٨) فالقضايا الناشئة اما ان يحكم فيها بالنص الصريح ، واما ان يحكم فيها بحملها على النص . ومن هنا يعرف الاجتهاد او القياس بانه « الحاق امر غير منصوص على حكمه بامر آخر منصوص على حكمه لاشتراكه معه في علة الحكم » . (٢٩) وهذا يعني ان علم الشريعة المتعلقة بالاحكام قسمان : قطعي ثابت بالنص ، وظني راجح يقرره الاجتهاد . والاول علم في الظاهر والباطن ، اي لا يمكن انكاره ، والثاني علم في الظاهر فقط ، وانكاره ليس كفرا .

والقياس ليس اثباتا لحكم قال به المجتهد برأيه ، وانما هو بيان لحكم الشرع . فالقياس مشروط بمثال في الكتاب والسنة يقاس عليه ، وبغير ذلك لا يجوز . وفي هذا ما يفسر نفيه للاستحسان الذي هو الاخذ بالمصلحة المناسبة او الحسنة حيث لا يوجد نص .

ويقول الشافعي في هذا الصدد : « لا يجوز لاحد ان يقول بالاستحسان ، ولو جاز تعدي القياس وتعطيله الى الاستحسان ، جاز لاهل العقول من غير اهل العلم ان يقولوا فيما ليس فيه خير ، بما يحضرهم من الاستحسان . والاستحسان تلذذ . . . ومن استحسّن فقد شرع » . (٣٠) ويعني ذلك ان الاستحسان غير الجائز هو احداث شيء « لا على مثال سبق » . فالاستحسان هو ايضا مشروط بموافقة امثلة سابقة . ان قبول القياس او الاستحسان ، بمعزل عن هذه الشروط ، يشير الى ان في القرآن والسنة نصوصا لا توافق المصالح المتجددة ، او ان فيهما نقضا بحيث انهما لا يحيطان بهذه المصالح . وهذا يخالف منطلق الشافعي من انه لا يمكن ان يحدث شيء الان والى نهاية الازمنة ، الا وفي الكتاب والسنة ما يحيط به ، جملة او تفصيلا ، ومن انه ليس في الكتاب او السنة نص يتعارض مع المصالح التي تنشأ للناس الان ، والى نهاية الازمنة .

وفي كتاب « الام » للشافعي فصل بعنوان « كتاب ابطال الاستحسان » (٣١) يبني فيه الابطال على القول ان الاستحسان « لا ضابط له ، ولا مقاييس يقاس بها الحق من الباطل ، فلو جاز لكل مفت او حاكم او مجتهد ان يستحسن فيما لا نص فيه ، لكان الامر فرطا ، ولاختلفت الاحكام في منازل الواحدة على حسب استحسان كل مفت ، فيقال في الشيء ضروب من الفتيا والاحكام ، وما هكذا تفهم الشرائع ، ولا تفسر الاحكام » . (٣٢)

وكما رفض الشافعي الاستحسان ، رفض كذلك الاستصلاح . فهو لا يرى ان المصالح المرسلّة اصل شرعي ، ويرفض مبدأ الاخذ بها ، ويلخص معروف الدواليبي موقف الشافعي في هذا الصدد بقوله : « فالشافعية تجاه نصوص الشريعة لا يأخذون الا بالنصوص او بما يحمل على النصوص من طريق القياس الذي يقيّدون علته ويشرحون مسالكها ، ويندر ان يأخذوا بمصلحة ما لم يشهد لها نص خاص باعتبارها » . (٣٣)

ومن رأي الشافعي ان الحسن والقبح ، فيما يتعلق بمقتضى الامر والنهي ، شرعيان لا عقليان . ويعني ذلك ان الفعل يكون حسنا او قبيحا بمقتضى الشرع لا العقل . « فالحسن والقبح الثابتان بالشرع هما مما يجبان بالامر والنهي الشرعيين من غير ان يكون للعقل حظ في معرفة ذلك » . (٣٤)

هكذا يحصر الشافعي مصدر التشريع في النص ، اي في الكتاب والسنة . وحين يأخذ بالاجتهاد ، لا يأخذ به الا قياسا على النص يوجب اتباعه ، وينفي اتباع رأي من يقوم بالقياس . فالاجتهاد وسيلة للكشف عما اراده الشارع القديم في الحادثة الجديدة ، وليس وسيلة للكشف عما يريده الانسان الذي يواجه هذه الحادثة . وفي هذا يقول الشافعي : « الكتاب والسنة هما الاصلان للدان افترض الله ، وهما عينان . . . اذا اجتهد المجتهد ، فالاجتهاد ليس بعين قائمة ، انما هو شيء يحدثه من قبل نفسه ، فاذا كان هذا هكذا ، فكتاب الله والسنة والاجماع اولى من رأي نفسه ، ومن قال : الاجتهاد اولى ، خالف الكتاب والسنة برأيه . . . ولم يؤمر باتباع نفسه ، انما امر باتباع غيره ، فاحدائه على الاصلين اللذين افترض الله عليه اولى به من احداثه على غير اصل امر باتباعه . وهو رأى نفسه ولم يؤمر باتباعه . فاذا كان الاصل انه لا يجوز ان يتبع نفسه ، وعليه ان يتبع غيره ، والاجتهاد شيء يحدثه من عند نفسه . . . والاستحسان يدخل على قائله (اي لا على القرآن والسنة) كما يدخل على من اجتهد على غير كتاب ولا سنة ، ومن قال هذين القولين ، فالقولا عظيما ، لانه وضع نفسه في رأيه واجتهاده واستحسانه على غير كتاب ولا سنة موضعهما في ان يتبع رأيه كما اتبع ، وفي ان رأيه اصل ثالث امر الناس باتباعه . . . وهذا خلاف كتاب الله عز وجل ، لان الله تبارك وتعالى انما امر بطاعته وطاعة رسوله » . (٣٥)

فالاولى بالكلام هو الاعرف بالكتاب والسنة . ولعل من خير ما يعبر عن هذا الموقف ما يؤثر عن الشافعي في خبر يرويه محمد بن الحكم : « سمعت الشافعي يقول ، قال لي محمد بن الحسن : صاحبنا اعلم من صاحبكم ، يعني ابا حنيفة ومالكا . وما كان على صاحبكم ان يتكلم ، وما كان لصاحبنا ان يسكت . قال ففضيبت وقلت : نشدتك الله من كان اعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مالك او ابو حنيفة ؟ قال : مالك ، لكن صاحبنا اقيس . فقلت : نعم ، ومالك اعلم بكتاب الله تعالى وناسخه ومنسوخه ، وسنة رسول

الله ، صلى الله عليه وسلم من ابي حنيفة ، فمن كان اعلم بكتاب الله وسنة رسوله كان اولى بالكلام » . (٣٦)

ويوجز محمد ابو زهرة الادلة التي استند اليها الشافعي لابطاله الاستحسان فيما يلي :

اولا - معنى الاخذ بالاستحسان ان الشارع لم يأخذ بنص ، ولم يحمل استحسانه على نص ، وهذا باطل .

ثانيا - لا يكون الحكم الا بما انزل الله او سنته رسوله .

ثالثا - لم يكن النبي يستحسن ، بل كان يحكم بالوحي . ولو كان الاستحسان جائزا ، لجاز من النبي .

رابعا - استنكر النبي الاستحسان .

خامسا - لا ضابط للاستحسان ، مما يؤدي الى الاختلاف .

سادسا - اقرار الاستحسان يؤدي الى اقرار بحق العالم وغير العالم ان يأخذ به .

بل ربما كان اهل الصناعة اقدر على فهم المصلحة الحسنة من اهل العلم . (٣٧)

لكن كيف يفهم الشافعي العلم ؟ انه يراه نوعين : « علم عامة لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله ، جهله » ، وهذا هو العلم « الموجود نصا » في كتاب الله . ولا يمكن فيه الخطأ من الخبر ، ولا يجوز فيه التأويل ، ولا يجوز فيه الخلاف . (٣٨) والنوع الثاني من العلم هو « ما ينوب العباد من فروع الفرائض ، وما يخص به من الاحكام وغيرها ، مما ليس فيه نص كتاب ، ولا في اكثره نص سنة . . . وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياسا » . (٣٩) وهذا النوع لا تستطيع العامة ان تبلغه ، ولم تكلف به كل الخاصة .

ولا تقوم الحجة بعلم الخاصة ، او خبر الخاصة الا اذا جمعت الامور التالية : « ان يكون من حدث به ثقة في دينه ، معروفا بالصدق في حديثه ، عاقلا لما يحدث به عالما بما يحيل معاني الحديث من اللفظ ، وان يكون ممن

يؤدي الحديث بحروفه كما سمع لا يحدث به على المعنى ، لانه اذا حدث به على المعنى وهو غير عالم بما يحيل معناه ، لم يدر لعله يحيل الحلال الى الحرام . واذا اداه بحروفه ، فلم يبق وجه يخاف فيه احالته الحديث ، حافظا ان حدث به من حفظه ، حافظا لكتابه ان حدث من كتابه . اذا شرك اهل الحفظ في الحديث وافق حديثهم ، برياً من ان يكون مدلساً : يحدث عن لقي ما لم يسمع منه ، ويحدث عن النبي ما يحدث الثقات خلافة عن النبي . ويكون هكذا من فوقه ممن حدثه ، حتى ينتهي بالحديث موصولا الى النبي او الى من انتهى به اليه دونه ، لان كل واحد منهم مثبت لمن حدثه ، ومثبت على من حدث عنه ، فلا يستغنى في كل واحد منهم عما وصفت » . (٣٨)

واذا كانت الحجة على اتباع الكتاب والسنة قائمة ، بحيث لا يحل « لمسلم علم كتابا ولا سنة ان يقول بخلاف واحد منهما » فما تكون الحجة في اتباع « ما اجتمع الناس عليه ، مما ليس فيه نص حكم لله ، ولم يحكوه عن النبي » ؟ (٣٩) . للاجابة عن هذا السؤال يحدد الشافعي اولا معنى الاجماع فيقول انه ما كان في المسائل المعلومة من الدين بالضرورة ، وهو ما تقول به جماعة المسلمين ، « ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي امر بلزومها ، وانما تكون الغفلة في الفرقة ، فاما الجماعة فلا يمكن فيها كافة غفلة عن معنى كتاب ولا سنة ولا قياس » . (٤٠) وهكذا لا يكون الاجماع الا « في جملة الفرائض » التي لا يمكن جهلها اي في الاجماع الذي « لو قلت : اجمع الناس ، لم تجد حولك احدا يعرف شيئا يقول لك ليس هذا باجماع » . (٤١) ويوضح الشافعي قائلا : « لست اقول ولا احد من اهل العلم : « هذا مجمع عليه » الا لما لا تلقى عالما ابدا الا قاله لك وحكاه عن من قبله » (٤٢) . كذلك : « لم يدع الاجماع ، فيما سوى جمل الفرائض التي كلفتها العامة ، احد من اصحاب رسول الله ولا التابعين ولا القرن الذين من بعدهم ، ولا القرن الذين يلونهم ولا عالم علمته على ظهر الارض » (٤٣) . والنموذج الاول لهذا الاجماع هو اجماع الصحابة ، وهو يأتي في مرتبة ثالثة بعد الكتاب والسنة ، وانكاره او الخروج عليه كفر . وهناك نوع آخر من الاجماع هو الاجماع على احكام تعتمد على النص ، لكنها موضع نقاش بين العلماء - اي انه نوع من الاجماع على اجتهاد يوافق النص ولا يتعارض مع المصلحة . ونموذجه رأي الخليفة عمر في منع تقسيم الاراضي المفتوحة بين فاتحيها ، وابقائها في حوزة اصحابها الاصليين . وانكار هذا الاجماع ليس كفرا . (٤٤)

والشافعي يشدد في قبول الاجماع الذي يخرج عن هذين النوعين ، وهو تشدد ناتج عن تمسكه المطلق بالكتاب والسنة . ومن هنا يوصف مفهومه للاجماع بانه « ذاتي » ، يعني اتفاق « كل العلماء » في « كل مكان » . من هنا كذلك اشتراط الشافعي ان يكون الاجماع قوليا ، اي ان « ينقل عن كل عالم رايه في الامر ، وان تتفق الاراء جميعا في هذا الامر ، ويحتج لذلك بانه لا ينسب لساكت قول » (٤٥) وهكذا يرفض الشافعي الاجماع السكوتي وهو ان يذهب واحد من اهل الاجتهاد الى راي ويعرف في عصر ولا ينكره عليه منكر » . (٤٦)

ويوجز معروف الدواليبي راي الشافعي في الاجماع بقوله ان الشافعي « رغم قوله بالاجماع كاصل من اصول الشريعة ، قد انكر وقوع الاجماع الا في جمل من الفرائض » ، اي انه اعترف بوقوعه في « الاجماع النقلي » . ولم يعترف بوقوعه في الاجماع الاجتهادي المستنبط من الراي ، بعد ان كثرت الامصار عند المسلمين ، وتفرق العلماء فيها ، واصبح من المتعذر اتفاقهم جميعا على اجتهاد واحد فيما يجد من الحادثات ، ويكون للاجتهاد فيها دخل » . (٤٧)

هكذا يكون الاجماع ، في راي الشافعي ، اتفاقا على الكتاب والسنة ، اي على الامور التي لا يكون فيها خلاف ولا مخالف . انه توكيد الايمان بالكتاب والسنة ، ويقين العمل بهما . الاجماع ، بعبارة اخرى ، انما هو التصديق بما فرضه الله ، والقيام به . وعلى هذا لا يجوز لاحد ان يخالف ما كان « لله فيه نص حكم ، او لرسوله سنة ، او للمسلمين فيه اجماع » (٤٨) . لكن هل يجوز الخلاف فيما « لا كتاب فيه ولا سنة ولا اجماع ؟ » (٤٩) . وجواب الشافعي هو بالاجاب ، وهذا ما يتيح القياس او الاجتهاد ، و « هما اسمان لمعنى واحد » (٥٠) . ففي الامور المشتبهة التي تحمل اكثر من حكم يمكن من يجتهد ان يحكم بخلاف ما يحكم به غيره . لكن « هذا قليل اذا نظر فيه » (٥١) . ويتم القياس بطريقتين : « ان يكون الشيء في معنى الاصل ، فلا يختلف القياس فيه ، وان يكون الشيء له في الاصول اشباه ، وذلك يلحق باولاها به ، واكثرها شبهها فيه » . ولا يقيس الا ذوو العلم . وللعلم وجوه :

١ - الوجه الاول الاحاطة في الظاهر والباطن . والاحاطة هي ما كان نص كتاب او سنة ، وهذا مما لا يمكن جهله ولا الشك فيه ، وهو علم العامة .

٢ - الوجه الثاني « حق في الظاهر » ، وهو « علم الخاصة سنة من خبر الخاصة يعرفها العلماء ولم يكلفها غيرهم ، وهي موجودة فيهم او في بعضهم بصدق الخاص المخبر عن رسول الله بها » . (٥٢)

٣ - الوجه الثالث علم اجماع ،

٤ - الوجه الرابع « علم اجتهاد بقياس على طلب اصابة الحق . فذلك حق في الظاهر ، عند قائله ، لا عند العامة من العلماء ولا يعلم الغيب فيه الا الله » .

فالقياس او الاجتهاد قد يحيط بحق في الظاهر ، لكنه لا يحيط بالباطن ، فهذا لا يعرفه الا الله . وهذا يعني ان الاجتهاد في نظر الشافعي لا يكون الا على شيء « مطلوب » والمطلوب لا يكون ابدا الا على عين قائمة تطلب بدلالة يقصد بها اليها ، او تشبيه على عين قائمة « (٥٣) . فكان الاجتهاد نوع من العلم بالدلائل . وعلى هذا لا يجوز للانسان ان يستحسن ، بدون اجتهاد او قياس . ذلك ان الاجتهاد انما هو قياس على النص ، او هو استنباط من الخبر . واذا خالف الاستحسان الخبر من الكتاب والسنة ، كان هوى لا اجتهادا ولا قياسا . فالاستحسان يجب ان يكون قياسا ، ولا يصح بدونه ، اذ لو جاز تعطيل القياس ، جاز لاهل العقول من غير اهل العلم ان يقولوا فيما ليس فيه خبر بما يحضرهم من الاستحسان » ، و « القول بغير خبر ولا قياس غير جائز » . (٥٤) ومن هنا كان الاستحسان مقارنا للتعسف ، وكان « تلذذا » (٥٥) ، اذا تم بلا قياس ، ولذلك اشترط الشافعي على من يقوم به ان يكون عالما بالاخبار ، عاقلا للتشبيه عليها . (٥٦)

يتضح مما تقدم ان العلم هو ، جوهريا ، اتباع . فلم « يجعل الله لاحد بعد رسول الله ، ان يقول الا من جهة علم مضى قبله ، وجهة العلم الكتاب والسنة والاجماع والاثار وما وصفت من القياس عليها » . (٥٧) « والاتباع اتباع كتاب ، فان لم يكن فسنة ، فان لم تكن فقول عامة من سلفنا لا نعلم له مخالفا ، فان لم يكن فقياس على كتاب الله عز وجل ، فان لم يكن فقياس على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان لم يكن فقياس على قول من عامة سلفنا لا مخالف له » . (٥٨) وبما ان القياس يوحى باعتماد الرأي ، فقد وضع الشافعي شروطا تقيد به « بما مضى » لكي يكون جائزا .

واول الشروط هو ان على القائل ان يجمع « الالة التي له القياس بها ،

وهي العلم باحكام كتاب الله : فرضه ، وادبه ، وناسخه ، ومنسوخه ، وعامه ، وخاصة ، وارشاده » (٥٩) وعليه أن « يستدل على ما احتمل التأويل منه بسنن رسول الله ، فإذا لم يجد سنة فباجماع المسلمين ، فان لم يكن اجماع فبالقياس . ومن هذه الشروط انه ليس « لاحد ان يقيس حتى يكون عالما بما مضى قبله من السنن ، واقاويل السلف واجماع الناس واختلافهم ، ولسان العرب » . (٦٠)

وحين يشرح الشافعي ما يقاس عليه وكيفية القياس يقرر من الناحية الاولى انه لا يقاس الا على خبر أو حكم « لله أو لرسوله وجدت عليه دلالة فيه أو في غيره من احكام الله أو رسوله بانه حكم به لمعنى من المعاني ، فنزلت نازلة ليس فيها نص حكم ، حكم فيها حكم النازلة المحكوم فيها ، اذا كانت في معناها » . (٦١) ثم يضرب امثلة على ذلك فيقول ان الله اذا حرم في كتابه أو حرم رسول الله « القليل من الشيء » علم ضرورة ان الكثير من هذا الشيء محرم ايضا ، او محرم اكثر « بفضل الكثرة على القلة » . وكذلك اذا اباح الله أو الرسول الكثير من الشيء ، فان الاقل من هذا الشيء « اولى ان يكون مباحا » . (٦٢) وهكذا يتضح مفهوم القياس عند الشافعي من انه شكل من التماس المشابهة بين مسألتين : قديمة وحادثة ، ينشأ عنها حكم في المسألة الحادثة يشبه الحكم في المسألة القديمة . لذلك « يمتنع ان يسمى القياس الا ما كان يحتمل ان يشبه بما احتمل ان يكون فيه شبهة من معنيين مختلفين ، فصرفه على ان يقيسه على احدهما دون الاخر » . (٦٣)

واذا كان في القياس ما يتيح الاختلاف ، فان لهذا الاختلاف حدودا . وهو يكون ، كما يرى الشافعي ، « من وجهين : أحدهما محرم . . . وهو كل ما اقام الله به الحجة في كتابه أو على لسان نبيه منصوفا بينا » ، وهذا لا يحل الاختلاف فيه لمن علمه . اما الوجه الثاني فهو « ما يحتمل التأويل ويدرك قياسا » . (٦٤) فلا حجة في اي قول يخالف نص الكتاب أو السنة ، ولذلك لا يجوز الاختلاف فيه . ولا يعني الاختلاف بالوجه الثاني مخالفة لنص الكتاب والسنة ، بل انه يعني اختيار المؤول أو القائس لمعنى يراه اشبه بمعنى الكتاب والسنة (٦٥) .

ويخلص الشافعي الى القول : « يحكم بالكتاب والسنة المجتمع عليها الذي لا اختلاف فيها ، فنقول لهذا : حكمنا بالحق في الظاهر والباطن . ويحكم بالسنة قد رويت من طريق الانفراد لا يجتمع الناس عليها ، فنقول :

حكمنا بالحق في الظاهر ، لانه قد يمكن الغلط فيمن روى الحديث . ونحكم بالاجماع ثم القياس وهو اضعف من هذا ، ولكنها منزلة ضرورة ، لانه لا يحل القياس والخبر موجود » . (٦٦)

ويقترن الاسلام عند الشافعي باللغة العربية ، فالقرآن الذي هو اصل البيان « نزل بلسان العرب » ، وليس منه شيء « الا بلسان العرب » ، (٦٧) ولذلك فان العلم به يقتضي العلم باللسان العربي واصول الفاظه ومعانيه . ولا يطلب هذا العلم الا عند العرب ، اذ « لا يعلمه الا من قبله عنها ، ولا يشركها فيه ، الا من اتبعها في تعلمه منها ، ومن قبله منها ، فهو من اهل لسانها » . (٦٨) ، فهو يرى ان تعلمها فرض ، لشهادة الشهادتين ، وتلاوة الكتاب . يقول : « فعلى كل مسلم ان يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ، ويتلو كتاب الله ، وينطق بالذكر ، فيما افترض عليه من التكبير ، وامر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك » . (٦٩)

واذا كان الاسلام افضل الاديان ، فان اللغة التي نطق بها افضل اللغات ، ويكون اهل هذا الدين وهذه اللغة ، تبعاً لذلك ، افضل الناس . يقول الشافعي : « واولى الناس بالفضل في اللسان ، من لسانه لسان النبي . ولا يجوز ، والله اعلم ، ان يكون اهل لسانه اتباعا لاهل لسان غير لسانه في حرف واحد . بل كل لسان تبع للسانه . وكل اهل دين قبله ، فعليهم اتباع دينه » . (٧٠) ولهذا يتوجب على كل مسلم « ان يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده » ، وهكذا يكون « تبعاً فيما افترض عليه ونسب اليه لا متبوعاً » . (٧١)

وبهذا المعنى كان يقول : « اصحاب العربية جن الانس ، يبصرون ما لم يبصر غيرهم » . (٧٢) ، مشيراً بذلك الى انهم اكثر قدرة من غيرهم على فهم القرآن والسنة واجدر ، بالتالي ، من غيرهم في تأويل معانيهما . ومن هنا روي عنه ما يؤكد عصمته عن الخطأ في النحو ، اي يؤكد حجيته ، توكيدا لحجيته في فهم القرآن والسنة . فقد روي عنه انه قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام قبل حلمي ، فقال : يا غلام ، فقلت : لبيك يا رسول الله . قال : ممن انت ؟ قلت : من رهطك . قال : ادن مني ، فدنوت منه

ففتح فمي ، فامر من ريقه على لساني وفمي وشفتي ، وقال : امض ، بارك الله فيك . فما اذكر اني لحتت في حديث بعد ذلك ولا شعر » . (٧٣)

وفيما يتعلق بالاخلاق فان الاسلام ، كما هو معروف ، امر او نهى . فالشريعة الاسلامية مؤسسة على كلمتين : افعل ، لا تفعل . ومدلول الامر هو الوجوب ، اي الامتثال الكامل . ومدلول النهي هو التحريم ، اي الامتناع الكامل (٧٤) . ومقتضى الامر هو الحسن ، ومقتضى النهي هو القبح . وفي رأي الشافعي ان الشريعة اذا امرت بفعل ، فان هذا الفعل يكون حسنا بحكم الشريعة ، واذا نهت عن فعل ، فانه يكون قبيحا بحكم هذا النهي . فالحسن صفة لازمة وثابتة فيما امرت به الشريعة ، والقبح صفة لازمة وثابتة فيما نهت عنه . والحسن والقبح واجبان بالشريعة وحدها ، وليس للعقل دور في معرفة ذلك .

وينتج عن القول ان الحسن والقبح شرعيان القول باعتبار الكتاب والسنة « كل الشرع ولا يلحق بهما الا ما يحمل عليهما بالقياس » ، اي تضيق « باب الاجتهاد » (٧٥) او الاعتماد على العقل . وفي هذا ما يفسر ، بشكل مباشر ، موقفه من علم الكلام . فقد رفضه اصلا ، ورفض الاراء التي تنتج عنه ، كمسألة خلق القران وغيرها من المسائل . يقول : « ما شيء ابغض الي من الكلام واهله » . (٧٦) ويقول : « اذا سمعت الرجل يقول : الاسم هو المسمى ، او غيره ، فاشهد انه من اهل الكلام ، ولا دين له » . (٧٧) وعلى هذا فان رايه في القرآن هو انه غير مخلوق ، وهو يكفر القائلين بخلقه . (٧٨)

واخيرا يرى الشافعي ان الامامة امر ديني لا بد من اقامته ، وانها في قریش ، وانه لا بد من ان يجتمع الناس على الامام ، قبل ولايته او بعدها ، وان على الخليفة او الامام ان يكون عادلا . ولا فرق ان يلي الخلافة بالسيف او بالرضا . فقد روى عنه قوله : « كل قرشي غلب على الخلاف بالسيف واجتمع عليه الناس ، فهو خليفة » . (٧٩) هذا من الناحية النظرية ، اما على الصعيد العملي ، فكان يرى في الخلاف بين علي ومعاوية ان عليا كان محقا ، وان معاوية كان باغيا . (٨٠)

هكذا تكتمل الصورة عن تنظير الشافعي للثقافة الاسلامية – العربية ، فهو يرى ان القرآن والسنة اصلها الكامل الثابت ، وان كل فهم لما يحدث

بعد هذا الاصل يجب ان ينبثق منه انبثاق الفرع . فالاصل هو مجمل الماضي والحاضر والمستقبل ، مجمل الواقع والممكن ، ما كان وما يكون ، وليس فهم الاحداث الناشئة الا تبيينا لهذا المجمل وتفريعا عليه . الانسان ، بحسب هذا التصور ، يصدر عن معرفة كاملة مسبقة ، لا يمكن ان تلفيها او تتجاوزها اية معرفة لاحقة . بل ان كل معرفة لاحقة لا تكتسب حجيتها وصحتها الا من كونها قياسا على تلك المعرفة السابقة . المعرفة اللاحقة ثانية ولا تكون الا في ضوء المعرفة الاولى . بتعبير آخر: ليست المعرفة عند الشافعي اكتشافا يحققه الانسان في اثناء تفاعله مع الواقع ، فيؤثر ويتأثر ، ويفر ويتغير ، وتتغير المعرفة تبعا لذلك . وانما المعرفة حقائق نهائية خارجة عن الانسان ، وعليه ان يتقبلها ويأخذها كما صدرت عن المعرفة الاولى .

والمعرفة الاولى وحي يتوجه الى الجماعة لا الى الفرد . وهذا يعني ان المعرفة اللاحقة لا تصح الا اذا كانت جماعية . ومن هنا عصمة الجماعة وكونها لا تخطيء . والجماعية تنفي الفردية او التفرد ، فيما تؤكد على الاستعادة او الاجماع . ان نسبة الفرد الى الجماعة تشبه نسبة القياس الى الاصل . فكما ان القياس لا يكون الا حملا على اصل ثابت ، فان رأي الفرد لا حجة فيه الا بقدر ما يجمع عليه ، في ضوء الاصل . ولعل في هذا ما يفسر ، على الصعيد السياسي ، رفض الخروج حتى على الخليفة الجائر ، والقول بطاعته والخضوع له .

يقوم فكر الشافعي على مبدئين للنظر والسلوك . المبدأ الخاص بالنظر هو ما يمكن ان نسميه بمبدأ التشابه ، ويعني ان اللاحق يجب ان يشبه السابق ، باعتبار ان السابق اصل كامل . انه بمثابة علة - والتفكير اللاحق معلول لها ، وهو لذلك يشبهها .

اما المبدأ الثاني فيمكن ان نسميه بمبدأ التواصل ، او الاتصال ، ويعني ان الفرع الشبيه بالاصل ، يقابله ، في الممارسة ، فعل يؤثر على المفكر اللاحق ، كما كان يؤثر على النموذج ، اي على المفكر السابق . ثمة فكر تشابهي مقرون بفعل تواصل .

ويتضح ان في مثل هذه النظرة بعدا سحريا ، اي انها لا تقيم اي اعتبار لتغير الزمان والمكان ، وللتاريخ واحداثه .

وهذا الفكر النظري يتطابق مع السياسة من حيث ان السياسة **خلافه**، اي انها استعادة كاملة لاصلها الاول . ومثل هذا الفكر اذن ، يدعم النظام الذي يقوم على هذه الممارسة ، ويدعم اسسه الاقتصادية والاجتماعية .

وعلى هذا يمكن القول ان موقف الشافعي من المعرفة لا يؤدي الى انتاج معرفة جديدة ، وانما على العكس يعيد بصيغ اخرى انتاج المعرفة السابقة . وبهذا المعنى نسميها شرحا او تفسيراً او تشعيلاً او تفريعاً او تنويعاً ، لكننا لا نستطيع ان نسميها معرفة جديدة .

ان موقف الشافعي يؤدي الى اعتبار المعرفة فن **الفهم** لما سبق . انها صناعة تانية لما هو موجود ، بشكل كامل الصنع . وعلى هذا ليست المعرفة ان نبحت عما لا نعرفه - عن المجهول ، وانما هي ان **نتقن** فهم المقاصد من معرفتنا الاولى ، الكاملة : الدين .

ولا يتضمن ، بالطبع ، هذا الموقف امراً وانما يتضمن كذلك النهي . انه لا يحدد للمفكر ماذا يفعل ، وانما يحدد له كذلك ما يتحتم عليه اجتنابه .

انه مبدأ يحمل الخير والشر في آن - فالاتفاق مع هذا المبدأ يؤدي الى خير الجماعة ، وخرقه يؤدي بالمقابل الى شر لا يلحق بمن يخرقه وحده ، وانما يلحق بالجماعة كلها . ومن هنا مسوغات الجماعة في اعتبار هذا الفرد «خارجاً» عنها : مرتداً ، او ملحداً ، او زنديقاً . . . فكر هكذا ، لكي تكون مؤمناً / لا تفكر بعكسه لكي لا تكون ملحداً . وهو اذن ليس مبدأ تفكير بقدر ما هو مبدأ اخلاق او قاعدة للادراك السليم .

الواقع في هذا المنظور ، تصور ديني وليس نشاطاً يقوم به الانسان . فالعمل شيء ثانوي بالقياس الى النظر ، والحركية ليست في الطبيعة والواقع ، وانما هي في ارادة الله . فالتاريخ يصدر عن مشيئة الله ، لا عن مشيئة الانسان . وهذا يعني ان الفكر الديني هو الذي يجب ان يكيف الواقع ، ويكيف السلوك الفردي والجماعي .

وفي هذا كله يبدو الشافعي نموذجاً اول للفقيه كما يحدده الغزالي : « . . . فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق اذا تنازعوا بحكم الشهوات ، فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده الى طريق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامتهم امورهم في الدنيا . ولعمري انه متعلق ايضاً بالدين ، ولكن لا بنفسه ، بل بواسطة الدنيا ، فان الدنيا مزرعة

الآخرة ، ولا يتم الدين الا بالدينيا ، **والمملك والدين توأمان** . فالدين اصل والسلطان حارس ، وما لا اصل له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع ، ولا يتم المملك والضبط الا بالسلطان ، وطريق الضبط في فصل الحكومات بالفقه » . (٨١)

يبدو مما تقدم ان الامام الشافعي كان رائدا في التنظير للوحدة بين الدين والدولة . فهما ، وان تباينا في الشكل ، واحد في المحتوى او الجوهر . فليست الدولة الا ارادة الله الراهنة ، او المقدرة في الحاضر . انها الدين وقد تحول الى تنظيم واقعي للعالم . ومن هنا ندرك سر موقفه من الصوفية والتجربة الباطنية ، بعامة . فالدين الذي يكون دين القلب ، اي دين الحقيقة التي تقابل الشريعة ، والذي يتخذ الباطني حجة لتجاوز الشريعة ونقد الدولة وسياستها ، مناقض ، في رأي الشافعي ، للرؤيا الاسلامية . فليس من طبيعة الدين ان يكون ضد الدولة ، بل ان من طبيعته ، على العكس ، ان يقرها ويؤيدها ويكون معها وحدة لا تنقسم .

وقد حاول الشافعي ان يحدد الصلة بين الفكر الديني والواقع السياسي ، فآثر كل ما هو راهن ، وافتي بعدم جواز الخروج على الخليفة . فهو يرى ان الواجب يقتضي تفضيل الحاضر والمحافظة عليه واعتباره افضل ما يمكن ، ويرى ان كل ما يؤدي الى هدمه أمر يناقض القانون الطبيعي والقانون الالهي في آن . وفي هذا ما يكشف عن رأي الشافعي في العقل . فليس العقل هو الذي يمنح اليقين ، بل الوحي . بل ان الايمان بالوحي لا يتم بفعل العقل ، وانما يتم بفعل الارادة . وكل ما قد يخالف يقين الوحي يجب ان يحكم عليه بالوحي ذاته . فالحقيقة العليا هي حقيقة الوحي لا حقيقة العقل . والعقل عاجز ، عن ان يدرك حقيقة الوحي . فالانسان لا يعقل لكي يؤمن ، وانما يؤمن لكي يعقل . وعلى هذا يجب فهم الوحي بالتقليد ، اي بالسنة ، لان حقائق الوحي من طور يتجاوز طور العقل .

ولئن وصل الفقه السني الى كماله مع الشافعي ، فقد وصل التنظير الديني للسياسة الى كماله ، معه ايضا . فهو الذي وحد ، في نظام فقهي - فكري ، بين الدين والسياسة . وكان طبيعيا ان يكون هذا الكمال مقدمة لمفترق في النظر والفهم . فالشافعي يمثل ، في تاريخ الفكر الديني ، لحظة

التوتر بين عالم اكتمل وصار مغلقا ، وعالم يطمح الى التفتح والبدء .

IV

كان هذا التاصيل الذي قام به الشافعي بمثابة الطريق الملكية لمن جاء بعده من باحثي الاصول . فان « حصر المصادر الحقيقية للشريعة في نصوص القرآن والسنة ، والاخذ بالاجتهاد ضمن نطاق القياس فقط واخراج ما عدا ذلك ، من طرق الاجتهاد ، كالاتحسان والاستصلاح ، واعتبار الاجتهاد حملا على النص ولا شيء فيه غير النص » (٨٢) وهذه هي الخصائص الاساسية للمذهب الشافعي ، اصبحت مبادئ ثابتة . وكان الامام احمد بن حنبل (٨٣) ابرز من تابع هذه المبادئ في القرن الثالث الهجري . فهو يستمد مذهبه ، بشكل عام ، من المذهب الشافعي ، ومن الحديث بشكل خاص (٨٤) . وكان يرى ان العلم الوحيد الكافي بداته هو علم السلف ، وما عداه ابتداع يجب انكاره والابتعاد عنه . والقول بخلق القرآن ابتداع ، ولهذا رفض ، بآدى الامر ، مسامرة المبتدعين ، والبحث في هذه المسألة . فلم يقل ان القرآن مخلوق ولم يقل انه غير مخلوق . فلقد رفض المسألة ، اصلا . وروى عنه قوله : « من زعم ان القرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن زعم انه غير مخلوق فهو مبتدع » . (٨٥) الا انه قرر فيما بعد ، بناء على طلب المتوكل كما يقال ، اعلان رايه ، فقال ان القرآن غير مخلوق ، دون ان يعني انه قديم . فلم يؤثر عنه انه قال بقدم القرآن ، باللفظ الصريح . لكن القول بانه غير مخلوق ، يتضمن القول انه قديم ، ولو لم يعلن ذلك صراحة .

ويؤثر عنه انه نهى عن الخوض في هذه المسألة ، لانها لم ترد عن السلف ، وما لم يرد عنهم بدعة . (٨٦) وهكذا كان الامام احمد سلفيا نقليا ، وفي جميع القضايا التي واجهها كان ينتهي الى القول : « لست بصاحب كلام ، ولا ارى الكلام في شيء من هذا الا ما كان في كتاب او سنة او حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاما غير ذلك فان الكلام فيه غير محمود » . (٨٧)

وطبيعي اذن ان يأخذ بالنص كما جاء ، وأن يعتبر التأويل الذي لا يؤيده نص صريح من الكتاب والسنة ، خروجاً عليهما وابتداعاً . ولهذا كان من رايه ان يرجىء المؤمن « ما غاب عنه من الامور الى الله ، كما جاءت الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيصدقها ولا يضرب لها الامثال » . (٨٨)

وفيما يتعلق بالسياسة كان يرى رأي الشافعي في ان الخلافة النبوية لا تكون الا في قريش . غير انه يقول بجواز امامة من تغلب ورضى به الناس . بل يرى ان طاعة المتغلب ، وان كان ظالما فاجرا ، واجبة وذلك تجنباً للفتن . وهكذا يكون الخروج على هذا الامام كفرا ، وان « مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية » . (٨٩)

وهذا الرأي هو ما يذهب اليه المحاسبي (٩٠) ، فيقول ان طاعة الامام واجبة في « العسر واليسر » الا في معصية الله ، يقول : « واجمع اهل العلم على الكف عن الامراء المسلمين ، والسمع والطاعة في العسر واليسر ، والا ينازع الامر اهله ، الا في معصية الله تعالى ورسوله ، فلا طاعة لهم في ذلك . وقال ابو بكر رضي الله عنه : « لا تسبوا السلطان » . وقال ابن عمر : « لو لم تسبوه لسلط الله عليهم نارا من السماء ، ولكن قولوا : اللهم آذهم كما آذونا » . وقال عمران بن حصين لحكيم بن عمرو الغفاري انه يذكر يوما انه قال رسول الله صلى عليه وسلم : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، وقال : « نعم ، اما انك حفظت فالزم » . ويروي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا طاعة لمخلوق في معصية » . وهذا اجماع لا خلاف فيه ، انه لا طاعة لاحد في معصية الله ، جل وعز ، في ارتكاب الفواحش وفي شرب الخمر وفي السجود للوثن وفي قتل النفس ظلما . وقد اجمعوا جميعا ان الامام المسلم الذي لا بدعة فيه ، اذا صلى للقبلة فقد حل لك الصلاة خلفه ، وان فسق وفجر ، وحرام عليك سبه » . (٩١) وقد مهد المحاسبي لهذا الكلام باستشهادات من اقوال النبي . يقول النبي : « يكون عليكم امراء يؤخرون الصلاة ، لوقتها ، ثم صلوا معهم (٩٢) تكون نافلة » . ويروي المحاسبي عن الرسول انه « قيل له ، وقد ذكر اهل الجور من الامراء : الا تنابذهم ؟ فقال : « دعوهم ما صلوا للقبلة » . (٩٣)

وكان قبل هذا الكلام قد سمي الخوارج « فئة غالطة » ، اذ قال : « ما وجدنا عالما ولا ناسكا ولا متعبدا ولا متصوفا يجتنب شيئا مما قلنا الا طائفة غالطة » ، قالت : اذا لم يعدل الامام في الرعية ، ويقسم الفيء بالسوية ، ويعطي العطاء ، ويسوي بين الناس في الارزاق ، ويكفي العامة ، ويفدي الاسير ، ويجاهد العدو ، ويقيم لهم الحج ، ولا يستأثر دونهم بالفيء ، كان عاصيا وكل من رضي بامامته كان عاصيا . فهذه فرقة خوارج مرقوا من الدين وخرجوا من حد الاسلام » . (٩٤)

كان هذا تنظيرا دينيا ايديولوجيا ، لمفهوم الخلافة - السياسة ، ولعلاقة الانسان بالنظام . ولم يكن هذا التنظير الا امتدادا للممارسة ذاتها . فقد كانت الخلافة ، بدءا من نشوء العهد الاموي ، تمارس باعتبارها ولاية مثبتة « في سابق الزبر بالاجل المسمى » (٩٥) ، اي تفويضا واختيارا من الله . ولم تكن البيعة الا نوعا من الاقرار بهذا الاختيار ، والاحتفاء به ، والخضوع له . ومن هنا كانت رمزا لاتباع الحق ، وكانت الطاعة العامة للخليفة تعني طاعة الله ، وكان الخروج عليه رمزا لاتباع الباطل ، اي رمزا للخروج على ارادة الله .

وبين اهم الوثائق التي تكشف عن طبيعة الخلافة ، كما فهمها الامويون ومارسوها كتاب الوليد بن يزيد بعقد البيعة بعده لولديه الحكم وعثمان . (٩٦) فقد جاء في هذا الكتاب انه « بالخلافة ابقى الله من ابقى في الارض من عباده » . وان سعادة الانسان هي في « طاعة من ولاه اياها » ، وانه « لا اقوم لشيء ولا صلاح له الا بالطاعة » . فهذه الطاعة للخليفة « يحفظ الله حقه ويمضي امره » ، ولهذا كان من يطيع « وليا لله » ومن لا يطيع « خاسرا لدنياه وآخره . . . ممن غلبت عليه الشقوة » ، واستحوذت عليه الامور الغاوية التي تورد اهلها افطع المصارع وتقودهم الى شر المصارع » ، اذ « بترك الطاعة والاضاعة لها ، والخروج منها والادبار عنها والتبدل للمعصية بها ، اهلك الله من ضل وعتا ، وعمي وغلا ، وفارق مناهج البر والتقوى » .

وليست الطاعة للخليفة وسيلة لابتغاء « القربى الى الله » وحسب ، وانما هي كذلك وسيلة لحقق دماء الامة « واجتماع كلمتها » واعتدال عمودها ، واصلاح دهمائها » . وهذا عائد الى ان طاعة الخليفة انما هي طاعة للخلافة التي جعلها الله للامة « نظاما ولامرهم قواما » .

وقد قامت الخلافة العباسية على المفهوم نفسه الذي قامت عليه الخلافة الاموية ، لكن بتنظير ديني اكثر غلوا . فالخلافة في نظر ابي العباس ، اول خليفة عباسي ، « حق » خصهم الله به ، وقد ابتزها « بنو حرب ومروان » و « تداولوها بينهم » فجاروا فيها واستاثروا بها وظلموا اهلها . . . « وقد انتقم الله منهم » بايدينا ، ورد علينا حقنا ، وتدارك بنا امتنا . . . ليعن بنا على الدين استضعفوا في الارض ، وختم بنا ، كما افتتح بنا » . (٩٧) ويصف عمه داود بن علي الخلافة بانها « ميراثنا من نبينا » ، ويقول انه « باق فينا

ليس بخارج منا حتى نسلّمه الى عيسى بن مريم » (٩٨) ، ويعني بذلك ان الخلافة باقية فيهم الى نهاية الزمان ، فهم الخاتمة كما انهم الفاتحة .

وهذا ما اكده الخلفاء العباسيون اللاحقون وبخاصة ابو جعفر المنصور ، الخليفة الثاني ، والذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية . ففي مناقشته مع محمد النفس الزكية يوضح ان الخلافة ارث منحصر في ابناء العباس ، وليس لابناء علي بن ابي طالب حق فيها . يقول في احدى رسائله التي تبادلها معه : « لقد علمت انه لم يبق من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره (يقصد العباس) ، فكان وارثه من عمومته . ثم طلب هذا الامر غير واحد من بني هاشم فلم ينله الا ولده : فالسقاية سقايته ، وميراث النبي له ، والخلافة في ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا اسلام ، في دنيا ولا آخرة الا والعباس وارثه ومورثه » . (٩٩) وكان ابو العباس السفاح قد اشار في اول خطبة القاها بعد مبايعته بالخلافة ، الى شيء من ذلك ، في قوله : « وزعمت السبئية الضلال ان غيرنا احق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم » . وهكذا عمل الخلفاء العباسيون للقضاء على بني عمهم من ابناء علي ، وكان المنصور يقول عنهم ، تسويفا للقضاء عليهم : « ان بني عمنا قد ابوا الا كيدا للمكنا واغتيالا له » . (١٠٠) ، ولقب نفسه بالمنصور بعد ان انتصر اخيرا عليهم . (١٠١) بل وصف نفسه بانه « سلطان الله في ارضه » (١٠٢) واعلن المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) / (٧٧٥ - ٧٨٥ م) الرأي نفسه وهو ان الخلافة حق لبني العباس ، عم الرسول ووارثه . (١٠٣) ولقد الفت كتب تدعم وجهة النظر العباسية ووضعت كذلك احاديث لهذه الغاية (١٠٤) .

وهكذا قامت الخلافة العباسية على اسس اكثر اغراقا في ادعاء السلطوية الالهية من الخلافة الاموية . فهي ميراث الهي يرتبط بحق القرابة من النبي ، وهي عودة الى الكتاب والسنة ، ودعوة اليهما . وقد الفت هذه التثوقراطية مبدا الشورى بشكل نهائي مكمل بذلك ما بداه الامويون ، وفرضت الطاعة المطلقة للخلافة التي اصبحت سلطة الله على الارض . وصار للخليفة - السلطان الالهي ان يورث سلطته ، كما يشاء ، وليس لاحد ان يعترض ، وانما يتوجب على الجميع ان يبايعوا الوارث ايا كان ، وان يطيعوه ويخضعوا لمشيئته . وصار الخليفة يلقب بلقب الامام توكيدا للمعنى الالهي في الخلافة واخذ يرتدي بردة النبي ، اشارة الى انه يرثه وينوب عنه . (١٠٥)

الفصل الثاني

تأصيل الاصول البيانية — الشعرية :
الاصومي والجاخط

I

كان الاسلام ، من الناحية اللغوية - الشعرية ، تثبيتا للاصل العربي القديم ، فاكّد على قابلية الشعر ، من جهة ، وعلى الفصل بين الشكل والمحتوى ، من جهة ثانية . وهكذا عبر عن محتواه الذي كان نفيا للقبليّة ، بالاشكال ذاتها التي ابتكرتها القبيلة . ومن هنا كان الشعر الاسلامي اتباعيا ، يقلد الشعر الجاهلي وينسج على منواله .

والواقع ان الذين نظروا للشعر العربي بدءا من القرن الثاني الهجري ، اعتبروا ان الشعر الجاهلي اصل ، وان الشعر الاسلامي تنويع عليه . ويتضمن هذا الموقف ازدواجية ثقافية : فقد كانت تتعايش في ذهن العربي ثقافة دينية تناقض الجاهلية ، وثقافة شعرية ، قائمة جوهريا على الجاهلية .

وبقدر ما كانت الحياة تتحول وتبرز نزعة الاستحداث ، كانت تبرز ، بالمقابل نزعة الرجوع الى الاصول والتمسك بثباتها ، وكان علماء اللغة يتشدّدون ، بالتالي ، في نقد الشعر المحدث ، انطلاقا من المقاييس التي استخلصوها من الشعر القديم ، واستنادا اليها . ويمثل النقد الذي وجه الى شعر ذي الرمة (١) صورة قوية لهذا الصراع بين الثبات والتحول . فقد كان ذو الرمة نموذجا انتقاليا بين الحياة في البادية والحياة في المدينة ، ومن هنا قيل عن شعره « ليس يشبه شعر العرب » ، واستثنى الاصمعي صاحب هذا القول قصيدة واحدة ، اذ تابع قائلا : « الا واحدة تشبه شعر العرب » (٢) . وتعني كلمة الاصمعي ان ذا الرمة لم يكن يحسن الهجاء مما « أخرجه من طبقة الفحول » (٣) . ولهذا اعتبر « مغلّبا » (٤) ، اي يغلبه الشعراء ويتفوقون عليه ، دائما . وقيل عن شعره انه « نقط عروس وابعار ظباء » ،

ويعنون بذلك انه سريع الزوال كالخال الذي تتحسن به المرأة يذهب منذ ان تلامسه الماء ، وانه يعجب لحظة سماعه ، كما ان لابعار الظباء مشما في اول شمها ، لكنها سرعان ما تصير رائحتها كرائحة البعر . وهذا ما تعبر عنه كلمة للفرزدق عن شعر ذي الرمة يقول فيها : « ان شممت شممت رائحة طيبة وان فتت فتت من نتن » . وتوضحه كلمة للاصمعي تقول : « ان شعر ذي الرمة حلو اول ما نسمعه ، فاذا كثر انشاده ضعف ولم يكن له حسن ، لان ابعار الظباء اول ما تشم يوجد لها رائحة ما اكلت الظباء من الشيع والقيصوم والجشجات والنبت الطيب الريح ، فاذا ادمت شمه ذهبت تلك الرائحة ، ونقط العروس اذا غسلتها ذهبت » . (٥) ويرى بعضهم انه لم يكن شاعرا كاملا ، وانما كان « ربع شاعر » ، لان « العلماء بالشعر » اجمعوا على « ان الشعر وضع على اربعة اركان : مدح رافع ، او هجاء واضع او تشبيه مصيب او فخر سامق ، وهذا كله مجموع في جرير والفرزدق والاخلط واما ذو الرمة فما احسن قط ان يمدح ولا احسن ان يهجو ولا احسن ان يفخر ، يقع في هذا كله دوننا ، وانما يحسن التشبيه ، فهو ربع شاعر » . (٦) .

وهكذا ترتبط الفحولة بالهجاء والمدح . ففي الرواية ان ذا الرمة قال للفرزدق : مالي لا الحق بكم معاشر الفحول ؟ فقال له : لتجافيك عن المدح والهجاء » (٧) . وهذا كله يدل على انه كان للمدح والهجاء اهمية اجتماعية - اخلاقية في الدرجة الاولى . فاذا كان الهجاء يرمي الرجل بمعايبه ويصيب ما فيه (٨) فان المدح يرمي الرجل بفضائله ويصيب ما فيه (٩) . والهجاء اذن حرب من نوع آخر فيها غالب ومغلوب . والمدح كذلك نوع من التسليح فهو يحشد الفضائل ويبرزها ، ويهجم بها الشاعر على العدو او يدافع بها ، فالمدح والهجاء مترابطان وهما سلاحان اجتماعيان . والشاعر الذي لا يحسن المدح والهجاء يكون في القبيلة ، بمثابة رجل لا سلاح له ، اي لا دور له ، اي لا قيمة له .

ولئن كان هذا النقد يكشف عن نزعة العداء للمحدث ، فانه يكشف كذلك عن نزعة العودة الى الجاهلية . وقد تجلت هذه النزعة ، على صعيد النقد في الفصل بين الشعر والدين . وربما كان ابن ابي عتيق (١٠) رائدا اول لهذا الفصل فقد روي عنه قوله عن عمر بن ابي ربيعة : « لشعر عمر بن ابي ربيعة نوبة في القلب وهلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لشعر ، وما عصي الله جل وعز بشعر اكثر مما عصي بشعر عمر بن ابي ربيعة » (١١) . وتشير اخباره

مع عمر الى انه كان ينطلق من هذا الفصل ، في تدوقه لشعره وتفضيله اياه ، على الرغم من اعترافه بفسوق الشاعر (١٢) والى هذا ايضا تشير اخباره مع شعراء آخرين . (١٣) وهذا هو الموقف نفسه الذي وقفه من الفناء والمفنين (١٤) .

ويتضمن الفصل بين الشعر والدين فصلا بينه وبين الاخلاق الدينية . ويتضمن كذلك القول بالامتناع عن مطالبة الشاعر بالكلام على موضوعات دينية ، بل يتضمن ، على العكس من ذلك ، مطالبة ، ولو بشكل غير مباشر ، بالابتعاد عن هذه الموضوعات . وهذا ما تشير اليه كلمة لابي عمرو بن العلاء عن لبيد يقول فيها : « ما احب الي شعرا من لبيد بن ربيعة لذكره الله عز وجل ولاسلامه ولذكره السدين والخير ، ولكن شعره رحي بزر » . (٥)

وتعني هذه الكلمة ان ابا عمرو بن العلاء يحب لبيدا لصلاح شعره ، لا لقوته الفنية او المعنوية . وبهذا المعنى كان الاصمعي يقول عن لبيد « كان رجلا صالحا » قاصدا بذلك ان « ينفي عنه جودة الشعر » (١٦) . والجودة هنا لا تعني الصنعة ، بدليل قول الاصمعي عنه ايضا : « شعر لبيد كأنه طيلسان طبري » ، « يعني انه جيد الصنعة ولبست له حلاوة » (١٧) . فكأن المضمون الديني او الاخلاقي لا حلاوة له . والاصمعي هو الذي يقول في صدد حسان ابن ثابت : « الشعر نكد باباه الشر ، فاذا دخل في الخير ضعف . هذا حسان فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الاسلام سقط شعره » . وهو الذي يقول عنه ، في رواية ثانية : « شعر حسان في الجاهلية من اجود الشعر ، فقطع متنه في الاسلام » . (١٨) وقد عني هذا الفصل بين الشعر والخير ان يقبل الشاعر على ما « يلد ويشتهي » كما يعبر الاحوص ، بالنسبة الى بعض ، وعنى بالنسبة الى بعض آخر ، متابعة الطريقة الجاهلية ، التي هي وحدها « طريق الشعر » (١٩) كما يعبر الاصمعي ، ويعني بها « طريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهر والنايفة من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيول والحروب والافتخار » (٢٠) . وفي هذا بداية الشقة التي اخذت تتسع فيما بعد بين الشعراء الذين حرصوا على ما « يلدون ويشتهون » ، وعلماء اللغة والدين الذين يحرصون على التمسك بالمقاييس والقيم المستقرة الموروثة ، شعريا ولفويا واخلاقيا .

II

في هذا المنحى ، حاول الاصمعي (٢١) ان ينظر للفحولة الشعرية، وان يحدد النموذج الشعري الجاهلي الذي يجب ان يحتذيه كل شعر يأتي بعده . وهو يحدد الفحولة بانها امتياز ، فحين سئل : ما معنى الفحل ؟ اجاب بان الفحل هو ما « له مزية على غيره » ، واكمل جوابه بمثل يوضح رايه ، فقال : « كمزية الفحل على الحقائق » (٢٢) ، اي كمزية البالغ الناضج على الصغير الناشئ . والحق ، هو من الابل ، الذي استكمل ثلاث سنوات ودخل في الرابعة .

لكن ما هو هذا الامتياز ، او كيف يتجلى ؟ ويجب الاصمعي فيحدد هذا الامتياز فيما يلي :

أ - الخطوة ، اي المنزل والمكانة .

ب - السبق .

ج - الاخذ من قوله .

د - اتباع مذهبه .

واذا عبرنا عن ذلك بلغتنا ومصطلحاتنا الحديثة قلنا ان الشاعر العظيم في نظر الاصمعي ، هو الذي يتكرر ما لا سابق لمثله ، ويؤثر في الدين يأتون بعده فيسيرون في الطريق التي فتحتها .

وحين يحاول الاصمعي ان يسمي الفحل الاول يتردد ، للوهلة الاولى ، بين امرئ القيس والناطقة الديباني . لكنه لا يلبث ان يرجح امرأ القيس . فهو « اولهم » وهو « راس الشعراء » وكلهم « تعلموا » منه . (٢٣)

وليس من الضروري، في نظر الاصمعي، ان يكون للشاعر الفحل السابق والتفوق في كل موضوع . بل على العكس : ان هناك فعولا « لا يحسنون صفة الخيل » (٢٤) مثلاً ، كالناطقة ، نفسه .

ويشترط الاصمعي في الفحولة توفر عدة صفات :

أ - القوة او كل ما يناقض ما يسميه هو « اللين » . ونفهم من سياق بعض آرائه ان الشاعر الفحل هو ما يصدر عن القوى الفطرية ، وغير المروضة

في نفسه . فاذا ما روضت هذه القوى بتأثير « الخير » او « الصلاح » او « الدين » ، لان الشعر ، وكأنه يعني بقوله هذا انه بطل ان يكون فحلا ، اي شعرا حقيقيا ، شأن الشعر الجاهلي . فحين سئل عن لبيد بن ربيعة، اجاب: « كان رجلا صالحا » ، « كأنه ينفي عنه جودة الشعر » . ويقول عن شعر حسان بن ثابت كما سبق ان اشرنا ، بانه « لان » منذ ان دخل شعره في « باب الخير » . (٢٥)

فالفحولة ، بهذا المعنى ، هي اذن نقيض الليونة .
ب - تنقلنا هذه الصفة مباشرة الى صفة ثانية ~~فقط~~ فبها هي ان مبدأ الفحولة منفصل عن مبدأ الاخلاق . وهذا ما نعر عنه في الوقت الحاضر بالفصل بين الشعر والاخلاق ، او الشعر والدين . يقول الاصمعي : « طريق الشعر اذا ادخلته في باب الخير لان ، الا ترى ان حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والاسلام ، فلما دخل شعره في باب الخير - من مر بي النبي (ص) وحمة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم ، لان شعره » . (٢٦)

والشاعر الفحل اذن ، في نظر الاصمعي ، هو الذي لا يصدر في شعره عن الدين او عن الاخلاق . وتبعا لذلك نستطيع القول ان الاصمعي لا يجبل الشعر التبشيري او الشعر الايديولوجي .

ج - ومن صفات الفحولة ان تكون الغلبة في شخص الشاعر للشاعرية وصفاتها - اي ان يكون منقطعا ، بالدرجة الاولى ، الى الشعر . اما الشعراء الذين يكتبون الشعر في اوقات فراغهم ، بحيث لا يكون الهاجس الاول عندهم ، فانهم ليسوا بفحول ، وربما ليسوا شعراء والاجر ان يسموا باسماء اخرى .

فقد سئل الاصمعي عن عروة بن الورد فقال : « شاعر كريم ، وليس بفحل » . وقال عن ابي دؤاد الايادي انه « صالح » ، ولم يقل انه فحل . وقال عن حاتم الطائي : « انما يعد بكرم » (٢٧) كمروة وليس فحلا . وسئل عن عنتره وخفاف بن ندبة والزبرقان بن بدر وعباس بن مرداس السلمي وبشر بن ابي خازم وزيد الخيل الطائي ، فقال عنهم انهم من « الشعراء الفرسان » (٢٨) ولم يقل انهم من الفحول .

فهؤلاء الشعراء لا يقلب عليهم هاجس الشعر ، فهم اذن ليسوا فحولا والاحرى ان يسموا « صلحاء » و « كرماء » و « فرسانا » .

د - وإذا كان من الضروري ان يغلب هاجس الشعر عند الشاعر الفحل، جميع الهواجس الاخرى ، فمن الضروري كذلك ان يكون له نتاج شعري كاف، من حيث الكمية . فقد تكون القصيدة الواحدة علامة على الفحولة ، كما هو الشأن في مرثية كعب بن سعد الفهري ، لكنها لا تكفي لكي تضعه في عداد الفحول . وكمية القصائد التي يحددها الاصمعي تتراوح بين حد أدنى هو خمس او ست قصائد ، وحد أقصى هو عشرون قصيدة . فحين سئل عن معقر البارقي هل هو فحل ، اجاب : « لو اتم خمسا او ستا لكان فحلا » . (٢٩) ، اما حين سئل عن اوس بن غلفاء الهجيمي ، فقد اجاب : « لو كان قال عشرين قصيدة ، للحق بالفحول » . (٣٠)

هـ - والصفة الضرورية الاخيرة من صفات الفحولة هي ما يمكن ان نسميه اليوم الثقافة الواسعة ، لا في اللغة وضروب الايقاع وحسب ، بل في مختلف المعارف الاخرى . فقد اورد ابن رشيق في كتاب العمدة ، نصا عن الاصمعي يوضح فيه ذلك ، فيقول : « لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي اشعار العرب ، ويسمع الاخبار ، ويعرف المعاني ، وتدور في مسامعه الالفاظ ، واول ذلك ان يعلم العروض ليكون ميزانا على قوله ، والنحو ليصلح به لسانه وليقيم اعرابه ، والنسب وايام الناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح او ذم » . (٣١)

ان لكتاب « فحولة الشعراء » للاصمعي اهمية اخرى ، بالاضافة الى تحديده معنى الشاعر الفحل وصفاته ، يمكن ان نحددها فيما يلي :

ا - لا يرى في الشعر الجاهلي وشعر القرن الاسلامي الاول كلا اصليا واحدا ، انه يرى الاصولية في الشاعر لا في الجماعة او الفترة الزمنية . وعلى هذا الاساس يرفض فحولة كثير من الشعراء الجاهليين والاسلاميين الاول : مثل : زهير ، الاعشى ، عمرو بن كلثوم ، عنتر ، عدي بن زيد ، المهلهل ، الراعي ، ابن مقبل ، لبيد ، كعب بن زهير ، وغيرهم .

ب - يفرق الاصمعي بين الشاعر « البدوي » والشاعر « العربي » . وهو يفصل بالشاعر العربي الشاعر الجاهلي . ففي نهاية كتاب « فحولة الشعراء » ورد هذا القول عنه : « وذو الرمة حجة لانه بدوي ، ولكن ليس يشبه شعره شعر العرب » ثم قال : الا واحدة ، التي تشبه العرب ، وهي التي يقول فيها :

« والباب دون ابي غسان مسدود » (٣٢) .

وهذا يعني ان هناك من يمكن ان يكون حجة ، اي معيارا ومقياسا ، دون ان يكون جاهليا . غير ان كونه حجة مشروط بكونه بدويا . فالاصولية ، اذن ، غير مقصورة على الشعر الجاهلي ، وانما قد تلتبس ، بل توجد ، في غيره - مما لا يشبهه .

غير ان الاصمعي يؤكد بالمقابل ان الشاعر المولد لا يمكن ان يكون حجة يقول : « الكميت بن زيد ليس بحجة لانه مولد » . (٣٣) ، وهو بذلك يفلق بابا لو انه ظل مفتوحا لكان ادى الى نتائج عظيمة في الشعر وفهمه ، وفي تحديد صلة الشاعر اللاحق بالشاعر السابق ، اي تحديد صلة ' حدث بالقديم .

III

ان مبدأ الفحولة عند الاصمعي صورة اخرى لما يمكن ان نسميه مبدأ الاولية الجاهلية . فالشعر الجاهلي اولية تعبيرية ، وهو لذلك اولية « علمية » . والاولية هنا رمز للصحة ، لانها رمز للفطرة . وفي هذا الضوء يمكن ان نفهم الدلالة في الكلمة التي تؤثر عن عمر بن الخطاب من انه قال : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصح منه » . (٣٤) ، ونفهم كذلك الدلالة في قول ابي عمرو بن العلاء (توفي سنة ١٥٤ هـ .) : « انما نحن في من مضى كبقل في اصول نخل طوال » . (٣٥)

يحدد ابن سلام اولية الشعر الجاهلي فيقول : « ان المهلهل بن ربيعة هو اول من قصد القصائد ، وانه سمي مهلهلا لهلهلة شعره كهلهلة الثوب ، وهو اضطرابه واختلافه » . (٣٦) ويقول الاصمعي ان « اول من تروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتا من الشعر مهلهل ، ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم ضمرة رجل من بني كنانة ، والارقط بن قريع . . . وكان بين هؤلاء وبين الاسلام اربعمائة سنة ، وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير » . (٣٧) ويرى بعضهم ان الافوه الاودي هو الاول ، ويرى اخرون انه ابن حذام . (٣٨) ولعبت العصبية القبلية دورا بارزا في الخلاف حول تحديد الشاعر الاول ، وهكذا كثروا : فمن قائل انه عبيد بن الابرص ، الى قائل انه عمرو بن قميصة ، او انه المرقش الاكبر . ومن قائل ، وهذا رأي الجاحظ ، انه امرؤ القيس ، ولا تعود بداية الشعر الجاهلي في رايه الى اكثر من مئة وخمسين سنة قبل الاسلام ،

أو مثني سنة اذا تسامح كثيرا . (٣) وهناك روايات تقول ان من الصعب تحديد اولية الشعر ومعرفة الشاعر الاول ، فان للشعر والشعراء اولا « لا يوقف عليه » . (٤٠)

لكن اذا كان ثمة تردد في تحديد اولية الشعر الجاهلي ، فمما لا شك فيه ان القصائد التي وصلتنا من الجاهلية تدل على انها تكمل تقليدا شعريا سابقا عليها ، وانها حلقة في سياق طويل . وتبعاً لذلك ، لا بد من ان نعترف بان عجزنا عن التحديد الدقيق لاولية الشعر العربي يجعلنا نفقد عناصر مهمة في دراسته وبخاصة ما اتصل منها بنشأته وكيفيتها ، وهل كانت دينية او سحرية او دينية وسحرية معا . (٤١)

وهناك روايات تجدر الاشارة اليها ، لا لذاتها ، فجميع الادلة تقطع بعدم صحتها ، وانما لما ترمز اليه . من هذه الروايات ما يزعم ان آدم هو اول من قال الشعر ، وكتبه باللغة العربية في رثاء ابنه هابيل . وتستطرد هذه الرواية الى القول ان ابليس رد على آدم بابيات مماثلة ، وباللغة العربية . وهذه الابيات التي كتبها كل منهما موجودة في الكتب « التي تؤرخ لنشأة الشعر العربي » . (٤٢) ومن هذه الروايات ما يزعم ان بعض الملائكة قال ، كذلك ، الشعر . ويزعم بعض هذه الروايات ان العمالقة وعادا وثمودا كتبت هي ايضا الشعر ، وتذكر ابياتا لها على سبيل التمثيل (٤٣) . وقيمة هذه الروايات كامنة فيما ترمز اليه ، كما اشرت . فهي تكشف من ناحية ، عن ميل واضعها الى تأكيد عراقية الشعر العربي وتاصله في جذر البشرية . وهي تكشف من ناحية ثانية ، عن المنحى العام لتفكيرهم ، وهو الوعي بان الانسان صائر الى زوال وعليه ان يعتبر بالماضي (٤٤) . وتكشف من ناحية ثالثة عن استعداد واضعها للاعتقاد بان في الشعر ، وان كتبه الانسان ، تبعاً مما وراء الانسان : من السماء او الملائكة او الشياطين (٤٥) . وهو ، اذن ، « جوهر لا ينفد معدنه » كما يعبر ابو زيد القرشي (٤٦) . وتكشف هذه الروايات ، من جهة رابعة ، عما سبعتبر اساساً نفسياً لتسويغ التقليد : فالشعر (اللغة) كالدين ، ولد كاملاً ، لا من حيث انه فطرة الانسان وحسب ، بل من حيث انه فعل سماوي او ملائكي ، يتجاوز الانسان . والانسان الكامل هو الذي يحاكي الكمال المتحقق في الماضي .

كل علم مكتسب انما هو علم ناقص ، بالقياس الى العلم الحاصل بالفطرة . وعلم العرب الذي هو الشعر علم حاصل بالفطرة . فهو غريزة العرب ، كما

يعبر الجاحظ (٤٧) . وصحة الفطرة والغريزة في الشعب دليل على كماله ، أي على تفوقه . وقد تحققت هذه الصحة في العرب ، ومن هنا اختصوا بالشعر ، رمز البيان الكامل . وحين يكون الشعر غريزة الشعب وفطرته فهذا يعني انه قوام شخصيته وجوهرها . ومن هنا ندرك الدلالة في كون الشعر معجز العرب او اعجازهم . فهو امر يخرق العادة عند البشر ، ذلك انهم عاجزون عن الاتيان بمثله . ندرك من هنا ايضا ان القرآن حين تحدى الشعر الجاهلي انما تحدى اعظم رمز عربي . لذلك لم يجد العرب ما يشبهون القرآن به غير الشعر .

واذا كان الشعر غريزة ومعجزا ، فهو اذن المعيار الاول في النظر الى الاشياء وفي تقييمها . ويعبر ابن قتيبة عن ذلك فيصف الشعر بانه « الحجة الفاطمة » (٤٨) حتى ان المآثر التي لا يسجلها الشعر تسقط ، فان « من لم يقيم عندهم على شرفه وما يدعيه لسلفه من المناقب الكريمة والفعال الحميدة ببيت منه، شذت مساعيه وان كانت مشهورة، ودرست على مرور الايام وان كانت جساما . ومن قيدها بقوافي الشعر واوثقها باوزانه ، واشهرها بالبيت النادر والمثل السائر ، والمعنى اللطيف ، اخلدها على الدهر ، واخلصها من الجحد ، ورفع عنها كيد العدو ، وفض عين الحسود . (٤٩) ومن هنا كان الشعر « معدن علم العرب » (٥٠) ، بل كان « علمهم الاصح » به كانوا « يأخذون واليه يصيرون » (٥١)

في هذا الضوء نفهم الدلالة في ارتباط الشعر الجاهلي بالقبيلة . فالشعر قوة تستخدمها القبيلة في اثبات وجودها والدفاع عنه (٥٢) . وتكشف « ايام العرب » في الجاهلية عن الارتباط العضوي بين شخصية القبيلة ودور الشعر . وسواء درسنا ايام القحطانية فيما بينهم ، او ايام القحطانيين والعدنانيين ، او ايام ربيعة فيما بينها ، او ايام ربيعة وتميم ، او ايام قيس فيما بينها ، او ايام قيس وكنانة ، او ايام قيس وتميم ، فاننا نلاحظ هذا الارتباط . وهو يتجلى على صعيدين : صعيد الوحدة بين الشاعر وقبيلته ، وصعيد الوحدة بين ما يقوله الشاعر ، وما تفعله القبيلة او تطمح اليه . (٥٣)

ويقول ابو عمرو بن العلاء ، معبرا عن ذلك : « كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، بفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف

من كثرة عددهم وبهاجم الشاعر غيرهم فإراقب شاعرهم » . (٥٤) ويلاحظ الجاحظ ان دور الشعر الجاهلي في اعزاز القبيلة واذلالها ، كان تابعا ، من جهة ، لمستوى القبيلة في النباهة والمجد ، ومن جهة ثانية لمستوى العلم بصناعة الكلام . فان هذا العلم ، كما يقول ، كعلم الطب لا يحتمل الوسطية . فاما ان يكون الطبيب حاذقا بارعا ، وحينئذ يمارس الطبابة ، واما انه لا يفقه منه الا الشيء القليل ، وحينئذ تكون ممارسة الطب وبالا عليه وعلى غيره . وهكذا العلم بصناعة الكلام . (٥٥)

ويمدنا الجذر اللغوي للفظ كلمة ، لكلم ، بدلالات اخرى تساعد في اغناء النظرة الى دور الشعر في القبيلة . يقال : كلم الرجل وكلمه ، اي جرحه . والكليم هو المجروح وهو المكلم . ومنها الكلمة ، وتسمى القصيدة والخطبة كلمة . (٥٦) وهذا يعني ان للكلمة في النفس فعل الجرح في الجسد ، فهي تترك اثرا في النفس كما يترك الجرح اثرا في الجسد .

ومن المفيد ان نتوسع في دراسة الالفاظ المشتقة من هذا الجذر، ودراسة مدلولاتها . فمنها الكلام ، وهو الطين اليابس . فكان في ذلك اشارة الى ان الكلمة التي لا تؤثر تشبه الطين اليابس . ومنها كمل وملك ، وملك وملك وملك ، وجميعها تعني الامتياز والقدرة والتفوق . ومنها لكم ، اي ضرب باليد مجموعة ، فكان الكلمة كاللكمة . ومنها كذلك مكل ، اي جف - فكان في ذلك اشارة الى ان الانسان الذي لا تعود لديه كلمات تؤثر في النفس يصبح مكلًا ، اي يصبح كالبتير التي جف ماؤها .

وهكذا يتبين لنا ان البعد الجوهري في القصيدة (الكلمة) هو ان تؤثر في النفس - اي في الآخر ، وان اهميتها مرتبطة بمدى هذا التأثير . فاللسان، في ميدان القول ، كاليد في ميدان العمل : « وجرح اللسان كجرح اليد » ، كما يعبر امرؤ القيس » (٥٧)

IV

اتخذ مبدا الاولية عند الجاحظ بعدا حضاريا قوميا ، فلم تعد الاولوية شعرية وحسب ، وانما اصبحت كذلك اولية عربية بالمعنى الشامل . ومن

هنا اخذت الاولى طابعا عنصريا : فالعرب ، في نظر الجاحظ ، اول الامم شعرا
ولفة وجنسا .

يتخذ الجاحظ في كتابه « الحيوان » من الشعر العربي مصدره الاول .
فقد استمد منه اسماء حيوانات كثيرة ، متوحشة واليفة ، وافاد منه في
الكلام على نعوتها وطرق حياتها . ويرى ان معرفة العرب بالحيوانات وليدة
الخبرة ولهذا كان قولهم فيه ثقة وحجة في آن . وكثيرا ما يعتبر هذا القول
حكما فصلا ، فهو يخطيء ، مثلا ، استنادا اليه ، راي أرسطو في عقوب العقاب
وجفائها لاولادها ، مستشهدا بما يقوله دريد بن الصمة ، على العكس ، عن
وفائها :

لها ناهض في الوكر ، قد مهدت له كما مهدت للبعل حسناء عاقر (٥٨)

ويعتقد الجاحظ ان الشعر العربي يرقى ، في الاكثر ، الى مثني عام قبل
الاسلام . (٥٩)

ويتحدث عن السر وراء كثرة الشعر في بعض القبائل الجاهلية وقلته في
بعضها الاخر . ويرى ان السر في الكثرة لا يعود الى كثرة العدد ، او شدة
البأس ، او كثرة الوقائع ، او علو المكانة ، او امتياز المكان بخصبه .

ويرى كذلك ان السر في القلة لا يعود الى « رداء الغذاء وقلة الخصب
الشاغل والغنى عن الناس » . فالشعر ، بكثرته وقلته ، في هذه القبيلة او تلك
يعود الى مقدار ما قسم الله لها من « الحظوظ والفرائز » كما انه يعود الى
نوعية « الاعراق » . (٦٠)

ويقول الجاحظ ، متابعا : « قد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون وان
كانوا مثلهم او فوقهم » . فالشعر « طبع عجيب » . (٦١)

ويمكن ان نصوغ راي الجاحظ في النقاط التالية :

١ - ان وجود الشعر في هذا الانسان او ذاك ، في هذه القبيلة او تلك ،
لا يفسر بعوامل خارجية : سواء ما اتصل منها بالطبيعة ، او اتصل بالحياة
الانسانية - الاجتماعية .

ب - الشعر « طبع عجيب » ، او هو « حظوة » : اي يختص به اشخاص دون اشخاص .

ج - وهو لذلك غريزة وعرق . والغريزة والعرق لا يفسران الا بانهما « قسمة » من الله .

د - هذه القسمة متفاوتة . ولا يستطيع العقل ان يعرف سببا لهذا التفاوت ، فهو مشيئة الله .

غير ان الجاحظ في كلامه على ان الشعر غريزة وعرق يقصد العرب وحدهم . فالغريزة العربية هي ، وحدها ، الغريزة الشعرية والعرق العربي هو وحده ، عرق الشعر . وفي هذا يقول ان « فضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب » . (٦٢)

ولعل قصر فضيلة الشعر على العرب هو الذي دفعه الى القول بان الشعر العربي لا يترجم . يقول : « والشعر لا يستطيع ان يترجم ، ولا يجوز عليه النقل . ومتى حول تقطع نظمه وبطل وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب ، لا كالكلام المنشور . والكلام المنشور المبثوث على ذلك احسن واوقع من المنشور الذي تحول من موزون الشعر . . . وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونان ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسنا ، وبعضها ما انتقص شيئا . ولو حولت حكمة العرب ، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن ، مع انهم لو حولوها لم يجدوا في معانيها شيئا لم تذكره العجم في كتبهم التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم . وقد نقلت هذه الكتب من امة الى امة ومن قرن الى قرن ومن لسان الى لسان حتى انتهت اليها وكنا آخر من ورثها ونظر فيها » . (٦٣)

في هذا النص افكار كثيرة لكننا نستخلص منه ما يهمنا في بحثنا مباشرة:

ا - كما ان فضيلة كتابة الشعر مقصورة على العرب ، فان فضيلة قراءته ، اي الافادة منه ، مقصورة هي كذلك على العرب . والجاحظ يقول في هذا الصدد ان « نفع » الشعر العربي « مقصور على اهله » ، فهو « به .د . من الادب المقصور ، وليس بالمبسوط » كما يعبر . (٦٤)

ب - بما ان الشعر غريزة ، والغريزة المعنية هي الغريزة العربية ، فان

الشعر العربي ليس « مضمونا » او « معاني » - والعرب لم يبتكروا المعاني ، وانما نقلوها عن الامم التي سبقتهم . وهذا ما يفسر موقف الجاحظ من المعاني وقوله عنها انها « مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبسدي والقروي والمدني » والحاحه على ان الشأن انما هو « في اقامة الوزن وتخير اللفظ . . . الخ » (٦٥) ، اي في شكل التعبير .

ج - الشعر هو في خصيصة الوزن . والوزن هو نفسه خصيصة عربية ، لانه خصيصة اللغة العربية ، وحدها ، بين اللغات جميعا ، فالوزن هو ، اذن ، معجزة الشعر العربي واللغة العربية .

د - كل ترجمة او نقل او تحويل يعني القضاء على هذه الخصيصة ، اي على موطن الجمال و « موضع التعجب » . وهكذا فان الشعر العربي « حين يحول يتهافت » . (٦٦)

وفي متابعتنا للنتائج التي تترتب على نظرية الجاحظ في غريزة الشعر وعريقته ، نصل الى مسألتين مهمتين : الاولى تمييزه ، ضمن الذين « يتكلمون بلسان العرب » ، بين الاعراب والمولدين . والثانية تمييزه بين العرب كأمة وغيرهم من الامم الاخرى ، من ناحية ، واللغة العربية وبقيّة اللغات من ناحية ثانية :

ا - ففي المسألة الاولى يعلن ان غريزة الشعر تتحقق ، على وجهها الاكمل في الاعرابي ، وان اي اعرابي افضل ، في هذا الصدد من المولد ، مهما كان . يقول : « والقضية التي لا احتشم منها ، ولا اهاب الخصومة فيها ، ان عامة العرب والاعراب والبدو والحضر من سائر العرب ، اشعر من عامة شعراء الامصار والقرى من المولدة والناثئة ، (الناثئة الطارئون) » (٦٧) . وحين يحدد الفرق بين الاعرابي والمولد ، يقول : « الفرق بين المولد والاعرابي ان المولد يقول بنشاطه وجمع باله الابيات اللاحقة باشعار اهل البدو ، فاذا امعن انحلت قوته واضطرب كلامه » . (٦٨)

ويروي الجاحظ ما يوضح هذا الفرق على لسان ابراهيم بن هانئ وهو قوله : « من تمام آلة الشعر ان يكون الشاعر اعرابيا » . (٦٩) . ويقول الجاحظ كذلك مؤكدا هذا الفرق : « ولم اجد في خطب السلف الطيب والاعراب الاقحاح الفاظا مسخوطة ولا معاني مدخولة ، ولا طبعا وديا ولا قولاً مستكرها . واكثر ما نجد ذلك في خطب المولدين البلديين المتكلفين ، ومن اهل الصنعة

المتأدين وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب ، او كان من نتائج التخير والتفكير » . (٧٠)

ب - اما في المسألة الثانية فيرى ان العرب كامة « انطق » (٧١) الامم ، وان « بلاد الاعراب الخلف - معدن الفصاحة التامة » . (٧٢) ولا يكتفي الجاحظ بل يفصل رأيه قائلا : « الامم المذكورون من جميع الناس اربع : العرب ، والفرس ، والهند ، والروم . والباقون همج واشباه الهمج . واما العوام من اهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وادبنا واخلاقنا ، فالطبقة التي عقولها واخلاقها فوق تلك الامم ، ولم يلبثوا منزلة الخاصة منا . على ان الخاصة تتفاضل في الطبقات ايضا » . (٧٣) . وهكذا يجعل « عوام » العرب اعلى بعقولهم واخلاقهم من الفرس والهند والروم . ولا يغير من الامر شيئا ان يستدرك قائلا : « واذا سمعتموني اذكر العوام فاني لست اعني الفلاحين والحشوة والصناع والباعة » . (٧٤) غير انه لا يقول لنا من يعني بالعوام ، وانما نعرف بانهم دون « منزلة الخاصة » من العرب . واذا كان هؤلاء العوام فوق الامم كلها ، عقلا وخلقا ، فما نأترى تكون مرتبة الخاصة ، وخاصة الخاصة ؟

هذا من ناحية تفضيل العرب كامة . اما من ناحية تفضيل اللغة العربية فيقول انها « اوسع » اللغات ، وان « لفظها اول » (٧٥) . ويقول كذلك : « والبديع مقصور على العرب ، ومن اجله فاقت لغتهم كل لغة ، وارتبت على كل لسان » . (٧٦)

ليس غريبا ، في هذا المنظور ، ان يصل الجاحظ الى القول ان « بلاد الاعراب الخلف معدن الفصاحة التامة » (٧٧) . وللصاحبة « مجرى » معين ، كما يعبر الجاحظ . فان « العتابي حين زعم ان كل من افهمك حاجته فهو بليغ ، لم يعن ان كل من افهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته ، والمصروف من حقه ، انه محكوم له بالبلاغة كيف كان . فمن زعم ان البلاغة ان يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة والخطا والصواب والاغلاق والابانة والملحون والمعرب كله سواء ، وكله بيانا . . . وانما عنى العتابي افهامك العرب حاجتك على مجرى كلام الفصحاء » . (٧٨) . فالبلاغة ليست مجرد الايصال والافهام ، وانما هي الايصال والافهام بمقتضى الفصاحة العربية واصولها .

والفصاحة لغة لا فكر ، اي لفظ لا معنى ، او هي ، كما نقول اليوم ، شكل لا مضمون . ومن هنا يميز الجاحظ بين اللفظ والمعنى ، ويجعل الالهمية الاولى للفظ ، ذلك ان « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني وانما الشأن في اقامة الوزن وتخفيف اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك : فانما الشعر صناعة ، وضرب من النسيج ، وجنس من التصوير » . (٧٩)

ولم يفصل الجاحظ بين اللفظ والمعنى الا ليؤكد فريدة اللغة العربية وتميزها . وكأنه اراد ان يقول ان الانسان لا يتميز بالمعاني التي يعبر عنها ، بل يتميز باللغة التي يعبر بها . فالمعاني عامة مشتركة ، اما اللفظ فمقصور خاص . والقيمة الاخيرة لثقافة شعب ما ، تنبع مما هو خاص به ، مقصور عليه ، لا مما هو عام مشترك . اذ لا سبيل الى معرفة امتيازه وتفردته الثقافي ، أي عبقريته الخاصة ، الا بمعرفة الشيء الذي يفرد عنه سواه . وهذا الشيء ، بالنسبة الى العرب ، هو اللغة ، او هو ، بتحديد ادق ، الشعر .

وانطلاقا من الفصل بين اللفظ والمعنى ، يؤكد الجاحظ القضايا التالية :
اولا - مشاعية المعاني ولا نهايتها ، حتى ان الجاحظ يكاد ان يوحى بالقول ان المعاني ليست موضع جدل ، فهي تشبه الهواء الذي يتنشقه الجميع . ولذلك ليست المسألة ان نسأل : ماذا قال الشاعر ؟ بل ان نسأل : كيف قال ؟ ان « المعاني مبسوطة الى غير غاية ، وممتدة الى غير نهاية . واسماء المعاني (الالفاظ) مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة » . (٨٠) ، ولهذا فان « حكم المعاني خلاف حكم الالفاظ » (٨١) . وعلى هذا تترتب نتيجتان :

الاولى ، ليس هناك احد من الشعراء احق بالمعنى من غيره ، اذ « لا يعلم في الارض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام ، وفي معنى غريب عجيب ، او في معنى شريف كريم ، او في بديع مخترع ، الا وكل من جاء من الشعراء من بعده او معه ، ان هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه ، او يدعيه بأسره ، فانه لا يدع ان يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه شريكا فيه ، كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف الفاظهم ، واعاريض اشعارهم ، ولا يكون احد منهم احق بذلك المعنى من صاحبه . او لعله ان يجحد انه سمح بذلك المعنى قط ، وقال انه خطر على بالي من غير سماع ، كما خطر على بال الاول . هذا اذا قرعوه به » . (٨٢)

والثانية ، هي ان المعاني ثابتة ابدا ، صالحة ابدا كالالفاظ ، فليس « في الارض لفظ يسقط البتة ، ولا معنى يبور حتى لا يصلح لمكان من الاماكن » (٨٣) . وهذا يعني انه لا عيب في ترداد المعاني وبعض الالفاظ ، فما « سمعنا نأخذ من الخطباء كان يرى اعادة بعض الالفاظ وترداد المعاني عيا » . (٨٤)

ثانيا - المشاكلة بين المعاني والفاظها ، ولئن كانت المعاني مشاعا او مبسوطا ، فان على الالفاظ ان تكون هي كذلك مبسوطا . وهكذا لا يحق للشاعر ان « يهدب لفظه جدا وينقحه ويصفيه ويروقه حتى لا ينطق الا بلب اللب ، وباللفظ الذي قد حذف فضوله ، واسقط زوائده حتى عاد خالصا لا شوب فيه . فانه ان فعل ذلك ، لم يفهم عنه الا بان يجدد لهم افهاما ، مرارا وتكرارا ، لان الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارت افهامهم لا تزيد على عاداتهم » . (٨٥)

والمشاكلة بين الالفاظ والمعاني ، من ناحية المبدأ العام ، تتضمن مشاكلة بين اللفظ والفرض الذي يحمله المعنى : « لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الاسماء : فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والافصاح في موضع الافصاح ، والكناية في موضع الكناية ، والاسترسال في موضع الاسترسال . واذا كان موضع الحديث على انه مضحك ومله ، وداخل في باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الاعراب ، انقلب عن جهته . وان كان في لفظه سخف وابدلت السخافة بالجزالة ، صار الحديث الذي وضع على ان يسر النفوس ، يكرها » . (٨٦) . ومن هنا كان « الاعراب يفسد نوادر المولدين ، كما ان اللحن يفسد كلام الاعراب . لان سامع ذلك الكلام ، انما اعجبته تلك الصورة وذلك المخرج ، وتلك اللغة وتلك العادة . فاذا دخلت على هذا الامر - الذي انما اضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيه - حروف الاعراب والتحقيق والتثقل ، وحولته الى صورة الفاظ الاعراب الفصحاء ، وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته » . (٨٧)

وهذه المشاكلة النوعية بين اللفظ والفرض ، تفتن بمشاكلة كمية بين « اقدار » المعاني و « اقدار » الالفاظ . « وانما الالفاظ على اقدار المعاني ، فكثيرها لكثيرها ، وقليلها لقليلها ، وشريفها لشريفها وسخيفها لسخيفها . والمعاني المفردة ، البائنة بصورها وجهاتها تحتاج من الالفاظ الى اقل مما تحتاج اليه المعاني المشتركة والجهات المتبسة » (٨٨) .

ثالثا - الشكلية ، او الاسلوبية وهي براعة الشاعر الخاصة وفرادة الطريقة التي يعبر بها : « لكل قوم الفاظ حظيت عندهم . وكذلك كل بليغ في الارض وصاحب كلام منشور ، وكل شاعر في الارض وصاحب كلام موزون ، فلا بد من ان يكون قد لهج والفاظ بأعياها ، ليدبرها في كلامه وان كان واسع العلم غزير المعاني ، كثير اللفظ » . (٨٩) « لكل صناعة الفاظ قد حصلت لاهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم ، الا بعد ان كانت متاكلا بينها وبين تلك الصناعة » . (٩٠) ، والنتيجة التي يصل اليها الجاحظ ، هي : « لكل صناعة شكل » . (٩١)

ولعل خير ما يوضح هذه الشكلية التي يقول بها الجاحظ مثل يضربه ، فيشبهه المعنى بالجارية ، واللفظ بالثوب . فالجارية موجودة ، بقوة الحياة والواقع ، وانما الشأن والجهد في كيفية عرضها وإبرازها : « صارت الالفاظ في معنى المعارض (الملابس الجميلة) ، وصارت المعاني في معنى الجواني » . (٩٢) . فالشكلية لا تعني التكلف والمبالغة والتعقيد مما يطمس حسن المعنى ، تماما كما تطمس الثياب المفرطة في ثائنها وبهرجتها ، حسن الجارية . ان الشكلية ، كما يفهمها الجاحظ ، ترادف الطبع ، او هي الطبع بالذات . وان يكون الشعراء مطبوعين يعني ان المعاني « تأتيهم سهوا وهوا ، وتنشال عليهم الالفاظ انشالا » . (٩٣) ، أي تتدفق عفوا بلا تكلف .

هكذا يقتزن البيان لدى العربي بغيريته ذاتها ، فالبيان عنده او الشعر بديهة وارتجال لا تخير وتفكير ، كما هو الشأن عند الامم الاخرى ، او عند « المولدين البلديين المتكلمين » (٩٤) . ويوضح الجاحظ رايه في هذا الصدد حين يتكلم على « معارف الامم » ، فيقول ان « لليونانيين فلسفة ، وصناعة منطق » لكنهم لا يوصفون بالبيان ، كذلك لا يوصف اهل الهند بالبيان وان كانت لهم « معان مدونة وكتب مخلدة » . اما الفرس فخطباء ، لكن « كل كلام للفرس وكل معنى للعجم . . . انما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة وعن مشاورة ومعاونة وعن طول التفكير ودراسة الكتب ، وحكاية الثاني علم الاول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتى اجتمعت نمار تلك الفكر عند آخرهم » . (٩٥)

« . . . وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال ، وكأنه الهام . وليست هناك معاناة ولا مكادة ، ولا اجالة فكرة ، ولا استعانة . وانما هو ان يصرف

وهمه الى الكلام ، والى رجز يوم الخصام ، او حين يمتح على راس بر، او يحدو ببعر ، او عند المقارعة والمناقلة ، او عند صراع او في حرب . فما هو الا ان يصرف وهمه الى جملة المذهب ، والى العمود الذي اليه يقصد ، فتأنيه المعاني ارسالا ، وتثالث عليه الالفاظ انتيالا . ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه احدا من ولده . وكانوا اميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم اظهر واكثر ، وهم عليه اقدر واقهر . وكل واحد في نفسه انطق ، ومكانه من البيان ارفع . وخطباؤهم اوجز والكلام عليهم اسهل ، وهو عليهم ايسر من ان يفتقروا الى تحفظ ، او يحتاجوا الى تدارس . وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب » . (٩٦)

ومن هنا اخذ الجاحظ يعتبر اللجوء الى المكابدة واجالة الفكرة في كتابة الشعر ، خروجا على الاصل العربي في البداهة والارتجال ، بل اخذ ينظر اليه كأنه افساد للشعر العربي . وقاده هذا الى ان يشدد ، من جهة ، على البداهة والعفوية والارتجال كخصائص تميز الشعر الجيد ، المطبوع . وقاده ، من جهة ثانية ، الى القول بالنهج على منوال العرب في كتابة الشعر . ويتضمن هذا القول الثاني الاخذ بالماضي واتباعه ، اي التقليد ، ويتضمن ، بالتالي ، انكار الابداع او التجديد .

اما من الناحية الاولى فقد وضع مقياسا للشعر الجيد ، حيث قال : « واجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء ، سهل المخارج ، فيعلم لذلك انه افرغ افراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا . فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان . . . وكذلك حروف الكلام واجزاء الشعر من البيت تراها متفقة ملساء ، ولينة المعاطف سهلة . . . ورطبة مواتية ، سلسلة النظام ، خفيفة على اللسان ، حتى كأن البيت باسره كلمة واحدة ، وحتى كان الكلمة باسرها حرف واحد » . (٩٧) . وهذه الصفات كلها وليدة الطبع . وهي خصائص الارتجال والبداهة ، لا الروية واعمال الفكر . (٩٨)

اما من الناحية الثانية فقد دافع الجاحظ عن تمسك العرب بتقليدهم ومتابعة الماضي في اصوله ومناهجه . ويحلل ظاهرة التقليد فيقول انها « الف دين الآباء » و « الانس بما لا يعرفون غيره » . وهذا لا سبيل الى دفعه او التخلي عنه ، فهو كالداء الذي لا يفلح : « فداء المنشأ والتقليد داء لا يحسن

علاجه جالينوس » . (٩٩) وجالينوس هنا رمز لاسمى ما توصل اليه الانسان من قدرة على العلاج ، ويصفه الجاحظ بانه « امام الاطباء في عصره » . اصف الى ذلك ان في التقليد سهولة ويسرا ، مما ينسجم مع طبيعة البداة ، ويعبر الجاحظ عن ذلك بقوله : « المتح اهن من الاستنباط ، والحصد ايسر من الحرث » . (١٠٠)

وبلجأ الجاحظ في الدفاع عن رأيه الى تفسير الآية : « وعلم آدم الاسماء كلها » فيقول انها لا تعني ان الله علم الانسان كل شيء ، بل تعني انه علمه « علم مصلحته في دنياه وآخرته » . ويدعم تفسيره بالآيتين : « ويخلق ما لا تعلمون » (النحل : ٨) و « فوق كل ذي علم عليم » (يوسف : ٧٦) (١٠١) . ثم يختم قائلا : « باب كان قد يعلم بعضه ، وباب يكون لا سبيل الى معرفة شيء منه » (١٠٢) . كان الجاحظ يقول الابداع تجاوز للماضي والتقليد . فهو يتخطى معرفة ما كان الى معرفة ما يكون وفي هذا مجازاة لله غير جائز . فان دعوى الاحاطة بالعلم ، اي دعوى الابداع ، لا تجوز الا في حق الله .

ويتخذ الجاحظ ممن يسميهم بالنابذة او الطارئین مناسبة للكلام على قضايا تتصل بالصراع القومي والثقافي بين العرب وغيرهم من العناصر الاخرى ، وبهذا يتكامل موقفه الادبي فيما يمكن ان ندعوه موقفا حضاريا عاما .

يقصد الجاحظ بالنابذة (١٠٣) مختلف الطوائف المبتدعة التي نشأت بعد مقتل الخليفة عثمان . والنابذة لفة ، « هم الاغمار من الاحداث وقد سموا بهذا الاسم للإشارة الى ضعف آرائهم ووهن تفكيرهم ، والى انهم طارئون على الاصول الدينيّة المتعارفة ، لا يعتمدون في ذلك على اساس وثيق » . (١٠٤) وهذه التسمية قديمة وقد وردت في شعر الشميطي ، اذ قال :

لا حرورا ، ولا النوابت تنجو لا ولا صحب واصل الغزال (١٠٥)

يبدأ الجاحظ رسالته بان يرسم صورة لما يسميه « الطبقة الاولى » من الامة « بعد اسلامها والخروج من جاهليتها » . فيحددها ، اولا ، بانها « عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وابي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وست سنين من خلافة عثمان رضي الله عنه » . (١٠٦) ، ثم يصفها ، ثانيا ، فيقول ان رجالها « كانوا على التوحيد الصحيح ، والاخلاص المخلص ، مع اللفة ، واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ولا بدعة

فاحشة ، ولا نزع يد من طاعة ، ولا حسد ، ولا غل ، ولا تأول ، حتى كان الذي كان من قتل عثمان » . (١٠٧) ، فهؤلاء الذين قتلوا عثمان هم أوائل النابتة ، ويستغرب الجاحظ ان يكون قتله قد تم « بحضرة جلة المهاجرين والسلف المقدمين ، والانصار والتابعين » . (١٠٨) ، غير انه يستدرك فيقول ان الناس في قتله كانوا على طبقات متفاوتة : « من قاتل ، ومن شاد على عضده ، ومن خاذل عن نصرته » (١٠٩) وهكذا فان النابتة الذين يعينهم هنا هم « قاتله ، والمعين على دمه ، والمريد لذلك منه » ، وهؤلاء « ضلال لا شك فيهم ، ومراق لا امتراء في حكمهم . على ان هذا لم يعد منهم الفجور ، اما على سوء تأويل ، واما على تعمد للشقاء » . (١١٠)

واذا كان فعل النابتة من قتلة عثمان لم يعد الفجور ، فقد كان فعل معاوية ومن والاه بعدهم في مرحلة اولى ضلالا وفسقا ، ثم اصبح في مرحلة ثانية كفرا . فمعاوية « استبد على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الانصار والمهاجرين في العام الذي سمي به عام الجماعة ، وما كان عام جماعة ، بل كان عام قهر وجبرية وغلبة ، والعام الذي تحولت فيه الامامة ملكا كسرويا ، والخلافة غسبا قيصريا ، ولم يعد ذلك اجمع الضلال والفسق . ثم ما زالت معاصيه من جنس ما حكينا ، وعلى منازل ما رتبنا ، حتى رد قضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ردا مكشوبا ، وجحد حكمه جحدا ظاهرا في ولد الفراش وما يجب للعاهر (١) ، مع اجماع الامة ان سمية لم تكن لابي سفيان فراشا ، وانه انما كان بها عاهرا ، فخرج بذلك من حكم الفجار الى حكم الكفار .

« وليس قتل حجر بن عدي واطعام عمرو بن العاص خراج مصر ، وبيعته يزيد الخليع ، والاستئثار بالفيء ، واختيار الولاة على الهوى ، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقراية من جنس جحد الاحكام المنصوصة ، والشرائع المشهورة ، والسنن المنصوبة . وسواء في باب ما يستحق من الاكفار جحد الكتاب ورد السنة ، اذ كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره ، الا ان احدهما اعظم ، وعقاب الاخرة عليه اشد . فهذه اول كفره كانت في الامة » . (١٢)

ويرى الجاحظ ان كثيرا ممن عاشوا في عهد معاوية « قد كفروا بترك اكفاره » (١١٣) وان في عصر الجاحظ من النابتة المبتدعة ما يزيد كفرهم على كفر اولئك لانهم يقولون : « لا تسبوه ، فان له صحبة . وسب معاوية بدعة ، ومن يبغضه فقد خالف السنة » . وهكذا يزعمون « ان من السنة ترك البراءة ممن جحد السنة » (١١٤) .

ثم يذكر الجاحظ افعال يزيد وعماله واهل نصرته ... اغزو مكة ، ورمي الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين ... بعد الذي اعطى سن نفسه من تفريق اتباعه ، والرجوع الى داره وحرمة ، او الذهاب في الارض حتى لا يحس به ، او المقام حيث امر به فأبوا الا قتله . (١١٥) ، ويتساءل ان كان هذا لا « يعدو الفسق والضلال » وذلك ادنى منازله ، فالفاسق ملعون ومن نهى عن لعن الملعون فملعون » . (١١٦) والغريب في امر هؤلاء النابتة الذين يشير اليهم الجاحظ « انهم مجمعون على انه ملعون من قتل مؤمنا متعمدا او متأولا » ومع ذلك فان القاتل اذا كان « سلطانا جائرا او اميرا عاصيا ، لم يستحلوا سبه ولا خلعه ولا نفيه ولا عيبه ، وان اخاف الصلحاء وقتل الفقهاء واجاع الفقير ونال الضعيف » . (١١٧)

ويشير الجاحظ بعد ذلك الى ما قام به عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وعاملهما الحجاج بن يوسف ومولاه يزيد بن ابي مسلم ، حيث « اعادوا على البيت بالهدم ، وعلى حرم المدينة بالغزو ، فهدموا الكعبة واستباحوا الحرمه ، وحولوا قبله واسط ، واخروا صلاة الجمعة الى مغربان الشمس » (١١٨) . ويذكر كيف ان عبد الملك بن مروان والحجاج كانا يزجران من يحاول وعظهما من الصالحين ، ويعاقبانه ويقتلانه ، (١١٩) ، وكيف كان المسلم اذا ابدى رايًا معارضا « خبط بالسيف ، واخذته العمدة ، وشك بالرماح » او « نشر دماغه على صدره ، وصلب حيث تراه عياله » . (١٢٠)

الى هنا كان الجاحظ يتحدث عن تمكن تسميتهم بالنابتة السياسية . وقد انتقل بعد ذلك الى الكلام على طوائف من تمكن تسميتهم بالنابتة الفكرية . وكفر النابتة السياسية « لم يبلغ كفر » (١٢١) النابتة الفكرية . وهؤلاء هم الطوائف التي « ثبتت لله جسما ، وجعلت له صورة وحدا ، واكفرت من قال بالرؤية على غير الكيفية » . (١٢٢) ، او انكرت ان يكون القرآن مخلوقا ، (١٢٣) او قالت بالجبر . ويشير الجاحظ الى ان هؤلاء لم يكونوا افرادا يقولون بآراء ، في معزل عن الجمهور ، وانما تابعهم « العوام » ، كما يعبر ، بحيث صار الكفر ، في عصر الجاحظ ، هو الغالب (١٢٤) ، حتى انه ليسمي ذلك العصر « الدهر الصعب » و « الزمن الفاسد » (١٢٥) ، فالتناس فيه « انتظموا معاني الفساد اجمع ، وبلغوا غابات البدع ، ثم قرنوا بذلك العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم ، والحمية التي لا تبقي دينا الا افسدته ، ولا دنيا الا اهلكتها ، وهو ما صارت اليه العجم من مذهب الشعوبية ، وما قد صار اليه الموالي من الفخر على العجم والعرب » (١٢٦) وهنا يشير الجاحظ الى من يمكن ان نسميهم الزائفة الاحتمالية ، هؤلاء هم الموالي .

وئنهض دعوى الموالي (١٢٨) على انهم والعرب سواء . ويتطرف بعضهم ، كردة فعل على تطرف بعض العرب ، فيرى ان المولى افضل من العربي . واذا كان العرب يحتجون بالقديم ، فان الموالي يحتجون بالقديم والحديث معا . فحين كانت النبوة والملك في غير العرب ، اي في العجم ، كان الشرف لهؤلاء . ثم انتقل الى العرب بانتقال النبوة والملك اليهم .

ثم ان النبي قال : « مولى القوم منهم » (١٢٩) ، وقال : « الولاء لحمية . كلحمية النسب ، لا يباع ولا يوهب » . ولذلك فان المولى صار عربيا بالولاية . وقد جعل الله المولى عربيا بولائه ، « كما جعل حليف قريش من العرب قريشيا بحلفه ، وجعل اسماعيل بعد ان كان اعجميا عربيا . ولولا قول النبي صلى الله عليه وسلم ان اسماعيل كان عربيا ما كان عندنا الا اعجميا ، لان الاعجم لا يصير عربيا ، كما ان العربي لا يصير اعجميا » . (١٣٠)

ويضيف الموالي الى هذه الحجج قولهم : « وقد جعل الله ابراهيم عليه السلام اباً لمن لم يلد ، كما جعله اباً لمن ولد ، وجعل ازواج النبي امهات المؤمنين ولم يلدن منهم احدا ، وجعل الجار والد من لم يلد » . (١٣١)

وقد بنى المتطرفون من الموالي على هذه الحجج دعوى المفاخرة القائلة بانهم افضل من العرب والعجم معا . وخلاصتها ان الموالي بقديمهم في العجم اشرف من العرب ، وبالحديث الذي صار لهم في العرب اشرف من العجم . « فللموالي اذن القديم والحديث ، وليس للعرب غير القديم . وهكذا فان للموالي خصلتين » وصاحب الخصلتين افضل من صاحب الخصلة » . (١٣٢)

ويرد الجاحظ في نهاية رسالته على هذا القول بما كان قد انتقده ، اعني « الحمية » و « العصية » ، فيقول : « واي شيء اغيظ من ان يكون عبدك يزعم انه اشرف منك ، وهو مقر انه صار شريفا بعثتك اياه » . (١٣٣) ، ثم يختم رسالته مخاطبا ابن ابي دؤاد ، مؤكدا ما يذهب اليه ، فيقول له : « وقد كتبت كتباً في مفاخرة قحطان وفي تفضيل عدنان ، وفي رد الموالي الى مكانهم من الفضل والنقص ، والى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف » . (١٣٤)

القسم الثاني

تأصيل الابداع او التحول

الفصل الأول

الحركات النورية : ثورة الزنج والحركة القرمطية

I

مند خلافة عثمان بدأ التناقض بين قوى المجتمع العربي الانتاجية وعلاقات الانتاج الفائمة او علاقات الملكية ، يزداد ويتسع . وكان ذلك يعني ان هذه العلاقات تتحول من اشكال لنمو القوى الانتاجية ، الى عوائق في روجهها . ويعني تبعا لذلك نشوء الحركات الشورية لتغيير القاعدة الاقتصادية وبناءها الفوقية .

ويمكن القول ان التاريخ الحفيعي للمجتمع العربي ، وهذا ما ظهر واضحا جدا ، بدأ من خلافة عثمان على الاخص ، انما هو تاريخ انتاجه المادي ، وتاريخ التناقضات بين القوى المنتجة المادية وعلاقات الانتاج التي ولدها في مجرى تطوره . انه ، بتعبير آخر ، تاريخ الصراع بين الطبقات الحاكمة والطبقات المحكومة .

ولقد كان تأسيس الدولة العباسية ، في بعض وجوهه ، نتيجة من نتائج هذا الصراع وثمره من ثماره . فعلى الصعيد السياسي ، زالت العنصرية العربية وما يتبعها من اعراف وتقاليد . زالت ، بمعنى آخر ، العروبية وحلت محلها الاسلاموية . فلم تعد العصبية العربية اساسا للدولة ، وانما اصبح الدين الاسلامي هو الاساس . وفي هذا الاساس اتحدت مختلف العناصر وانصهرت في تركيب سياسي - اجتماعي جديد . وانبثق من هذا التركيب الجديد جيش موحد لحماية الدولة ، بعيدا عن العصبية القبلية ، او العنصرية العربية ، على الرغم من ان قيادة الجيش بقيت في ايدي العرب . غير ان هذا

التمييز لم يكن موجودا في الاداره او في الدواوين حيث استخدم العباسيون الموظفين الذين كانوا يسمونهم كتابا دون ان يفرقوا بين العربي وغير العربي . وهذه كانت سياسة الخلافة منذ بداية الفتوحات ، وبخاصة فيما يتصل باعمال الخراج وجباية الضرائب وبيت المال ، واعمال الغزو . (١)

اما على الصعيد الحضاري العام ، فقد اتخذت الحضارة العربية طابعا انسانيا شاملا ، وكانت بغداد بؤرة الاشعاع الحضاري ، والبوثة التي انصهرت فيها تجارب الشعوب ، الوطنية الاصلية كالبابلية والآرامية والسيروانية ، والاجنبية كالفارسية والبيزنطية واليونانية والهندية . ونشأت طبقات جديدة يمكن ان نسميها بالمصطلح الحديث بورجوازية كبيرة ، وبيروقراطية حلت محل الطبقة التي كانت تقوم ، في العهد الاموي ، اما على الامتياز القبلي واما على امتياز المحاربة والغزو . ونمت الثروة الاقتصادية والمعدنية ، وتقدمت الزراعة واساليب الفلاحة والري ، وازدهرت الصناعة ، وبين افضل انواعها ، صناعة النسيج والسجاد والورق ، والزجاج والخزف . (٢)

غير ان هذا كله تم بمقتضى التطور التاريخي ، وصراع الطبقات الاجتماعية والاضلاع والظروف الحياتية في مختلف اشكالها ، اكثر مما تم بمقتضى سياسة الخلافة . لذلك لم يحل دون قيام الثورات على الخلافة ، بل ، على العكس ، كان مما عمق الحركة الثورية ، واعطاها ابعادا اكثر جذرية . وهكذا واكب نشوء الخلافة العباسية ، نشوء الثورة عليها ، تماما كما كانت الحال في العهد الاموي .

اما فيما يتعلق بثورات الخوارج وتورات العلويين ، فقد كانت استمرارا لحركتهم الثورية السابقة (٣) ، لذلك آثرت ان اتجاوزها ، لانها متتابعة لما كانت قد اعلنته ، نظرا وممارسة ، وان اكتفي بالوقوف عند الحركات الثورية الناشئة التي اضافت بعدا جديدا الى الحركة الثورية ، سواء على صعيد النظر او على صعيد الممارسة . لذلك اقف عند حركتين : الاولى تكشف عن نوع من البعد الطبقي هي ثورة الزنج ، والثانية تكشف عن بعد كلي : غيبي وارضى ، وهي الحركة القرمطية .

II

بدأت ثورة الزنج سنة ٢٥٥ هـ . بدأها في البصرة « رجل زعم انه علي

بن محمد بن احمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وجمع اليه الزنج الدين كانوا يكسحون السباح » (٤) .

ويقول الطبري ان اهل البحرين كانوا قد « احلوه من انفسهم محل النبي ، حتى جبي له الخراج هنالك ونفذ حكمه بينهم ، وقاتلوا اسباب السلطان بسببه » . ، ولكنهم تنكروا له كما يذكر الطبري ، لان السلطان « وتر منهم جماعة كثيرة » ، فتحول عنهم علي بن محمد الى البادية . (٥) غير ان البادية « نبت به » ، ايضا ، « فشخص عنها الى البصرة » . (٦) ثم رحل عنها الى بغداد ، لكنه لم يلبث ان عاد اليها . واخذ « يجتمع اليه السودان » ، وفي يوم الفطر جمعهم ورفع لواءه الذي كتب عليه : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله » . (٧) ، « وولى بهم وخطب خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال ، وان الله قد استنقذهم به من ذلك ، وانه يريد ان يرفع اقدارهم ، ويملكهم العبيد والاموال والمنازل ، ويبلغ بهم اعلى الامور » ، ثم حلف لهم على ذلك » . (٨) وكان قبل ذلك قد استدعى بعض اسياء هؤلاء السودان وقال لهم : « قد اردت ضرب اعناقكم لما كنتم تاتون الى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم ، وفعلتم بهم ما حرم الله عليكم ان تفعلوه بهم ، وجعلتم عليهم ما لا يطيقون » ، لكنه لم يضرب اعناقهم ، واكتفى بضرب كل منهم خمسمئة عصا ، ثم اطلقهم . وقد حاول هؤلاء ان يغروه بالمال لكي يترك لهم غلمانهم الذين التفوا حوله : « خذ منا مالا واطلقهم لنا . . . ان هؤلاء الغلمان اباق ، وهم يهربون منك ، فلا يبقون عليك ولا علينا » ، وكان رده على هذا الاغراء ان امر كل غلام بان يضرب سيده الحد الذي فرضه . (٩)

ويذكر الطبري ان علي بن محمد كان يقول قبل مجيئه الى البصرة : « اوتيت في تلك الايام آيات من آيات امامتي ظاهرة للناس . منها - فيما ذكر عنه - انه قال : اني لقيت سورا من القرآن لا احفظها ، فجرى بها لساني في ساعة واحدة ، منها سبحان والكهف وص . قال : ومن ذلك اني لقيت نفسي على فراشي ، فجعلت افكر في الموضع الذي اقصد له ، واجعل مقامي به ، اذ نبت بي البادية ، وضقت بسوء طاعة اهلها ، فاظلمتني سحابة ، فبرقت ورعدت ، واتصل صوت الرعد منها بسمعي ، فخطبت فيه ، فقيل : اقصد البصرة ، فقلت لاصحابي وهم بكنفونني : اني امرت بصوت هذا الرعد بالمصير الى البصرة » . (١٠)

ويذكر الطبري كذلك ان علي بن محمد كان يزعم انه يعرف « ما في ضمائر اصحابه ، وما يفعله كل واحد منهم ، وانه سأل ربه آية ان يعلم حقيقة امره ، فرأى كتابا يكتب له ، وهو ينظر اليه على حائط ، ولا يرى شخص كاتبه » (١١) .

يتضح مما تقدم ان ثورة الزنج هي ، من جهة ، ثورة عبيد على اسياذ ، وانها ، من جهة ثانية ، وعد بحياة كريمة يملكون فيها ملك اسياذهم ، وانها من جهة ثالثة ، ذات قيادة من طبيعة نبوية . فهو « لم يخرج لعرض من أعراض الدنيا » ، كما اعلن ، وانما خرج « غضبا لله ، ولما رأى ما عليه الناس من الفساد في الدين » (١٢) ، ثم انه يشارك الخارجين معه في كل شيء كأنه واحد منهم : « ها انذا معكم في كل حرب ، اشركم فيها بيدي ، واخطر معكم فيها بنفسي » . (١٣) ويروي الطبري ان علي بن محمد لم يكن يؤذي الا « اصحاب السلطان » او من يحاربونه ، وان كثيرا من القرى التي كان يمر بها تستقبله وتعرض عليه مساعدتها (١٤) .

وقد استمرت حركة الزنج اربع عشرة سنة ، بين سنة ٢٥٥ هـ وسنة ٢٧٠ هـ ، السنة التي قتل فيها قائدها علي بن محمد . (١٥) وكانت ، في اساسها ثورة فقراء مسحوقين على اسياذ طغاة ظالمين .

III

اما الحركة القرمطية فقد بدأت ، على الأرجح ، سنة ٢٦٤ هـ (١٦) ، في قرى الكوفة ، وتنسب الى حمدان قرمط (١٧) ، وكان افراد الحركة يسمون انفسهم « المؤمنين بالله ، الناصرين لدينه ، المصلحين في الارض » (١٨)

اما « القرمطية » فنعت اطلقه عليهم اعداؤهم تحقيرا ، وتعبيرا عن كراهيتهم لهم وسخطهم عليهم ، وهو مأخوذ من كلمة « قرمطونا » النبطية ، وتعني الخبيث او المحتال ، او « كرامته » وتعني الفلاح او القروي (١٩) .

وهكذا كان النبط (٢٠) ، قاعدة الحركة القرمطية ، وكانوا يعيشون في بؤس وفاقة شديدين (٢١) ، ودخلت في هذه الحركة قبائل بادية الشام وجنوبي العراق ، وهي قبائل كانت مضرب المثل في الفقر ، كما يقول البغدادي (٢٢)

وانضم اليها عامة الشعب في المدن ، واهل الحرف ، وكانوا ايضا فقراء ، بل كانوا كما يصفهم ابو الفضل الدمشقي اكثر الاحرار فقرا (٢٣) .

وقد افادت الحركة القرمطية من الاخطاء التي وقعت فيها الحركة الثورية السابقة ، فحرصت من الناحية التنظيمية على سرية القيادة مما جعل زعماءها ينشطون في مأمن من طغيان السلطة ، واقامت العلاقة بين الدعوة ومن يستجيب لها على اساس من الولاء المطلق ، وفقا لتدرج متصاعد يرتقي فيه مركز المستجيب تبعا لدرجة ولائه ، وجمعت المال الكثير من اجل دعم تنظيمها ، ونشر دعوتها ، وكانت الى ذلك تصدر في تخطيطها وسلوكها ، عن نظرة دينية - فلسفية واضحة (٢٤) .

وكان المناخ الاجتماعي الاقتصادي السياسي ملائما لانتشار اية دعوة ذات طابع جذري وعنفي . فقد انضاف الى الطغيان السياسي بدءا من اواخر القرن الثاني الهجري ، طغيان اقتصادي - اجتماعي تجلى في ظهور طبقة اقطاعية سيطرت على املاك الفلاحين الصغار ، فكانت هناك طبقتان : غنية تملك كل شيء ، وفقيرة معدمة .

فمنذ قيام الخلافة العباسية نمت التجارة ، وكثرت ارباح التجار ، وهكذا تكونت طبقة تجارية اخذت تملك الاراضي الواسعة وتستثمرها مما ادى الى نشو ملكيات زراعية كبيرة .

وكان صغار الفلاحين ، مقابل ذلك ، يرزحون تحت اعباء الضرائب مما دفعهم الى وسيلة للتخلص منها هي ما سمي بالالغاء ، فكان الفلاح يسجل ارضه في ديوان الخراج باسم شخصية نافذة ويقدم له جزءا من محصوله ، مقابل حمايته . وكانت هذه الوسيلة شائعة منذ العصر الاموي ، لكنها ازدادت في العصر العباسي ، وخسر الفلاحون اخيرا ارضهم ، فقد اغتصبها منهم الذين لجأوا اليهم طلبا لحمايتهم ، وتحولوا الى مزارعين .

وهكذا انتشرت الملكيات الواسعة ، وتقلصت الملكيات الصغيرة ، مما دفع الفلاحين الى التدمير ، فالتعاون ، فالتهيؤ لقبول اية دعوة يرون فيها طريقا لتحررهم . وكان هذا التفاوت الطبقي في اساس الحركات النورية التي نشأت بدءا من منتصف القرن الثالث الهجري . وهي حركات كانت تطمح الى تغيير اوضاع الطبقات المسحوقة من مزارعين وفلاحين وعمال واصحاب

حرف ، وتمليكها الانتاج ووسائله ، كما راينا في ثورة الزنج ، وكما تابعتها في ذلك ، على نحو اكمل ، الحركة القرمطية .

وقد عمل حمدان قرمط على تحقيق ما يدعو اليه ، بعد انتصار حركته ، ضمن الحركة ذاتها ، فمارس شكلا نموذجيا من المساواة بين افرادها . فقد اقمهم بأنه « لا حاجة بهم الى اموال تكون معهم لان الارض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم » وهكذا وضعوا بين يديه جميع ما يملكونه ، فوزعه بينهم بحيث لم يبق بين انصاره فقير او محتاج (٢٥) . وقد اتخذوا من الآية : « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين » (٢٦) ، شعارا يرمزون به الى أنهم يملكون بالسيطرة على املاك الاغنياء ، ويعملون لتحقيق هذا الامل . ورفعوا هذا الشعار بين راياتهم في ثورتهم الاخيرة سنة ٣١٦ هـ (٢٧) .

ويحدث محمد عبد الفتاح عليان عن النظام الاجتماعي الذي انشاه القرامطة ، فيصفه بأنه « فريد ... عاشوا في ظله متعاونين متآلفين ، ونزل كل منهم عما يملك للجماعة ، فجمعت الاموال في موضع واحد ، الكل شركاء فيها ، واصبح اخلاص الفرد في العمل ، وما يقدمه من خدمات للجماعة هو الذي يحدد مركزه بين افرادها ، واختفت الفوارق داخل هذا المجتمع ، خاصة ، وان القرامطة كانوا يقومون بالانفاق على جميع الافراد بلا تفرقة او تمييز » (٢٨) .

ويقول عبد العزيز الدوري ان القرامطة « بدأوا بفرض ضرائب متصاعدة ، وانتهوا بالغاء الملكية الفردية ، وباقامة اشتراكية مطلقة للاموال ، اذ ينتظر من كل فرد ، حتى النساء والاولاد ، العمل ويؤخذ من كل انتاجه ، ويعطى لكل حسب حاجته » . وفي البحرين حيث اقاموا دولة « الغوا الاقطاع واعادوا النظر في توزيع الاراضي كما يظهر ، والغوا رق الارض ، وقدموا السلف للفلاحين لتشجيعهم على استغلال الارض ، كما أنهم شجعوا الصناع وقدموا لهم المساعدات المالية ، وسيطروا على التجارة الخارجية وساروا على خطة الاكتفاء الذاتي ، وعززوا ذلك بضرب نقودهم من الرصاص ليمنعوا انتقال الثروة للخارج . اما السلطة فكانت بيد مجلس من الرؤساء ، له طابع شورى في الحكم » (٢٩) .

ان اهمية الحركة القرمطية تتجلى في اعطاء الدين بعدا ماديا اقتصاديا ،

وفي التوحيد بين النظر والممارسة ، وفي اعتبار الطبقات المسحوقة قاعدة المجتمع ، ومادة أولى للعمل السياسي - الديني ، وفي الطابع الاممي لنظرتها . وهكذا خلقت انموذجا لمجتمع يقوم على العدالة والمساواة في نظام اشتراكي سمي بنظام الالفه ، او نظام الملكية الجماعية (٣٠) . ويرى ماسينيون ويتابعه في ذلك برنارد لويس ان نشأة التنظيم النقابي العمالي في المجتمع الاسلامي ، يعود الى الحركة القرمطية (٣١) . واذا عرفنا ان الدعوة القرمطية انتشرت في العالم الاسلامي ، من فارس الى المغرب ، وانها اقامت كيانات سياسية في البحرين واليمن ومصر والمغرب ، ادر كنا مدى اهميتها وتغلغلها في الحياة والفكر ، ومدى التحول الذي احدثته في تكوين المجتمع وبخاصة من الناحيتين الثقافية والاقتصادية .

IV

ان ارتباط النظرية، في الحركة الثورية الزنجية - القرمطية، بالممارسة ليس هو سميتها التي تميزها وتمنحها خصوصيتها . فمثل هذا الارتباط نجده في حركات كثيرة ، بل اننا نجده في حركة الطبقات الحاكمة . ان سميتها المميزة هي انها حركة تمثل طبقة محددة وتدافع عن مصالحها ، وتضع من اجل ذلك برنامجا اقتصاديا - سياسيا . لقد اصبح الدين نفسه ، وبخاصة في الحركة القرمطية ، شكلا من اشكال الوعي الاجتماعي، مرتبطا بتاريخ نشأتها ، وظروف هذه النشأة ، والشروط الحياتية للبشر الذين انتموا اليها . لقد اعطت للدين وتعاليمه مفهوما ماديا . وفي حين كانت الدولة تقول عن الحقيقة انها بنت المطلق الثابت ، كانت الحركة القرمطية تقول ، بسلوكها وممارستها ، ان الحقيقة هي بنت المتغير النسبي . فافكار هذه الحركة نتاج تاريخي في مرحلة محددة ، ضمن انتماء طبقي محدد ، وهي تمثل تطلعات الطبقة المسحوقة واهدافها . وهي لذلك حركة نقدية ثورية تهدف الى تحويل المجتمع . وليست نظرية اجتماعية وحسب ، وانما هي كذلك نظرية ثورية .

ومن هنا نقلت الحركة القرمطية ، والحركة الثورية بعامة ، الصراع بين الثابت والمتحول ، القديم والجديد ، الى مستوى آخر . كان منظرو القديم يصعدون عن القول بأن الوعي (الدين) هو الذي يحدد الحياة ، اما منظرو الجديد فكانوا يصعدون عن القول بأن الحياة ، على العكس ،

هي التي تحدد الوعي . كان الاول يرون ان التاريخ هو تاريخ الوعي ، أي تاريخ الدين واللغة ، بينما كان الآخرون يرون انه تاريخ الحياة الواقعية ، وتاريخ الصراع الحي بين طبقات المجتمع ، وانه بدءا من هذه الحياة الواقعية يتحدد الوعي : وفي الماضي كله ، كموروث ، وفي الحاضر . وبفضل الحركة الثورية يمكن القول ان وفي التاريخ العربي أصبح يقوم على اعتباره نموا متدرجا من وضع ادنى الى وضع اعلى ، وليس العكس ، كما كان يتصور منظرو القديم . وعلى هذا فان الحاضر متقدم على الماضي ، ولا شك ان المستقبل سيكون اكثر تقدما .

وقد نشأت في الحركة القرمطية مفهومات جديدة . فقد كانت الدولة سلطوية مطلقة ، ولم تكن تنظر الى الفرد من حيث هو انسان بالمعنى العميق للكلمة ، بل كانت تعتبره مكلفا او عبدا ، أي موجودا كشيء يعاقب او يكافأ بحسب سلوكه ازاها ، لذلك لم يكن يشعر انه عضو في دولة او انه مواطن . كان ثمة انفصال تام بين الخاص والعام ، بين الفرد والدولة . اما القرمطية فكانت نواة لمجتمع مغاير ، ومفاهيم مغايرة . فالفرد في الحركة القرمطية يشارك في جماعية مادية مظهرها الدولة . وهكذا كانت الدولة شيئا من أسيائه العامة . وفي هذا ، كانت القرمطية محاولة أولى ، في المجتمع العربي للوحدة بين العقل والوجود ، تبعا للوحدة بين النظرية والممارسة ، او محاولة أولى لاقامة الاشتراكية بدلا عن التيقراطية .

وفي النزعة الانشراكية التي ارستها الحركة القرمطية ، نشأ مفهوم الغاء الراسمال ، بوصفه رأسمالا فرديا ، وتحويله الى راسمال جماعي .

والقرمطية ، على الصعيد الانساني ، شكل من عودة الانسان الى ذاته كإنسان اجتماعي ، مقابل الانسان القبلي او العنصري . وهي ، اذن ، محاولة أولى في التاريخ العربي ، على مستوى التنظيم السياسي ، لحل التناحر بين العربي والطبيعة من جهة ، وبين الانسان والانسان ، داخل العالم الاسلامي ، من جهة ثانية . وهي ، الى ذلك ، تجاوز للتجريد الديني الفكري ، فيما يتصل بالعدالة والمساواة ، نحو الممارسة الفعلية .

والخلاصة أن الحركة الثورية ، ممثلة على الاخص بشورة الزنج والثورة القرمطية ، كانت محاولة لالغاء الضياع ، من حيث انها الفت الملكية الخاصة ، وتجاوز القبيلة والعنصرية الى الانسان كإنسان ، كوجود اجتماعي . انها ليست محاولة لتجاوز الضياع على مستوى الوعي وحسب ، وانما هي أيضا محاولة لتجاوز الضياع على مستوى الواقع .

الفصل الثاني

المنهج التجريبي وإبطال النبوة

I

كان ابن المقفع (١) من أوائل الذين وقفوا من الدين موقفا عقليا ، فانتقد الدين ، بعامة ، وخص الاسلام ، فانتقد القرآن ، وما فيه من عقائد ، وتصوره لله ، والرسول . ويوضح باب مرزويه في « كليلة ودمنة » (٢) ان الاديان كثيرة ، وان اصحاب كل دين يزعمون انهم على الحق ، وان كل من يخالفهم على خطأ وضلال . وان الدين ينتشر ، اما بالوراثة ، او الاكراه ، او باتخاذ وسيلة للعيش وتحصيل المنزلة في الدنيا . وقد تحقق من هذا كله بالتجربة ، ليكون على بينة وثقة فلا يصدق ما لا يعرف ، ولا يتبع ما لا يعقل . فأكدت له التجربة ان اصحاب الاديان جميعا يتكلمون بالهوى لا بالعدل . وهذا ما ياباه العقل .

فابن المقفع يرفض الدين انطلاقا من مقياس عقلي ، وبما انه يؤثر الصدق والعدل والحق ، مما لم يجده في الدين ، فانه يرفضه .

وقد لا يكون باب مرزويه ، يعبر عن رأي ابن المقفع ، فهو ناقل له ، وليس على من ينقل الكفر مسؤولية من يقول به . الا ان موقفه النقدي من الدين بعامة ، ومن الاسلام ، بخاصة ، واضح ، جلي في الشذرات التي أوردها الامام الزيدي القاسم بن ابراهيم في رده عليه (٣) .

ثم ان كتب ابن المقفع تخلو من « كل عنصر للتدين الاسلامي والتقوى » ، فهو لا يؤكد فيها الا « مطالب الاخلاق والجماعة الانسانية » (٤) . فنتاجه الادبي « ذو نزعة انسانية عامة » ، وهو في هذا يختلف « كل الاختلاف عن أشكال الادب الاسلامي ، المتقدمة » (٥) .

II

وصل هذا الموقف العقلي الى اوجه عند ابن الراوندي (٦) ، وجابر ابن حيان ، ومحمد بن زكريا الرازي .

اما ابن الراوندي فقد حفظت لنا بعض آرائه في الكتب التي ردت عليه، ككتاب « الانتصار » للخياط المعتزلي ، وكتاب « المجالس المؤيدية » ، للمؤيد في الدين هبة الله بن ابي عمران الشيرازي الاسماعيلي (توفي سنة ٤٧٠هـ) (٧) .

يبدأ ابن الراوندي بالقول : « ان العقل اعظم نعم الله . . . وانه هو الذي يعرف به الرب ونعمه ، ومن اجله صح الامر والنهي والترغيب والترهيب . فان كان الرسول يأتي مؤكدا لما فيه من التحسين والتقبيح والايجاب والحظر فساقط عنا النظر في حجته واجابة دعوته ، اذ قد غنينا بما في العقل عنه . والارسال على هذا الوجه خطأ ، وان كان بخلاف ما في العقل من التحسين والتقبيح والاطلاق والحظر ، فحينئذ يسقط هنا الاقرار بنبوته » (٨) .

يتضح من هذا النص ان العقل في نظر ابن الراوندي، هو اصل العلم واصل العمل . والنبوة اما ان تقر ما يقره وحينئذ تكون تابعة له ، ولا حجة فيها، واما ان تخالف ما يقره ، وحينئذ يجب رفضها . فالنبوة في الحالتين لا معنى لها . والعقل اصل والنقل تابع له .

واستنادا الى ما يقرره من اولية العقل ، ينتقد الاسلام ، ويرى ان الشريعة الاسلامية تتناقض مع العقل . يقول ، مثلا : « ان الرسول اتى بما كان منافرا للعقول مثل الصلاة وغسل الجنابة ، ورمي الحجارة (٩) ، والطواف حول بيت لا يسمع ولا يبصر ، والعدو بين حجرين (١٠) لا ينفعان ولا يضران : وهذا كله مما لا يقتضيه عقل . فما الفرق بين الصفا والمروة (١١) ، الا كالفرق بين ابي قبيس وحرى (١٢) ، وما الطواف على البيت الا كالطواف على غيره من البيوت » (١٣) .

واذا صح ان « الرسول شهد للعقل برفعته وجلالته ، فلم ائى بما ينافره ، ان كان صادقا ؟ » (١٤) .

وينتقل الراوندي من ثم الى نقد المعجزات ، فيرى ان « المخاريق

شتى وان فيها ما يبعد الوصول الى معرفته ، ويدق عن المعارف لدقته » ،
وان اخبارها الواردة عن « شذمة قليلة يجوز عليها المواطة في الكذب » (١٥)،
ثم يرد المعجزات المنسوبة الى النبي كحديث الميضة ، وشاة ام معبد ،
وحديث سراق ، وكلام الدب ، وكلام الشاة المسمومة (١٦) . ويسخر من
معجزة الملائكة الذين انزلهم الله يوم وقعة بدر لنصرة النبي ، قائلا انهم
« كانوا مغلولي الشوكة ، قليلي البطشة ، على كثرة عددهم ، واجتماع
ايديهم وايدي المسلمين ، فلم يقدرُوا على ان يقتلوا زيادة على سبعين
رجلا » . ثم يتساءل : « اين كانت الملائكة في يوم احد لما توارى النبي ما بين
القتلى فزعا ، وما باله لم ينصروه في ذلك المقام ؟ » (١٧) .

وابن الراوندي هنا لا ينتقد المعجزة بذاتها ، وحسب ، وانما ينتقد
كذلك المنطق الداخلي المتهاافت ، الكيفي ، لدى القائلين بها . فاذا كانت
المعجزة هنا نصرا من الله يجيء في وقت الحاجة اليه ، **هنا** حدوثها في
الحالات الاكثر حرجا وضيقا اولى من حدوثها في الحالات الاقل حرجا
وضيقا .

ثم يحاول ابن الراوندي ان ينتقد منهج النبي في الفكر والعمل ، قاصدا
من وراء ذلك الى ابطال دعواه النبوة . فهو يستغرب كيف ان النبي « دفع
في وجه ملتين عظيمتين (١٨) متساويتين اتفاقا على صحة قتل المسيح وصلبه ،
فكذبهما » ، وبذلك نسب جمهورا عظيما الى « الافك والزور » ، فكيف
يمكن رد هذا الخبر وتجويز ما ترويه عنه « الشذمة القليلة ... بحجة
الوضع الذي وضعه ، والقانون الذي قننه في المباهة والمكابرة ؟ » (١٩) .

وينتهي ابن الراوندي الى القول بأن العقل يناقض النبوة . فمن جهة
اولى ليس « للخلق اول » ، والكلام الانساني حادث ، ولا يرجع في أصله
الى الانبياء ، والانسان هو الذي ابتكر ، بعقله ، كل شيء ، دون حاجة الى
الانبياء . يقول مثلا : « ان الكلام مستملي عن الوالدين ، صاعدا قرنا فقرنا
الى ما لا نهاية له ، فليس للخلق اول » (٢٠) ، ويقول : « خبرونا عن الرسول
كيف يفهم ما لا تفهمه الامة : فان قلتم انه بالهام ، ففهم الامة ايضا بالهام ،
وان قلتم بتوقيف ، فليس في العقل توقيف » (٢١) ، ويقول عن النجوم
« ان الناس هم الذين وضعوا الارصاد عليها حتى عرفوا مطالعها ومغاربها ،
ولا حاجة بهم الى الانبياء في ذلك » (٢٢) .

اما من جهة ثانية ، فان من يسلم بالنبوة لا بد له من ان يسلم بان

النبي يعلمه كل شيء حتى « صوت العيدان » . يقول ساخرا : « انه يلزم من يقول بالنبوة ان ربهم امر الرسول ان يعلمهم صوت العيدان . والا فمن أين يعرف ان امعاء الشاة اذا جفت وعلقت على خشبة ، جاء منها صوت طيب ؟ » (٢٣) .

وتكملة لهذا الموقف من النبوه ينقد ابن الراوندي اعجاز القرآن ، فيقول : « انه لا يمتنع ان تكون قبيلة من العرب افصح من القبائل كلها ، وتكون عدة من تلك القبيلة ، افصح من تلك القبيلة ، ويكون واحد من تلك العدة افصح من تلك العدة . . . وهب ان باع فصاحته طالت على العرب ، فما حكمه على العجم الذين لا يعرفون اللسان ، وما حجته عليهم ؟ » (٢٤) .

وهناك اخبار أخرى تشير الى ان ابن الراوندي لم يكن يرى ان القرآن هو الاكثر فصاحة ، والى انه يرى على العكس ان في كلام اكثم بن صيفي ، مثلا ، احسن من « انا اعطيناك الكوثر » (٢٥) . (سورة ١٠٨ : ١) .

ولا يرفض ابن الراوندي اعجاز القرآن من ناحية اللغة والفصاحة وحدهما ، وانما يرفضه كذلك من ناحية المعنى . فهو يرى ان اصل اللغة ليس نبويا ، وان الانبياء لم يتلقوها بالوحي الالهي ، فاللغة نتاج انساني قديم « لا اول له » . وهذا يعني انها اصطلاح وتواطؤ ، وليست توقيفا ووحيا ، اي انها ليست تعليما من الله . وفي هذا ما يناقض تفسير الآتية : « وعلم آدم الاسماء كلها » (سورة ٢ : ٢٩) ، اي ان الله هو الذي أعطى اللغة لآدم (٢٦) .

اما من ناحية المعنى فيرى ان القرآن يناقض العقل ، ولهذا فان معانيه باطلة ، ويمثل على ذلك بقوله : « ولما وصف (اي النبي) الجنة ، قال : فيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه ، (سورة ٤٧ : ١٥) وهو الحليب ، ولا يكاد يشتهي الا الجائع ، وذكر العسل ، ولا يطلب صرفا ، والزنجبيل ، وليس من لذيذ الاشربة ، والسندس ، يفرش ولا يلبس ، وكذلك الاستبرق الفليظ ، (سورة ٤٤ : ٥٣) من الديباج . . . ومن تخايل انه في الجنة يلبس هذا اللفظ ويشرب الحليب والزنجبيل ، صار كمروس الاكراد والنبط » (٢٧) .

وليست آراء ابن الراوندي الا امتدادا للموقف البرهمي من النبوة . وكان يطلق على البراهمة اسم « من ينكرون النبوة » ، ويلخص الشهرستاني آراءهم بقوله :

« ١ - ان الذي يأتي به الرسول ، لم يخل من احد امرين : اما ان يكون معقولا ، واما ان لا يكون معقولا . فان كان معقولا فقد كفانا العقل التام بادراكه والوصول اليه ، فاي حاجة لنا الى الرسول ؟ وان لم يكن معقولا ، فلا يكون مقبولا : اذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الانسانية ودخول في حد البهيمية .

« ٢ - قد دل العقل على ان الله تعالى حكيم ، والحكيم لا يتعبد الخلق الا بما تدل عليه عقولهم . وقد دلت الدلائل العقلية على ان للعالم صانعا قادرا حكيما وانه انعم على عباده تعما توجب الشكر ، فننظر في آيات خلقه بمقولنا ونشكره بالائه علينا . واذا عرفناه وشكرنا له ، استوجبنا ثوابه . واذا انكرناه وكفرنا به استوجبنا عقابه . فما بالناس يتبع بشرا مثلنا ؟ فانه ان كان يامرنا بما ذكرناه من المعرفة والشكر فقد استغنيا عنه بمقولنا ، وان كان يامرنا بما يخالف ذلك ، كان قوله دليلا ظاهرا على كذبه .

« ٣ - قد دل العقل على ان للعالم صانعا حكيما ، والحكيم لا يتعبد الخلق بما يقبح في عقولهم . وقد وردت اصحاب الشرائع بمستقبحات من حيث العقل : من التوجه الى بيت مخصوص في العبادة ، والطواف حوله ، والسعي ورمي الحجار ، والاحرام والتلبية وتقبييل الحجر الاصم ، وكذلك ذبح الحيوان وتحريم ما يمكن ان يكون غذاء للانسان وتحليل ما ينقص من بنيته وغير ذلك . كل هذه الامور مخالفة لقضايا العقول .

« ٤ - ان اكبر الكبائر في الرسالة اتباع رجل هو مثلك في الصورة والنفس والعقل يأكل مما تأكل ويشرب مما تشرب ، حتى تكون بالنسبة اليه كجماد يتصرف فيك رفعا ووضعا او كحيوان يصرفك اماما وخلفا ، او كعبد يتقدم اليك امرا ونهيا ، فبأي تمييز له عليك ، واية فضيلة اوجبت استخدامك ؟ وما دليله على صدق دعواه ؟ فان اغتررت بمجرد قوله فلا تميز لقول على قول ، وان انحسرت بحجته ومعجزته فعندنا من خصائص الجواهر والاجسام ما لا يحصى كثرة ، ومن المخبرين عن مفيات الامور من لا يساوي خبره . قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » (٢٨) .

III

ان لشخصية جابر بن حيان (٢٩) وجهين ، قد يبدوان للوهلة الاولى

متناقضين : الاول باطني - الهامي ، والثاني علمي - تجريبي . فهو ، من الناحية الاولى ، يتصل بالمنحى الامامي في الثقافة العربية ، وهو من الناحية الثانية مؤسس النزعة التجريبية العلمية في هذه الثقافة . وهناك شك في وجوده ، وشك ، بالتالي ، في كون الكتب المنسوبة اليه ، هو الذي كتبها . فان ناشرها ، المستشرق بول كراوس ، يرجع انها منحولة ، وضعها علماء شيعة حول سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م (٣٠) . لكن هذا ، لو صح ، لا يغير من جوهر الامر شيئا ، وهو الكتب المنسوبة اليه ذاتها . فهي بين ايدينا وهي تؤكد على نشوء علم كيميائي عربي في اواخر القرن الهجري الثالث (٣١) .

ومن المسائل التي تبحثها هذه الكتب ، كما عرضها للمرة الاولى بول كراوس ، مسالتان اساسيتان : الاولى ، استحالة المعادن ، اي تحول ماهية معدن الى ماهية معدن آخر ، او تحول طبيعة الى غيرها . فالطبائع « تتغير ، ولكي تتغير لا بد ان تفقد ماهيتها » (٣٢) .

اما المسألة الثانية فهي « التكوين الصناعي » ، ويقصد جابر بن حيان هنا ان يكون او « يخلق بالصناعة انواعا من الكائنات تنسب الى الممالك الطبيعية الثلاث ، وخصوصا المملكة الحيوانية . فاذا كان في وسع الكيمياء ان تستنبط مواد جديدة بتركيب الاجسام بعضها مع بعض ، فلم لا تقوم ايضا بانتاج النبات والحيوان ، بل وبخلق الانسان الصناعي ؟ ان هذا العلم ممكن ، لان الكائن الحي - والانسان كائن حي - هو نتيجة لتضافر القوى الطبيعية . والطبيعة في انتاجها للكائنات انما تخضع لقوانين كمية عديدة يكشف عن سرها علم « الميزان » ، اي علم القوانين الطبيعية الكمية التي يجري عليها الكون والفساد في الطبيعة . فما على الانسان وقد عرف هذا السر الا ان يقلد ما تبرزه الطبيعة ، وليس في هذا خروج على الطبيعة ، بل هي تساعد على ذلك ، لانها « اذا وجدت للتكوين طريقا (غير طريقها هي) استغنت به عن طريق ثان » ، على حد تعبير جابر (٣٣) .

وقد نحا جابر بن حيان في دراسة هاتين المسألتين منحى عقليا اختباريا ، وهذا مما ميز علم الكيمياء عند جابر عنه عند اليونان ، « فكيمياء جابر تمتاز بالميل الى الناحية التجريبية واستبعاد الخوارق ، والاتجاه العلمي العقلي ، بينما الكيمياء القديمة كثيرا ما تلجأ الى الرؤيا الوجدانية واستخدام فكرة الخوارق في التفسير » (٣٤) . وهكذا انشأ جابر نظرية « الميزان » ، اي نظرية « القوانين الكمية العددية التي تحكم كل شيء في الوجود ، وبالتالي

ارجاع كل الظواهر الطبيعية وكل ما في الوجود الى قوانين الكم والعدد» (٣٥) . وهذا يعني ان جابر تنبه الى احلال النسب الكمية محل الخواص الكيفية في كل تفسير لاي مظهر من مظاهر الوجود . ويكفي ان يكون جابر قد شعر شعورا واضحا قويا بهذا الاتجاه ، لكي يتبوا مركز الصدارة في تاريخ العلم كله (٣٦) .

ونحن نعرف الطبائع حين نعرف ميزانها « فمن عرف ميزانها ، عرف كل ما فيها وكيف تركبت » (٣٧) . وهكذا يعرف الكم بالتجربة ، او بما يسميه جابر « الدربة » : « والدربة تخرج ذلك ، فمن كان دربا كان عالما حقا ، ومن لم يكن دربا لم يكن عالما وحسبك بالدربة في جميع الصنائع ... ان الصانع الدرب يحدق ، وغير الدرب يعطل » (٣٨) .

ويوضح على سامي النشار المنهج التجريبي عند جابر ، فيقول أنه استدلاي يقيس الغائب على الشاهد . فتعلق « شيء بآخر ، انما يكون من الشاهد بالغائب على ثلاثة اوجه : المجانسة ، مجرى العادة ، الآثار » .

اما دلالة المجانسة فيسميها جابر الانموذج « لانها استدلال بانموذج جزئي على انموذج جزئي آخر ، او بنماذج جزئية للتوصل الى حكم كلي ، وهو ما يقابل « الوقائع المختارة » في المنهج الاستقرائي المعاصر » (٣٨) .

غير ان جابر « يرى ان هذه الدلالة غير اضطرارية ولا ثابتة في كل حال » ، فهو يقول : « وذلك ان هذا الشيء الذي هو الانموذج مثلا لا يوجب وجود شيء آخر من جنسه ، حكمه في الجوهر والطبيعة حكمه » (٣٩) ، وفي هذا ما يشير الى الجوانب الاحتمالية والظنية في التجربة العلمية ، فصاحب الانموذج « لا ينبغي ان يدعي يقينية تجربته او استدلاله » (٤٠) . وهو ، اذن ، « يأخذ بدلالة المجانسة في اثبات قياس الشاهد على الغائب ، ولكنه لا يوافق على يقينية هذا الطريق ، اللهم الا اذا كان مستندا على الكم » (٤١) .

كذلك يرى جابر بن حيان ان دلالة مجرى العادة احتمالية لا يقينية . فهو يقول ان « التعلق المأخوذ من جري العادة فانه ليس فيه علم يقين واجب اضطراري برهاني اصلا ، بل علم اقناهي يبلغ الى ان يكون احرى واولى واجدر ، لا غير » (٤٢) . ويقول زكي نجيب محمود معلقا على رأي جابر ان في هذا الرأي نقطتين تؤكدان ان جابر منهجي علمي . الاولى : « اشارته

الى ميل النفس البشرية الى توقع تكرار الحادثة التي حدثت ، فكأنما الاستدلال الاستقرائي مبني على استعداد فطري في طبيعة الانسان » ،
والثانية هي « كون درجة احتمال التوقع يزداد كلما ازداد تكرار الحوادث » .

ويضيف زكي نجيب محمود اننا نجد المبدأ الاول عند جون استوارت مل ، وان الرأي الثاني انما هو نظرية حديثة (٤٣) فاذا كان العلم يقوم على منهج استقرائي ، فهذا يعني انه احتمالي النتائج . وذلك ان قياس الشاهد على الغائب لا يكون يقينيا الا اذا ادركنا جميع الموجودات واحاط علمنا بها ، ولكن علمنا يقصر عن الاحاطة ، ومن الممكن ان تكون هناك موجودات يخالف حكمها في اشياء ، حكم ما شاهدنا وعلمنا . ان التقصير عن ادراك جميع الموجودات لازم لكل واحد منا . فليس لاحد ان يدعي بحق انه ليس في الغائب الا مثل ما شاهد ، او في الماضي والمستقبل الا مثل ما في الآن ، اذ كان مقصرا جزئيا ، متناهي الدقة والاحساس ، نحن لم ندرك ابتداء العلم ، ولم نر اول خلق ... » (٤٤) .

وهكذا فان « العادة تحدث ترجيحاً ولا تحدث تأكيداً » ، فخرق العوائد ممكن ، وقد شهدت البراهين بامكان تحقيق خرق العادة (٤٥) .

اما الاستدلال بالآثار ، اي « الدليل الفعلي او شهادة الغير او السماع او الرواية » ، فهو كذلك ظني (٤٦) . ويتضح موقف جابر من الاستدلال بالآثار حين نعرف فكرته عن اليقين . فهو يرى ان في العقل « اوائل وثواني » ، والاول لا بشك فيها « ولا يطلب عليها برهنة ولا دليل ، اما الثواني فتستوفى من الاول بدلالته » (٤٧) . والاولى التي هي المبادئ ، نصل اليها بالحدس « والحدس عيان » اي برهان ودليل ، والعيان نبوي امامي . ولذلك فان النبوة والامامة هما ينبوع الاول او المبادئ ، ومنهما العيان والحدس » (٤٨) .

IV

يقوم نقد الرازي (٤٩) للنبوة على اساسين ، عقلي وتاريخي ، ومقدمة الاساس الاول ان العقل مصدر المعرفة ، ولذلك يجب ان يكون متبوعا لا تابعا . يقول الرازي : « ان الباريء ، عز اسمه ، انما اعطانا العقل وجباناً به لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والاجلة غاية ما في جوهر مثلنا

نيله وبلوغه . وانه اعظم نعم الله عندنا وانفع الاشياء لنا واجداها علينا . . .
وبالعقل ادركنا جميع ما ينفعنا ويحسن ويطيب به عيشنا ونصل الى بئتنا
ومرادنا ، وبه ادركنا الامور الفاضلة البعيدة منا الخفية المستورة عنا . . .
وبه وصلنا الى معرفة الباري عز وجل الذي هو اعظم ما استدركنا وانفع
ما اصبنا . . . واذا كان هذا مقداره ومحله وخطره وجلالته ، فحقيق علينا
ان لا نعطيه عن رتبته ولا ننزله عن درجته ولا نجعله ، وهو الحاكم ، محكوما
عليه ، ولا ، وهو الزمام ، مزموما ، ولا ، وهو المتبوع ، تابعا . بل نرجع في
الامور اليه ونعتبرها به ونعتمد فيها عليه ، فنمضيها على امثاله ، ونوقفها
على ايقافه » (٥٠) .

فالانسان ، بحسب هذا النص ، لم يعرف بالعقل الحياة والاخلاق
وحسب ، وانما عرف كذلك الله . وهذا يعني ان النبوة لا تضيف شيئا الى
ما يعرفه الانسان بعقله .

ثم ينتقل الرازي ، بعد نفي النبوة كمبدأ ، الى انتقادها كظاهرة .
فيقول مخاطبا مناظره في النبوة ابا حاتم الرازي : « من اين اوجبتم ان الله
اختص قوما بالنبوة دون قوم ، وفضلهم على الناس ، وجعلهم أدلة لهم ،
واحوج الناس اليهم ؟ ومن اين اجزتم في حكمة الحكيم ان يختار لهم ذلك ،
ويشلي بعضهم على بعض ، ويؤكد بينهم العداوات ويكثر المحاربات ويهلك
بذلك الناس ؟ » (٥١) . والرازي هنا يقول انه ليس هناك في ظاهرة النبوة ،
ما يوجب عقليا حدوثها في قوم دون قوم ، ذلك ان مثل هذا الاختصاص
تفضيل لبعض على بعض ، وجعل بعض هداة لبعض ، وهو ما ياباه العقل
ولا يقره . خصوصا ان هذا الاختصاص يؤدي الى الشقاق بين الناس ، لان
كل فئة اختصت بالنبوة تزعم ان الحق معها ، وان غيرها على الباطل ، وتزعم
تبعا لذلك ان عليها . اكمالا للدين ، نشر الحق . وهكذا تقع العداوة فيما
بين الناس ، وتكثر الحرب . ولذلك فان « الاولى بحكمة الحكيم ورحمة
الرحيم ان يلهم عباده اجمعين معرفة منافعهم ومضارهم في عاجلهم وآجلهم ،
ولا يفضل بعضهم على بعض فلا يكون بينهم تنازع ولا اختلاف فيهلكوا » .
وذلك احوط لهم من ان يجعل بعضهم ائمة لبعض . فتصدق كل فرقة
امامها ، وتكذب غيره ، ويضرب بعضهم وجوه بعض بالسيف ويمم البلاء
ويهلكوا بالتعادي والمحاربات . وقد هلك بذلك كثير من الناس كما
نرى » (٥٢) .

والرازي هنا يساوي بين الناس في العقل ، وفي حرية الوصول الى الحقيقة بالعقل . انه ينفي طبقية او مرتبة المعرفة التي تقسم الناس الى امام ومأموم ، او عالم ومتعلم . فالناس كلهم متساوون في استعدادهم ، واذا كان هناك اشخاص دون آخرين في المعرفة ، فليس ذلك عائدا لقصور ذاتي فيهم ، بل هو عائد لامتناعهم عن العلم .

يقول ردا على مناظره الذي اتهمه بالادعاء انه خص بالفلسفة : « لم اخص بها دون غيري . ولكني طلبتها وتوانوا فيها . وانما حرموا ذلك لاضرابهم عن النظر ، لا لنقص فبهم . والدليل على ذلك ان احدهم يفهم من امر معاشه وتجارته وتصرفه في هذه الامور ، ويهتدي بحيلته الى اشياء تدق عن كثير منا ، وذلك لانه صرف همته الى ذلك . ولو صرف همته الى ما صرفت همتي انا اليه ، وطلب ما طلبت لادرك ما ادركت » (٥٣) .

هنا اذن مساواة فطرية بين الناس في استعداداتهم ، ويندأ التفاوت بينهم من اختيار بعضهم ان ينمي استعدادا ويهمل آخر . فان الناس « لو اجتهدوا واشتغلوا بما بعينهم لاستووا في الهمم والعقول » (٥٤) .

هذا عن الناس . اما عن الانبياء انفسهم فيقول الرازي : « زعم عيسى انه ابن الله ، وزعم موسى انه لا ابن له ، وزعم محمد انه مخلوق كسائر الناس . . . وماني وزرهشت (زرادشت) خالفا موسى وعيسى ومحمد في القديم ، وكون العالم ، وسبب الخير والشر . وماني خالف زرهشت في الكونين (النور والظلمة) وعالمهما . ومحمد زعم ان المسيح لم يقتل ، واليهود والنصارى تنكر ذلك وتزعم انه قتل وصلب » (٥٥) . وهذا تناقض واضح بين الانبياء انفسهم ، مما يدل ، في رأي الرازي ، على بطلان النبوة . ذلك ان النبوة تقوم على الوحي الذي ينزله الله ، ولما كان الله واحدا ، فان مصدر النبوة واحد ، ولهذا يجب ان يكون الوحي واحدا . وبما ان الله لا يمكن ان يتناقض ، فان الانبياء هم الذين يتناقضون ، ومن هنا بطلان النبوة ، لان تناقضهم دليل على انهم غير صادقين .

ويوجز عبد الرحمن بدوي موقف الرازي في هذا الصدد ، على النحو التالي :

« ١ -- العقل يكفي وحده لمعرفة الخير والشر والضار والنافع في

حياة الانسان ، وكاف وحده لمعرفة اسرار الالهية ، وكاف كذلك وحده لتدبير امور المعاش وطلب العلوم والصنائع . فما الحاجة بعد الى قوم يختصون بهداية الناس الى هذا كله ؟

٢ - لا معنى لتفضيل بعض الناس واختصاص الله اياهم بارشاد الناس جميعا ، اذ الكل يولدون وهم متساوون في العقول والفطن، والتفاوت ليس اذاً في المواهب الفطرية والاستعدادات ، وانما هو في تنمية هذه المواهب وتوجيهها وتنشئتها .

٣ - الانبياء متناقضون فيما بينهم ، وما دام مصدرهم واحدا ، وهو الله فيما يقولون، فانهم لا ينطقون عن الحق، والنبوة بالتالي باطلة (٥٦) .

واذا كان الرازي قد ابطل الاساس وهو النبوة ، فقد كان طبعيا ان يبطل الاديان . وهكذا ينتقد اليهودية والمسيحية والمجوسية والمناوية (٥٧)، ويكشف هذا النقد عن ان الرازي لم يكن ضد الاسلام وحده ، او ضد دين معين دون آخر ، وانما كان يناهض فكرة الدين بذاتها ويراها مخالفة للعقل ، بما تتضمنه ، بخاصة من المحال والتناقض .

غير ان الاديان سائدة من الناحية الواقعية ، وهي منتشرة بين الناس، اكثر من انتشار الفلسفة ، فكيف يمكن لشيء باطل ان ينتشر ويسود ؟ ويرد الرازي قائلا : « ان اهل الشرائع اخذوا الدين عن رؤسائهم بالتقليد، ودفعوا النظر والبحث عن الاصول ، وشددوا فيه ونهوا عنه ، ورووا عن رؤسائهم اخبارا توجب عليهم ترك النظر ديانة ، وتوجب الكفر على من خالف الاخبار التي رووها . ومن ذلك ما رووه عن اسلافهم ان الجدل في الدين والمراء فيه كفر . ومن عرض دينه للقياس لم يزل الدهر في التباس ، ولا تتفكروا في الله وتفكروا في خلقه ، والقدر سر الله ، فلا تخوضوا فيه ، واياكم والتعمق ، فان من كان قبلكم هلك بالتعمق (. . .) ان سئل اهل هذه الدعوى عن الدليل على صحة دعواهم ، استطاروا غضبا ، وهدروا دم من يطالبهم بذلك ، ونهوا عن النظر ، وحرصوا على قتل مخالفيهم . فمن اجل ذلك اندفن الحق اشد اندفان ، وانكتم اشد انكتم » . وهكذا تعلق الناس بالاديان « من طول الالف لمذهبهم ، ومر الايام ، والعادة ، واغترارهم ، بلحى التيوس المتصدين في المجالس ، يمزقون حلوقةهم بالاكاذيب والخرافات، وحدثنا فلان عن فلان بالزور والبهتان ، وبرواياتهم

الاخبار المتناقضة : من ذلك آثار توجب خلق القرآن ، واخرى تنفي ذلك ، واخبار في تقديم علي واخرى في تقديم غيره ، وآثار تنفي القدر واخرى تنفي الاجبار ، وآثار في التشبيه (. . .) ويكرر واصفا الناس : « انما غرهم طول لحى التيوس وبياض ثياب المجتمعين حولهم من ضعفاء الرجال والنساء والمسيبان ، وطول المدة حتى صار طبعا وعادة » (٥٨) .

ونستخلص من هذا النص ان الرازي يعلل ظاهرة التدين او انتشار الدين ، بالتقليد ، واکراه السلطة ، والتدليس والمكر لدى رجال الدين ، وطول اللفة ، مما يحول العادة الى طبيعة .

وينتقل الرازي بعد ابطال النبوة والاديان الى نقد الكتب المقدسة وابطالها . ويتركز نقده ، هنا ، في المقام الاول ، على تشبيه الله وتجسيمه ، وعلى ما في هذه الكتب من التضارب . وكان للقرآن ، بشكل خاص ، النصيب الاوفى والاشمل من النقد الذي وجهه الرازي الى هذه الكتب . وهو ينقد القرآن ، من الناحيتين : ناحية المعنى ، وناحية الشكل . يقول : « قد والله تعجبنا من قولكم القرآن هو معجز ، وهو مملوء من التناقض ، وهو اساطير الاولين - وهي خرافات » . ويقول : « انكم تدعون ان المعجزة قائمة موجودة ، وهي القرآن ، وتقولون : من انكر ذلك فليات بمثله . . . ان اردتم بمثله في الوجوه التي يتفاضل بها الكلام ، فعلينا ان ناتيكم بألف مثله من كلام البلغاء والفصحاء والشعراء وما هو اطلق منه الفاظا واسد اختصارا في المعاني ، وابلغ اداء وعبارة واشكل سجعاً ، فان لم ترضوا بذلك . فانا نطالبكم بالمثل الذي تطالبوننا به » (٥٩) . وهذا النقد يتناول القرآن من حيث الفاظه وتراكيبه وفصاحته وموسيقاه اللفظية ، ويرى ان هناك نجاحاً أعلى ، في هذا كله ، من القرآن . ويتناوله كذلك من حيث معناه ، فبرى انه اسطوري خرافي « من غير ان تكون فيه فائدة او بينة على شيء » (٦٠) . وكلام الرازي يتضمن ايضا نقداً للتعجيز : « من انكر ذلك فليات بمثله » ، ويطلب هؤلاء ان ياتوا بالمثل مما لدى العلماء ، مشيراً الى ما في هذا الاسلوب التعجيزي من تهافت ، اذ « لبس في وسع انسان ان ياتى تماماً بما اتى به آخر » (٦١) .

وعلى هذا ينكر الرازي ان يكون القرآن معجزة او حجة ، او ان تكون الكتب الدينية الاخرى معجزة او حجة . ويرى ان الاعجاز والحجبة يتمثلان في الكتب العلمية والفلسفية . يقول : « لو وجب ان يكون كتاب

حجة ، لكنت كتب أصول الهندسة والمجسطي الذي يؤدي الى معرفة حركات الافلاك والكواكب ، ونحو كتب المنطق وكتب الطب الذي فيه علوم مصلحة الابدان ، اولى بالحجة مما لا يفيد نفعا ولا ضرا ولا يكشف مستورا » (٦٢) .

وهكذا يرى الرازي ان العقل هو ، وحده مصدر المعرفة واصلها ، وان النبوة باطلة ، وهو لذلك يرى ان العقل هو الذي يهدي الانسان ، وان النبوة هي التي تضله . ولقد كان من الخير والحكمة الا يكون هناك انبياء ولا اديان ، اذ « لولا ما انعقد بين الناس من اسباب الديانات لسقطت المجاذبات والمحاربات والبلايا » (٦٣) .

ويصف عبد الرحمن بدوي ابا بكر الرازي بأنه « ينزع نزعة فكرية حرة من كل آثار التقليد او العدوى ، ويؤكد حقوق العقل وسلطانه الذي لا يحده شيء ، وينحو منحى تنويريا شبيها كل الشبه بحركة التنوير عند السوفسطائيين اليونانيين ، وخصوصا بحركة التنوير في العصر الحديث في القرن الثامن عشر ، ويدعو الى ايجاد نزعة انسانية خالصة خالطتها روح وثنية حرة » (٦٤) .

V

تقوم الاتباعية او النقلية على القول ان « الواجبات كلها بالسمع ، وان العقل « لا يحسن ولا يقبح ، ولا يقتضي ولا يوجب » (٦٥) . فهذا كله من شأن السمع ، وشأن العقل ان يعرف ذلك ويقره ويأخذ به . وهذا يعني ان الشرع قبل العقل ، فالشرع يوجب ، والعقل يعرف ويصدق .

وقد عكس الاعتزال هذا الموقف ، فقدم العقل على الشرع وقال ان « المعارف كلها معقولة بالعقل ، واجبة بنظر العقل ، وشكر المنعم واجب قبل ورود السمع ، والحسن والقبح صفتان ذاتيتان للحسن والقبح » (٦٦) . ويعرف ابو الهذيل العلاف العقل بأنه « القوة على اكتساب العلم » (٦٧) . ويقول ابو علي الجبائي بأن « العقل هو العلم . . . وانما سمي عقلا لان الانسان يمنع نفسه به عما لا يمنع المجنون نفسه » (٦٨) . ويبدو من هذين التعريفين أن العقل أصل المعرفة وانه ، تبعا لذلك ، تجب معرفة الحسن والقبح بالعقل ، وان على الانسان ان يعرف الله بالدليل العقلي (٦٩) او بالنظر والاستدلال » (٧٠) .

وهكذا يكون للعقل وظيفتان : نظرية وهي معرفة المعقولات ، الجزئية والكلية ، وعملية هي الحيلولة دون ان يقوم الانسان باعمال تتناقض مع كونه انسانا . فالعقل قوة ادراك وقوة هداية في آن . انه اساس المعرفة والعمل ، وبما ان العقل مصدر المعرفة فانه مقياس الحقيقة . فلا يؤخذ بأي شيء سواء كان تقليدا او خبرا متواترا او اجماعا الا اذا كان مطابقا للعقل ، وكل ما يتناقض مع العقل لا يعتبر علما .

لكن اذا كان العقل اصل المعرفة ومقياسها ، فذلك يقتضي ان الوحي لا يمكن ان يناقضه ، وانما يكون متما وמוضحا . واذا كان في ظاهر الوحي ما يناقض العقل ، وجب تأويل هذا الظاهر ، في ضوء العقل ، بما يؤدي الى الغاء هذا التناقض . ومن هنا لا يعود العقل مقياسا للمعرفة وحسب ، وانما يصبح كذلك مقياس الاخلاق . فالعقل هو مقياس التمييز بين الخير والشر ، وهو الذي يحدد كلا منهما . وهذا يعني ان القيمة ذاتية ، لا اضافة . فالفعل في ذاته يحسن او يقبح عقليا . والوحي لا يمنح للفعل قيمته وانما يخبر بما يوافق العقل . وهذا يعني ، بالتالي ، ان الانسان هو الذي يعرف بالعقل الخير فيفعله ، (او لا يفعله) والشر فيفعله (او لا يفعله) . وهو يفعل او لا يفعل بارادته وحررته واختياره . ولهذا كان مسؤولا عن افعاله . فالعقل اصل المعرفة ، والحرية اصل الاخلاق .

وتحدث المعرفة العقلية بالتوليد ، اي بعد النظر مباشرة (٧١) ، والنظر فعل يباشره الانسان بلا توسط فعل آخر (٧٢) . وينتج عن ذلك ان المعرفة ليست تذكر ، وليست فطرية ، وانما هي اختبارية اكتسابية . فان كون المعرفة تذكر او بالفطرة ، يعني انها تحصل بطريق الضرورة ، ودون اختيار من الانسان ، ويلزم عن ذلك ارتفاع التكليف بالمعارف النظرية ، مما يؤدي الى انهيار الحياة الاخلاقية ، اذ لا يعود ثمة مجال للتكلم في المسؤولية ، او في الثواب والعقاب (٧٣) .

وقد ادى تقديم العقل على الشرع الى نفي القول بتفاوت العقول ، والتأكيد على ان « الناس في العقل كلهم سواء » (٧٤) ، وادى كذلك الى انكار بعض المعتقدات الدينية ، فنفي المعتزلة الشفاعة ، وقالوا بتخليد الفساق في النار ، مما يخالف النص (٧٥) . وقال النظام ان الاجماع ، وهو اصل ديني ، ليس بحجة (٧٦) .

لكن اهم ما ادى اليه تقديم العقل على الشرع هو التوكيد المطلق على حرية الانسان وابداعه ، اي على ان « الانسان فاعل ، محدث ومخترع ومنشئ على الحقيقة دون المجاز » (٧٧) . وقد تضمن هذا التوكيد توكيدا آخر على ان البلد الذي لا يستطيع فيها الانسان ان يمارس حريته ، انما هي بلد كفر-اي انها ، في منظور المعتزلة ، نقيض الدين والعقل والحرية جميعا . وينقل الاشعري عن الجبائي كلاما يوضح هذه المسألة اثبتة بنصه الكامل لاهميته : « كل دار لا يمكن فيها احدا ان يقيم بها او يجتاز بها الا باظهار ضرب من الكفر او باظهار الرضى بشيء من الكفر وترك الانكار له ، فهي دار كفر . وكل دار امكن القيام بها ، والاجتياز بها من غير اظهار ضرب من الكفر او اظهار الرضى بشيء من الكفر وترك الانكار له ، فهي دار ايمان . وبغداد على قياس الجبائي دار كفر لا يمكن المقام بها عنده الا باظهار الكفر الذي هو عنده كفر او الرضى ، كنحو القول ان القرآن غير مخلوق ، وان الله سبحانه لم يزل متكلما به ، وان الله سبحانه اراد المعاصي وخلقها ، لان هذا كله عنده كفر . وكذلك القول في مصر وغيرها ، على قياس قوله ، وفي سائر امصار المسلمين . وهذا هو القول بان دار الاسلام دار كفر - ومعاذ الله من ذلك » (٧٨)

وادى الموقف العقلي كذلك الى القول ان اللغة اصطلاح ووضع وليست توقيفا او وحيا . واقرنت هذه الفكرة بفكرة التنزيه مما اوصل الى النتيجة المنطقية وهي القول بان القرآن ليس قديما ، وانما هو مخلوق محدث (٧٩) .

هكذا تتجلى اهمية التحول الذي نتج عن الاعتزال في ثلاثة امور : الاول يتصل بالمعرفة وهو الاستدلال على الله والدين والاخلاق بالعقل ، والثاني يتصل بالمسؤولية وهو التوكيد على الارادة والحرية ، والثالث يتصل بالمنهج وهو الدفاع العقلي عن هذا كله ، واعتبار العقل اساسا ومقياسا بحيث انه لا يجوز الاعتقاد الا بعد النظر العقلي ، لان كل اعتقاد يسبق النظر لا يكون في الغالب الا جهلا (٨٠) ولان النظر ليس لذاته ، بل للكشف عما يؤدي الى خير الانسان وصلاحه (٨١) .

وقد عنى هذا ، على صعيد المعرفة ، نفي الاتباع التقليدي او النقلى واثبات الابداع العقلي . والقاضي عبد الجبار هو افضل من يعبر عن اثبات العقل ورفض النقل و « فساد التقليد » ، فقد خصص لهذه المسألة جزءا كاملا من موسوعته : المغني ، هو الجزء الثاني عشر ، بعنوان « النظر والمعارف » (٨٢) .

الفصل الثالث

الحقيقة والمريضة ، الباطن والظاهر

I

تتصل التجربة الصوفية ، في شكلها الاعمق والاكمل ، بالتجربة الباطنية الامامية (١) . فهذه التجربة الاخيرة تقوم على تجاوز التاريخ المكتوب ، ذلك انها تتجه الى المستقبل وتنتظر المجيء ، وعلى تجاوز الظاهر المنظم في تعاليم وعقائد ، ذلك انها تتجه الى باطن العالم وتعنى بمعناه الخفي او المستور ، وعلى تجاوز المنطق واحكامه ، وذلك انها تصدر عن النبوة ولدنية العلم (٢) .

ولئن كانت النبوة المحمدية خاتمة النبوات ، فانها خاتمة الظاهر ، ذلك ان لها ما يتممها في الباطن وهو الامامة او الولاية . فالولاية ، بهذا المعنى ، هي باطن النبوة . النبوة ، بتعبير آخر ، هي الشريعة ، اما الولاية فهي الحقيقة . وهكذا يكون الامام ينبوع المعرفة الكامنة فيما وراء النص . وهذا يعني ان ادراك الحقيقة لا يتم استنادا الى العقل او الى النقل ، لان الحقيقة ليست في ظاهر النص ، وانما يتم عن طريق تأويل النص بارجاعه الى اصله والكشف عن معناه الحقيقي . والتأويل مرتبط بعارف يدرك المعنى الباطن ، وهذا العارف هو الامام . فالامامة هي الحضور الالهي المستمر الذي يحول دون تسيؤ الحقيقة في مؤسسات وتقاليد وتشريعات ، وتحولها ، بالتالي ، الى حرف ميت . ان الوقوف عند ظاهر النص يؤدي الى هذا التسيؤ ، ويحول الدين الى اشكال طقوسية من عبادات ومعاملات ، كما هو الشأن في المنظور الفقهي . ومن هنا يعطي القول بالباطن للدين حركية لا تتناهى ، لانه يصبح ، في المنظور الامامي ، تحركا في اتجاه ما لا ينتهي . فالفرق بين الدين في المنظور الفقهي الظاهري ، والدين في المنظور الباطني الامامي كالفرق بين الماء المتموج على سطح البحر ، وحركة الماء المتفجر في اغواره ، او كالفرق بين الظل والاصل ، الفرع والجذر . فالظاهر ليس الا صورة من صور الباطن . وبما ان الباطن لا نهاية له ، فلا يمكن ان تحده صورة واحدة ، بل لا يمكن ان تحده

الصور . غير ان الفقهاء ومن تابعوهم لم يفهموا هذه العلاقة الجدلية بين الباطن والظاهر ، ففسروها بانها تعني الاتحاد بين الانسان والله ، او حلول الله في الانسان . وهذا تفسير خاطيء ، ذلك ان العلاقة بين الباطن والظاهر ، بحسب هذه الجدلية ، لا تعني ان احدهما هو عين الاخر ، وانما تعني ان الباطن هو الاصل وان الظاهر صورته . وكما ان الاصل لا يفسر بالفرع ، والسبب لا يفسر بالنتيجة ، فان الباطن لا يفسر بالظاهر ، بل الظاهر هو السدي يفسر بالباطن .

وهكذا تكون الامامة بمثابة التقاء بين الزمني الذي هو الظاهر او الشريعة ، والابدي الذي هو الباطن او الحقيقة ، بين المتغير والثابت ، المنتهي واللامنتهي . الامامة هي ، بمعنى آخر ، تزامن الجوهر والمظهر . فالباطن ، اذن ، لا ينفي الظاهر وانما يعطيه معناه الحقيقي ، وهو يشبهه فيما يعطيه هذا المعنى . الباطن هو النور الذي يكشف ويضيء ، وهو المعنى الذي يعطي للوجود صورته ، اي قيمته ودلالته .

II

تنطلق التجربة الصوفية من القول ان الوجود باطن وظاهر، وان الوجود الحقيقي هو الباطن . وقد ترتبت على هذا المنطق نتائج كثيرة ، وبخاصة فيما يتعلق بالمعرفة ومنهجها ، والصلة بين الانسان والله ، استلزمت فهم القرآن فهما جديدا ، يفاير الفهم التقليدي ، ورافقها اتهام التجربة الصوفية بانها خروج على الشريعة . والواقع ان الصوفية لم تعتمد ، في الوصول الى الحقيقة ، المنطق او العقل . ولم تعتمد كذلك ، الشريعة . وانما اعتمدت ما اصطلحت على تسميته بالدوق ، وهو الكشف المباشر الذي يتم عبر حال تتلبس الصوفي فتبدل صفاته ، وتقوده في حركة تتجاوز الشريعة الى الحقيقة، متجهة نحو الكشف عن الله ، جوهر العالم ، والفناء فيه . فالتصوف هو شوق الظاهر الى الباطن ، وهو حنين الفرع للاصل وعودة الصورة الى معناها . وليست الطريق التي يسلكها الصوفي لمعرفة باطن الالهة الا شكلا من علم الامامة ، وليس علم القلب الصوفي الا شكلا آخر لعلم الامام الغائب لكن الحاضر ابدا في القلب ، اي في الباطن . وما من صوفي حقيقي الا ويتبنى قول الامام الرابع علي زين العابدين (توفي سنة ٩٥ هـ / ٧١٤ م) :

رب جوهر علم لو ابوح به لقيل لي : انت ممن يعبد الوثنا (٣)

ذلك ان السحوف هو ايضا ، كعلم الامامة ، علم اسرار .

« انا اعلم » : هذا ما يمكن ان يكون مقدمة التجربة الدوقية . والدوق منهج في المعرفة يقوم على الوصول الى الحقيقة بالمشاهدة او العيان . وهذا يعني انه حال من المعاناة الداخلية ، وليس نظرا او جدلا . فليس الدوق بديلا للعقل وحسب ، وانما هو نهضة . ذلك ان الدوق اتصال ، وهو اذن سلوك . وهناك يدور العارف الحقيقية ، ويتصل بها ، اتصال الذائفة بما تدوقه . وكما ان الدوق يناقض العقل ، فانه يناقض التعلم . لذلك لا مجال في الدوق ، السماع او الاكساب او النقل او للتقليد او للبرهان او للاستدلال او للمنطق ، وانما هو سلوك وحال .

بترتب على ذلك ان الدوق يهدف الى الحقيقة ، وبما ان الحقيقة باطن ، فان الدوق ، جاور الظاهر . وكذا تجاوز للظاهر يتضمن تجاوزا لقواعده واحكامه . وامامة لقواعد واحكام بحسب الباطن ومقتضاه . لكن الباطن حال ، اي انه حركة جديية بين الذكر والصحو ، المحو والاثبات . وهي حركة لا تنتهي . وبما انها هي الاول ، فان كل بناء عليها سيكون تابعا لها ، اي سيكون منحرفا بلا نهاية .

من هنا نعلم ان التجربة الدوقية تعطي الاولوية للحقيقة على الشريعة . ان منهج الشريعة يقوم على وضع الحدود ، وعلى الامر والنهي . وليس في الدوق حدود ، وهو يتجاوز الامر والنهي ، لانه هو البداية المستمرة التي تمحو كل امر او نهى . وحين يكون بين الحقيقة والشريعة ، او ينشأ بينهما تناقض . فان الشريعة هي التي يجب ان تؤول بمقتضى الحقيقة . فالحقيقة هي الاساس . ومن هنا تؤكد التجربة الصوفية على ان الشريعة مطابقة مع الحقيقة ، بالضرورة ، اما بنصها الظاهر ، واما بمعناها الباطن .

والوصول الى الباطن لا بد من طريقة . ولها معنيان الاول سفر من الظاهر الى الباطن . من الشريعة الى الحقيقة ، من العالم الى الله . والثاني تبدل في الدفات وتحويل داخلي . يهيئ النفس ويمكنها من رؤية الله والانفصال عنه . المعنى الاول يشير الى صعود الصوفي نحو الله ، مما يذكر بالجدل الصاعد عند افلاطون . والمعنى الثاني يشير الى الهبوط نحو النفس حيث يوجد الله . مما يذكر ايضا بالجدل النازل . وهذا الهبوط نحو النفس ليس الانعقاد من النفس ذاتها ، من شهواتها وفيودها .

والسفر ، صعودا او هبوطا ، مقامات يحققها المسافر واحوال ينالها من الله . فالمقامات مكاسب اما الاحوال فمواهب . الاولى منازل في طريق السفر ، والثانية بوارق تضيء القلب ، تلمع فجأة ولا يعرف لها الصوفي مصدرا ولا تعليلا ، ولا يقدر ان يعبر عنها باللغة ، لانها من طور يتجاوز اللغة والعقل في آن .

وينتهي السفر بالفناء في الله ، وهو يعني البقاء به . فالغناء هو انفصال عما يفني الذات واتصال بما يبقىها . انه موت عما سوى الله تنتج عنه الحياة بالله ، والبقاء به ، فهو حالة لا يرى فيها الصوفي الا الله .

وحال المشاهدة او الفناء هي نفسها حال الحب . فالحب ، كما يفهمه الصوفيون ، فناء عن الذات او الانا وبقاء بالانت او بالله . ان « حقيقة المحبة ان تهبط لك من احببت ، فلا يبقى لك منك شيء » ، كما يقول ابو عبد الله القرشي ، وكذلك يقول الشبلي : « سميت المحبة محبة لانها تمحو من القلب كل ما سوى المحبوب » (٤)

وبما ان المشاهدة او الفناء او الحب حال ، اي انها تحضر وتغيب ، فان ثمة جدلية يعيشها الصوفي ، هي جدلية الحضور والغياب ، الاتصال والانفصال ، الجمع والفرق ، وهذه الجدلية هي محور وجوده ، ومحور ما يعاينه .

هكذا نرى ان نظرية المحبة الصوفية لا تغير المفهوم التقليدي الديني للعلاقة بين الله والانسان وحسب ، وانما تغير كذلك نظرية المعرفة التقليدية القائمة على النقل او على العقل . فالمحبة هي طريق المعرفة – وهذه طريق قائمة على الذوق والاتصال . بل ان المعرفة والمحبة شيء واحد ، او وجهان لحقيقة واحدة . فالصوفي لا يسمى عارفا الا في حال فناءه في الله . يقول القشيري واصفا العارف : « فاذا صار من الخلق اجنبيا ، ومن آفات نفسه بريئا ، ... وصار محدثا من قبل الحق سبحانه بتعرف اسرارهِ فيما يجريه من تصاريِف اقداره ، يسمى عند ذلك عارفا ، وتسمى حالته معرفة . وبالجملَة فمبتدأ اجنبيته عن نفسه ، تحصل معرفته بربه » (٥) .

ويعني ذلك ان الانسان لا يلاقي نفسه الا بتغربه عنها . فهذا التغرب لا يبقى فيها غير النور الالهي ، وهكذا ينبجس في اشراق غامر هو نفسه المعرفة . وهو نفسه المحبة . فالحقيقة ، بالنسبة الى الصوفي ليست حسية او عقلية ،

وليست نقلية - شرعية ، وانما هي الهامية ذوقية . وطبيعي ان تكون اداة الوصول الى الحقيقة شيئا آخر غير الحس والعقل والنقل ، وهذا الشيء هو ما اصطلح الصوفيون على تسميته بالقلب . فالقلب هو تلك اللطيفة الالهية التي يدرك بها الصوفي الله واسرار الكون . انه مركز المعرفة والحب معا .

وثمة فروق كبرى بين معرفة القلب ومعرفة العقل . فمعرفة القلب ادراك مباشر للشيء ، واما معرفة العقل فادراك جانب من جوانبه . الاولى حال يتحد فيها العارف والمعرف ، اما الثانية فادراك العلاقة ما بين العارف والمعرف ، او لمجموعة من العلاقات ، الاولى تجربة ومشاهدة ، اما الثانية فحكم تجريدي . فالمعرفة الصوفية الهامية تشرق في النفس ، وليست كسبا يتم بالجهد والاختيار . ومن هنا كانت التجربة الصوفية بدئية لا تعلل بالعقل بل العقل هو الذي يعلل بها . انها حركة بين القلب اللامتناهي ، بشوقه وحبه ، والمطلق اللامتناهي . اما العقل فحركة متناهية تتجه نحو اللامتناهي . الاولى متصلة باللاتناهي ، طبيعيا ، والثانية منفصلة عنه ، طبيعيا .

غير ان كون الحقيقة غير متناهية ، لا يعني انها غير قابلة للمعرفة . فالحقيقة في التجربة الصوفية تمكن معرفتها ، او يمكن ذوقها والاتصال بها . واذا كان ثمة من حواجز تحول دون الاتصال بها ، فان العقل بين تلك الحواجز . انه حجاب ينسدل بين القلب ونور الحقيقة . وللوصول اليها ، لا بد من تجاوز العقل وتعطيل فاعليته ، واطلاق فاعلية القلب . وهذا الاطلاق للفاعلية القلبية فرض على التجربة الصوفية طريقة جديدة في التعبير ، ذلك انه كشف عن مناطق لا تحيط بها اللغة ، لانها من غير طورها . ومن هنا لم يكن بد من خلق لغة ثانية ، داخل اللغة الاولى ، هي لغة الرمز والاشارة . فما لا يمكن ان يوصف او يعبر عنه بالكلام ، تمكن الاشارة اليه رمزا . والتعبير بالرمز هو وحده الذي يمكن ان يقابل الحالة الصوفية التي لا تحددها الكلمة ، والذي يمكن ، بالتالي ان يخلق المعادل التخيلي لهذه الحالة . انه تعبير لا يخاطب العقل ، بل القلب وما يستجيب في النفس للسحر وكل ما يخرق العادي والمألوف . فكما ان الحالة الصوفية لا يحكمها مقياس الحس والعقل ، كذلك ليس في مقدور لغة الاصطلاح والوضع ، ان تعبر عما يتناقض مع الاصطلاح والوضع . وهكذا فان لغة الصوفي هي ، بالضرورة الباطنية ، سرية . وهي ، شأن جميع الاشياء السرية الباطنية ، لا يمكن فهمها بمنطق الظاهر ، وانما يجب فهمها بمنطقها هي - بمنطق الباطن وحقائقه وابعاده .

III

الشكل الاقصى والاكمل للتعبير الصوفي هو الشطح . والشطح كما يعرفه السراج : « عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته وهاج بشدة غلبانه وغلبته » (١) . والشطح ، إذن ، يتجاوز العقل والمنطق والواقع ، ولهذا فان من صفات التجربة الصوفية الغرابة والتخيل واللامعقولية ، وهي ، تبعاً لذلك ، شنيعة بحسب الظاهر ، لكنها صحيحة بحسب الباطن . وبهذا المعنى يصف السراج الشطحات الصوفية بان « ظاهرها مستشنع ، وباطنها صحيح مستقيم » (٨) . ان الشطح نوع من الحضور في بدئية اللغة يطابق الحضور في بدئية العالم . فكما ان التصوف هو « صفة الحق يلبسها العبد » كما يعرفه ابو يزيد البسطامي (٨) ، فان الشطح هو صفة البكارة اللغوية يلبسها النطق . انه غيبوبة عن اللغة - الاصطلاح ، شأن التصوف الذي هو غيبوبة عن العالم - الاصطلاح . انه باطن اللغة الموازي لباطن الالوهة . وكما ان باطن الالوهة لا نهائي ، فان باطن اللغة او الشطح يوحى بابعاد لا نهائية . انه اللغة فيما وراء اللغة .

واذا كان الشطح كشفاً من تجربة الوحدة مع الله ، فانه كذلك كشف عن جوهر المعرفة . فالشطح علامة على الوجود الحقيقي والمعرفة الحقيقية في آن . انه ، بتعبير آخر ، كشف اونتولوجي - ابيستيمولوجي ، وكشف عن العلاقة بين الوجود والمعرفة . ولما كان الله لا يعرفه غير الله (٩) ، كما يقول الجنيد ، وكانت غاية التجربة الصوفية معرفة الله ، فان معنى هذه التجربة هو ان يصبح الصوفي الله ، او يصبح الانا هو الانت ، وعن ذلك يعبر ابو يزيد البسطامي ، الذي اعطى للشطح صورته الكاملة ، بقوله : « رفعني (اي الله) مرة فاقامني بين يديه وقال لي : يا ابا يزيد ان خلقي يحبون ان يروك . فقلت زينني بوحدانيتك والبسني انانيتك وارفعني الى احديتك - حتى اذا رآني خلقك قالوا : رايناك ، فتكون انت ذاك ، ولا اكون أنا هناك (١٠) . وهكذا فان الشطح لا يكشف عن فناء الصوفي عن نفسه في الله وحسب وانما يكشف كذلك عن ان هذا الفناء شكل من البدلية ، يصير فيها الخالق مخلوقاً والمخلوق خالقاً . وبهذا المعنى يقول البسطامي : « سبحاني ! سبحاني ! » (١١) ، ويقول مخاطباً الخالق : « كنت لي مرآة ، فصرت انا المرآة » (١٢) . ويسبق البدلية ما يمكن ان نسميه بالموازاة او المطابقة بين الله والانسان ، اي المثلية ، حيث يصبح الانسان مثيلاً لله . وعن هذا يقول البسطامي : « ضربت خيمتي بازاء

العرش » (١٣) . واذا كانت المثلية بداية البدلية ، فان البدلية بداية لانقلاب يأخذ فيه الانسان مكان الله ودوره . يقول البسطامي : « لان تراني مرة خير لك من ان ترى ربك الف مرة » (١٤) ويقول مخاطبا الله : « طاعتك لي يا رب اعظم من طاعتي لك » (١٥) . ويقول عن الله : « بطشي به اشد من بطشه بي » (١٦) .

حين يصل الصوفي الى هذه المرتبة تتغير ، تبعا لها ، صورة العالم وعلاقاته ومفاهيمه جميعا . ومن الاشكال الاساسية لهذا التغير بطلان مقولتي المكان والزمان ، بحسب العقل ، اي انسلاخ المكان من مكانيته والزمان من زمانيته . سئل ابو يزيد البسطامي ان كان يمشي على الماء وفي الهواء ، ويأتي مكة بين الاذان والاقامة ويركع ويرجع ، فقال للسائل : « يا مسكين ! ان هذا الذي ذكرت ليس له خطر ، وان اعطي المؤمن هذا ، فانما اعطي عطاء طير من الطيور ليس لها ثواب ولا عقاب ، بل المؤمن اكبر على الله من الغراب . واما ما ذكرت من اني اسير ما بين الاذان والاقامة الى مكة ، فان بعض الجن يسير في نحو هذا الى مكة ويأتي بالخبر . فان اعطي المؤمن هذا ، فانما اعطي عطاء بعض الجن ، والمؤمن اكرم على الله من الجن » . . . وتضيف الرواية ان البسطامي « هاج واضطرب وقال : المؤمن الجيد الذي تجيئه مكة وتطوف حوله وترجع ولا يشعر به حتى كانه اخذ » (١٧) . فالصوفي جوهر مبثوث في الوجود كله ، لذلك لا تحده الجهات ، بل الجهات تصدر عنه ، ولا يحيط به المكان ، بل هو الذي يحيط بالمكان .

وبهذا المعنى يقول ابو يزيد البسطامي : « المؤمن الجوهر ، اني يطلع فيكون المشرق والمغرب بين يديه ، فيتناول من حيث شاء » (١٨) . وفي هذا المنظر تبطل الطرق التي تؤدي الى الله ، اذ لا يعود ثمة فاصل مكاني بين الانسان والله . بل ان غياب الطريق يصبح شرطا للوصول الى الله : « غب عن الطريق تصل الى الله » (١٩) ، هكذا يقول .

وتعني الاحاطة بالمكان احاطة بالزمان . يقول البسطامي لمن يسأله : كيف اصبحت ؟ « لا صباح ولا مساء ، انما الصباح والمساء لمن تأخذه الصفة ، وانا لا صفة لي » (٢٠) فكما ان المكان لا يحده الصوفي اذ « لا يخلو عنه مكان » (٢١) فان الزمان كذلك لا يحده ، فليس الوقت ، بتعبير صوفي ، شيئا له ، وانما هو « شيخ الوقت » (٢٢) فالزمان واحكامه ، شأن المكان واحكامه ، تنطبق على من يتزمن ويتمكن ، اي يتجزأ ويتصف ، اما الشخص الذي فني

عن ذاته فقد فني عن صفاته ، وفني بالتالي عن الزمان والمكان ، داخلا في ابدية الالوهة وجوهريتها ، متجاوزا الزمان والمكان .

واذ تروى المكانية والزمانية ، يحضر الصوفي مع الله ، متحولا الى نور محض اي حضور محض . والحضور المحض حجاب يمنع الرؤية ، اي انه يمحى الوجود العيني الجزئي : « جاء رجل فدق الباب على ابي يزيد ، فقال ابو يزيد : ماذا تطلب ؟ فقال : ابا يزيد . قال ابو يزيد : انا كذلك في طلب ابي يزيد منذ عشرين سنة » (٤٣) ، وينوع في مكان آخر ، قائلا : « من ابو يزيد؟ يا ليتني رايت ابا يزيد » (٢٤) . فالحضور المحض ينفي المثلية عن الحاضر المحض ، وهكذا تغيب صفاته ، او تصبح غيبا . يقول البسطامي معبرا عن ذلك : « ليس مثلي مثل في السماء يوجد ، ولا لمثلي صفة في الارض تعرف ... صفاتي غائبة في غيبه ، وليس للغيب صفات تعرف » (٢٥)

وهذا ما يوضحه قول آخر له : « للخلق احوال ولا حال للعارف ، لانه محيت رسومه وفنيت هويته بهوية غيره ، وغيبت آثاره بآثار غيره » (٢٦) . او قوله : « خرجت من الحق الى الحق ، حتى صاح مني في : يا من انت انا ، فقد تحققت بمقام الفناء في الله » (٢٧) وهكذا يكون الفناء ارقى شكل من اشكال البقاء ، لانه الشكل الذي يسيطر فيه « سلطان الحقيقة » ، كما يعبر القشيري . وفي هذه السيطرة تتحقق مشاهدة الله ، او تتحقق ، بتعبير آخر ، وحدة الشهود والحضور وهي الشكل الاول لما يسمى ، فيما بعد ، مع ابن عربي بوحدة الوجود (٢٨) . فوحدة الشهود حال او تجربة ، انها ، كما يسميها الصوفيون عين التوحيد او حال الجمع ، حيث يطلب الله بالله ، لا بغيره ، وتزول التفرقة بين الانا والانت ، بين الانسان والله .

ندرك ، في هذا المنظور ، كيف ان الصوفي الذي يصل الى هذا المقام ، يصرح بانه اعظم من النبي : « ان لوائي اعظم من لواء محمد » (٤٩) ، يقول البسطامي ، ويقول كذلك : « خضت بحرا وقف الانبياء بساحله » (٣٠) . وهذا يعني ان قدرة الله تصبح هي نفسها قدرة الصوفي ، فلا يعود يحدها شيء . فكما انها تفسير صورة الوجود ، فانها كذلك تغير دلالاته . يقول البسطامي : « ما النار ؟ لاستندن اليها غدا واقول : اجعلني لاهلها فداء ، او لا بلعنها . ما الجنة ؟ لعبة صبيان » (٣١) .

ومن الواضح ان البسطامي يعطي هنا لظاهر الوجود كما ترسمه الشريعة

دلالة أخرى هي الحقيقة أو معناه الحقيقي ، وأنه يشير الى كون هذا المعنى يتجاوز الظاهر ويناقضه في آن . وبهذه الإشارة يؤكد : « أعلم ان جهنم اذا رأتني تخمد ! » (٣٢) .

لقد نقلت الصوفية تجربة الوجود والمعرفة من اطار العقل والنقل الى اطار القلب ، فلم يعد الوجود مفاهيم ومقولات مجردة ، وبطلت المعرفة ان تكون شرحا لمعطى قبلي او تسليما بقول موحى . وهكذا اصبح الوجود حركة من التحول او من الضياع (٣٣) كما يعبر البسطامي ، حركة لا تنتهي من الضياع في ضياع لا ينتهي ، واصبحت المعرفة بالتالي معاناة لهذا التحول وكشفائه الى ما لا ينتهي . فان تعرف هو ان تتحد بالمعروف اي بالله، ذلك ان « ادنى صفة العارف ان تجري فيه صفات الحق وجنس الربوبية » (٣٤) ، وحينئذ لا يبحث الصوفي عن المعرفة ، بل يصبح هو مصدر المعرفة . وكما انه يقول ، على صعيد الوجود : « انا ربي الاعلى » (٣٥) فانه يقول ، على صعيد المعرفة : « انا اللوح المحفوظ » (٣٦) ، اي الاصل الذي فيه كل شيء » (٣٧) .

الفصل الرابع

الابداع والحداثة في الشعر : ابو نولس وابو تهم

ثمة ظاهرة تلفت النظر : كان من المنتظر ان يكون خروج الشعراء العرب من حدود الجزيرة العربية ، واطار القبيلة ، الى اقاليم جديدة بسبب حركة الفتح ، فرصة تتيح لهم الخروج من حدود موضوعاتهم الشعرية التقليدية ، ومعاودة وقائع لا تدور بين قبيلة وقبيلة ، او بين عربي اسلم وعربي لم يسلم ، وانما تدور بين العرب ككل وعدو العرب ككل ، وان يفذي تبعا لذلك انتصار العربي على اعدائه ، او شعوره بانه سينتصر ، ايمانه بدينه الجديد الذي كفل ويكفل له هذا النصر ، فيعبر عنه بحرارة لا يعرفها من لا يعرف لهب المعركة مع العدو . وان يرى ، بالتالي ، اشكالا جديدة من الحياة والسلوك ، في اقاليم جديدة ، فينفعل بها ويعبر عن انفعاله .

غير ان ذلك الخروج لم يؤد الى احداث تغييرات فنية ، وانما ادى الى اتساع في الموضوعات . وعلى الرغم من ان الفتوح الاسلامية غيرت ، افقيا على الأقل ، بلدانا بكاملها وتواريخ بكاملها ، فانها لم تلهم أي شاعر أية قصيدة يمكن اعتبارها قصيدة عظيمة ، لا من الناحية الملحمية ولا من الناحية الشعرية الفنية . بل ان ما سمي بشعر الفتوح كان ، من مختلف النواحي ، ادنى مستوى من الشعر الجاهلي ، ومن الشعر العربي بعامة في العصرين الاموي والعباسي (١) .

ولم يصدر اعشى همدان (٢) في شعره ، ابان مشاركته في فتح الديلم ومما حولها او في مكران ، عن شعوره بانه فاتح باسم دين جديد ، وانما صدر عن تجربة الاسر التي عاناها وعن شعوره بالوحدة والغربة . انه ، على العكس ، لا يعترف بانه جاء الى مكران غازيا ، فقد فرض عليه فرضا . يقول :

ولم تك من حاجتي مكران ولا الغزو فيها ، ولا المتجر .

....

ولكن بعثت لها كارها وقيل : انطلق كالذي يؤمر والواقع ان الاسلام بذاته لم يلهم الشعراء العرب الذين اعتنقوه في بداياته شعرا ذا قيمة ، فبالاحرى ان لا تلهمهم الفتوح . فقد بقي الشاعر العربي ، من ناحية التعبير الفني اسيرا لحساسيته البدوية وعقليته الجاهلية . والشعر العربي الذي كتب في الفتوح او في الفتن والثورات داخل المجتمع الاسلامي ، مستلهما ، بشكل او آخر ، مبادئ الاسلام او الفاظ القرآن ومعانيه ، انما كان كله شعرا مباشرا تقريريا ، اي انه كان ، من الناحية الفنية ، شعرا رديئا جدا (٣) .

غير ان لهذا الشعر قيمة من ناحيتين : تاريخية وفكرية . من الناحية الاولى ، ساعد في نقل الشعر العربي من مدار العصبية القبلية الى مدار عصبية جديدة : مذهبية او سياسية (٤) . وخير مثل على ذلك شعر الخوارج . وعمل من الناحية الثانية على تلقيح الغنائية الجاهلية ببعد فكري يصح ان نعتبره نواة لما نسميه اليوم بالشعر الايديولوجي ، وهذا ما اشرنا اليه .

لكن اذا كانت الفتوح بذاتها لم تلهم الشعراء ، فقد كان للاستقرار في البلدان المفتوحة او التي اسست اiban حركة الفتح ، كالبصرة والكوفة ، دور حاسم ، تقريبا ، في خلق الحساسية الشعرية الجديدة . ولعل من المظاهر الاولى لهذه الحساسية رفض الشعراء لوضعهم الاقتصادي ، بسبب الفروق الطبقية . واكثر ما تجلى ذلك ، حتى نهاية القرن الثاني الهجري ، في الكوفة لما كان فيها من التفاوت الاقتصادي الكبير بين فئة عربية ارستوقراطية ، وفئة شعبية ، من فلاحين وحرفيين وعبيد ، من غير العرب . (٥) ويتجلى هذا الرفض ، سلبيا ، بان يعكس الشاعر وضعه الاقتصادي الخاص ، بصور مرة ساخرة ، ويتجلى ، ايجابيا ، في التمرد وفي الثورة لتغيير الوضع السائد . وقد رأينا في شعر عبيد الله بن الحر نموذجا عن هذا الرفض الايجابي . ويقدم لنا شعر الحكم بن عبادل الاسدي (٦) نموذجا للرفض السلبي . من شعره ، مثلا :

وكتاب متمم كالوشوم
قد وقعنا خروقة باديم

ليس لي غير جرة واصيص
وكساء ابيعه برغيف

وكان يستلب المال من الارستوقراطية الكوفية او من « الولاة والوجوه » كما يعبر الجاحظ (٧) بقوة تهديده اياهم بالهجاء . وكان شعره سهلا، مباشرا، بسيطا مما اتاح له الانتشار بين الشعب . ويقال انه هجا محمد بن حسان بن سعد التميمي ، وكان على خراج الكوفة ، بقصيدة ظل يزيد فيها حتى مات . وتداولها الناس في الكوفة واشتهرت حتى ان المكاري كان يسوق بغله او حماره وهو يزجره بابيات منها (٨) .

II

مثلت بداية الاستقرار في المدن مرحلة انتقالية ، اخذ الموالي فيها يتقنون اللغة العربية ويعبرون بها ، فيضفون عليها خصائص نفسياتهم وعقليتهم ، وتكتسب بذلك ابعادا جديدة . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية اخذ جيل من الشعراء الذين يتحدثون من اصل عربي يولدون وينشأون في المدن ، بعيدا عن الموطن الاصلي للغة العربية ، مما ادى الى اكتساب لغتهم ، هم ايضا ، ابعادا جديدة . نمتل على الناحية الاولى بالشاعر ابي العطاء السندي (٩) ، وعلى الثانية بالكميت .

فقد كتب الاول شعره بلغة ليست لغته الام ، لكنه اتقنها لفظا واسلوبا، اعني اتقن كتابتها ، ذلك انه لم يكن يتقن النطق بها . وهكذا جاء شعره اعجمي الروح عربي النمط . ان شعره يعكس رغبته كمولى في التدليل على انه يتقن العربية كاحد ابنائها الخالص ، اي يعكس رغبته في التقرب من ذوي السلطان، وقد نجح في ذلك فصار من شعراء بني امية يمدحهم ويدافع عنهم ، وبهجو اعداءهم . لكنه ، في قراراته ، كان يشعر بضيق ازاء اللغة العربية ، وقد عبر عن هذا الضيق بابيات استوهب فيها احد ممدوحيه غلاما فصيحاً يقوم بانشاد شعره ليفهمه سامعوه . يقول :

اعوزتني الرواة يا بن سليم	وابى ان يقيم شعري لساني
وغلى بالذي اجمجم صدري	وجفاني ، لعجمتي ، سلطاني
وازدرتني العيون اذ كان لوني	حالكا مجتوى من الالوان
فضربت الامور ظهرا البطن	كيف احتال حيلة للساني . الخ (١٠)

وشعر السندي يعبر عن المرحلة الاولى من اتقان الموالي العربية الفصحى او القديمة ، رغبة منهم في المشاركة بسلطان العرب ومجدهم . لكن شعره

شكل من النظم واللغة ، ولا يتضمن اية قيمة جديدة ، على الصعيد الفني .
ولذلك فان شعره ليس « عربيا » ولا « اعجميا » : لم يكن من « القديم » ولا
من « المحدث » . وانما كان وسيلة للدخول في المناخ العربي .

اما شعر الكميت فيمثل الحالة نفسها ، لكن على صعيد آخر . فالكميت
عربي الاصل ، لكنه حضري ولد في الكوفة ومات فيها (٦٠ - ١٢٦ هـ) .
وهذا يعني انه « تعلم » اللغة العربية القديمة و « حفظها » و « ثقف » بها .
ويقال انه كانت له جدتان ادركتا الجاهلية ، وكانتا تصفان له البادية ، وتخبّرانه
بأخبارها . وقيل انه « احاط » باللغة العربية القديمة وانساب العرب و أيامها ،
حتى صار « استاذا » فيها (١١) ومع هذا كله قال عنه علماء اللغة ان الفطرة
البدوية تنقصه ، وان السليقة اللغوية تعوزه ، ولذلك لم يكن « يعتد به في
الشعر » (١٢) كما يقول المفضل الضبي . وكان الاصمعي يقول عنه انه من
المولدين ، فلا يحتاج بكلامه (١٣) ، وانه يقول ما سمعه ولم يفهمه (١٤) وانه
« كان من اهل الكوفة ، فتعلم الغريب وروى الشعر ، وكان معلما ، فلا يكون
مثل اهل البدو ومن لم يكن من اهل الحضر » (١٥) . و يروى ان ابا تمام سأل
بدويا عن رأيه فيه فقال : « لقد قال كلاما خبط فيه خبطا من ذاك ، لا يجوز
عندنا ، ولا نستحسنه ، وهو جائز عندكم ، وهو ، على ذاك ، اشبه كلام
الحاضرة بكلامنا واعربه واجوده » (١٦) . وهكذا فان الكميت صانع شعر ،
بالقياس الى الحضر ، وناظم كلام يشبه كلام العرب ، بالقياس الى لغة البادية .
انه ، بتعبير آخر ، يقلد الشعر واللغة القديمين ، تقليدا بارعا (١٧) .
ويمكن تسمية هذه المرحلة بانها مرحلة العجمي الذي يستعرب ،
والعربي الذي يستعجم .

وبدأ من الثلث الثاني من القرن الثاني للهجرة تطفئ اللغة المولدة ويطفى
كذلك الشعراء المولدون . بل تأصل الشعراء المولدون في تجربة الإبداع
الشعري العربي ، وتفوقوا على العرب الاقحاح انفسهم . وكان نتائجهم الشعري
الاصل الاول للتحويل ومناخه الاول . فمسلم بن الوليد (١٨) هو اول من
حاول ان يجعل من الشعر ابداعا جماليا بالالفاظ . ويقول عنه ابن قتيبة انه
« اول من الطف في المعاني ورقق في القول » (١٩) وكان بشار بن برد (٢٠) في
اساس ابتكار اللغة الشعرية المحدثه اي في اساس الخروج على الاصول
الشعرية القديمة . قيل عنه انه : « استاذ المحدثين من بحرهم اغترفوا ، واثره
اقتفوا » (٢١) . وفي رواية لابي حاتم السجستاني انه سأل الاصمعي عن اي
الشاعرين اشعر : بشار او مروان بن ابي حفصة ؟ فقال الاصمعي : بشار ،

وعلى ذلك بقوله : « لان مروان اخذ بمسالك الاوائل . . . سلك طريقا كثر سلاكه ، فلم يلحق بمن تقدمه وان بشارا سلك طريقا لم يسلكه احد فانفرد به واحسن فيه » (٢٢) .

ولا تقتصر اهمية بشار على الناحية الفنية في شعره وانما تشمل ايضا موقفه الفكري العام . فقد رفض التقاليد الاجتماعية السائدة ، مشككا فيها تارة ، ساخرا منها تارة ثانية . وسخر من العقائد والسلطة التي تمثلها ، معلنا عقيدته الخاصة (٢٣) . وبشر باللذة واباحتها . بحيث ولد شعره معركة من التحرر الاخلاقي - الجنسي جعل رجال الحديث والفقه يحاربونه ويحرضون عليه حتى قتله المهدي .

وكان بشار شديد الثقة بشعره (٢٤) ، مدركا انه يفتتح به عهدا جديدا من الشعر . سئل مرة : بم فقت اهل عمرك ، وسبقت اهل عصرك في حسن معاني الشعر وتهذيب الفاظه ؟ فقال : لاني لم اقبل كل ما تورده علي قريحتي ، ويناجيني به طبعي وبيعه فكري . . . ولا والله ما ملك قيادي الاعجاب بشيء مما آتني به » (٢٥) . وفي هذا القول ما يشير الى ان الشعر في رأي بشار فن ، فلا يكفي ان يعبر الشاعر طبعيا ، بل المهم هو كيفية تعبيره . فالطبع بذاته لا يتضمن قيمة شعرية بالضرورة ، وانما يجب اخراجه فنيا . وفي هذا القول ما يشير ايضا الى ان بشار يرى ان الشعر بحث مستمر ، ومن هنا لا يعجب الشاعر بما انجزه ، ذلك انه مأخوذ بما لم ينجزه بعد .

ويقدم شعر ابي العتاهية (٢٦) نموذجا آخر للحساسية الناشئة في المدينة ، تتلاقى فيه الطهريّة الدينية ، والفلسفة ، وما يمكن ان نسميه بالشعبية او التبسيطية الشعرية . فقد كان يكتب الشعر وكأنه يزن كلام الناس ويقفيه . فلا فرق ، بالنسبة اليه ، بين الشعر وكلام الناس ، الا الوزن والقافية . فكان يقول ان اكثر الناس « يتكلمون بالشعر وهم لا يعلمون ، ولو احسنوا تأليفه كانوا شعراء كلهم » . وقيل انه قام بتجربة ليدل على رأيه ، فاخذ كلام العامة في الاسواق وصاغه شعرا موزونا مقفى (٢٧) . وكان يدافع عن اتجاهه بقوله « اعجب الاشياء اليهم (الناس) ما فهموه » (٢٨) غير انه يؤمن بشعر آخر هو ما يسميه بشعر « الفحول المتقدمين ، او مثل شعر بشار وابن هرمة » ، فاذا لم يكن الشاعر يكتب مثل هؤلاء ، اي شعرا يصعب فهمه على الجمهور ، او شعرا « فحلا » ، فالاصح للشاعر ان « تكون الفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري » (٢٩) . وكان ابو العتاهية ، بتعبير

آخر ، يقول بان على الشاعر اما ان يكون قديما حقا ، او محدثا حقا ، ولا يجوز له ان يكون مهجنا ، اي بين بين . فقد عاب مرة شعر ابن مناذر بقوله : « شعرك مهجن لا يلحق بالفحول ، وانت خارج عن طبقة المحدثين ، فان كنت تشبهت بالعجاج ورؤبة فما لحقتكما ولا انت في طريقهما ، وان كنت تذهب مذهب المحدثين فما صنعت شيئا » (٣٠) . وفي هذا ما يفسر اختيار ابي العتاهية الطريق الشعرية التبسيطية او السوقية . قال له مرة سلم الخاسر ، بعد ان سمع احدى قصائده : « لقد جودتها لو لم تكن الفاظها سوقية » . فقال له : « والله ما يرغبنى فيها الا الذي زهدك فيها » (٣١) . هكذا اقترب الشعر من النثر ، واصبح صياغة موزونة لكلام الناس ، وبخاصة العامة منهم . وهذه النثرية عند ابي العتاهية قادته الى الخروج عن نظام القافية التقليدي ، كما يظهر ذلك في قصيدته « ذات الامثال » حيث اجرى قوافيها على اساس ازدواجي ، وقادته كذلك الى الخروج عن نظام الاوزان التقليدي . يقول عنه ابنه محمد : « وله اوزان لا تدخل في العروض » (٣٢) . ويقول ابو الفرج : « وله اوزان قالها مما لم يتقدمه الاوائل فيها » (٣٣) ويقول ابن قتيبة : « وكان لسرعته وسهولة الشعر عليه ربما قال شعرا موزونا يخرج به عن اعاريض الشعر واوزان العرب » (٣٤) . ويقول المبرد : « كثيرا ما يركب ما يخرج من العروض اذا كان مستقيما في الهاجس » (٣٥) . وهذه الكلمة تشير الى ان الوزن ليس منحصرا في العروض ، بل الوزن ايضا ما يستقيم في الهاجس . الوزن بتعبير آخر ابتكار وليس قاعدة ، تفجر من داخل لا فرض من خارج . ولعل ابا العتاهية كان يشير الى ذلك عندما قال : « انا اكبر من العروض » (٣٦) .

ويروي ابن قتيبة خبرا عن ابي العتاهية يشير الى المبدأ الموسيقي الذي كان يعني به ليقيمه ، مكان المبدأ العروضي ، وهو انه « تعد يوما عند قصار نسمع صوت المدقة ، فحكى ذلك في الفاظ شعره ، وهو عدة ابيات فيها :

للمنون دوائر يدرن صرفها

هن ينتقيننا واحدا فواحدا » (٣٧) .

وهذا المبدأ الموسيقي ماخوذ كما يشير الخبر ، من موسيقى الحياة واشيائها اليومية . ويجري ايقاع هذين البيتين على : فاعلن فاعلن . وهذا يعني ان التفعيلة بدايتها خلية ، اي قديمة ، اما الجديد فهو المؤلفات بين التفعيلات ، او الوحدات الموسيقية في عروض الخليل ، وشكل هذه المؤلفات . اصف الى ذلك انه يهمل القافية .

ليس غريبا ، اذن ، ان يكون ابو العتاهية قد اختار ان يكتب معظم شعره على اوزان قصيرة خفيفة .

غير ان سيطرة الحساسية المدنية وقوة التعبير عنها تجلتا على الاخص عند ابي نواس وابي تمام . انهما يشتركان في رفض القديم ، ولكن كلا منهما سلك في ابداعه وتجديده ، مسلكا خاصا : نظر ابو نواس الى العالم حوله كما هو ، وعاشه كما هو ، ورسم له صورة حية بالكلمات ، مطابقا بين الحياة والشعر ، ونظر ابو تمام الى العالم حوله كما هو ، وعاشه كما هو ، لكنه تجاوزه وخلق عالما فنيا . وهكذا اتخذت الحدأة عنده بعد الخلق لا على مثال ، بينما اتخذت عند ابي نواس بعدا مجازيا ، رمزيا .

III

حين ندرس شعر ابي نواس (٣٨) يبدو انه يكشف ، بشكل عام ، عن قضايا اربع متلازمة ومترابطة : عن محسوس جديد ، أي نمط معين من الاشياء ، وعن حدث جديد ، أي نمط معين من الوقائع ، وعن تجربة جديدة ، أي نمط معين من الحياة ، وعن لغة شعرية جديدة ، أي نمط معين من التعبير .

وهكذا يبدأ ابو نواس بأن يتجاوز التقليد ورموزه القديمة : الطلل والناقة ، الصحراء وكل ما يتصل بها ، ساخرا من البداوة ، والحياة البدوية . يرفض ، بتعبير آخر ، نمط الحياة في البادية ، ونمط التعبير عن هذه الحياة ، ويدعو الى نمط حياتي آخر ، هو نمط الحياة في « البلد » ، وهو يفترض ، بالضرورة ، نمطا آخر من التعبير (٣٩) .

هذا يعني ان ابا نواس لا يرث ، بل يؤسس ، ولا يكمل ، بل يبدأ . انه لا يعود الى الاصل ، وانما يجد هذا الاصل في حياته ذاتها وبدا من تجربته . فهو ينفرس في اللغة واصواتها ، لا في الناطقين واصواتهم . لذلك لا يكرر الخطوات التي مشيها هؤلاء ، وانما يفتح طريقه هو ويخطو خطواته هو . انه يعيد ، بدءا من تجربته ، تشكيل صورة العالم .

يلبس ابو نواس ، فيما يشكل صورة العالم ، قناع المجون . والخمرة

هي، له ، بؤرة التحولات. انها الرمز - المفتاح . سيضفي، اذن، على الخمرة قدرة التحويل ، قدرة الابداء والاعادة ، النفي والاثبات . سيساويها بالله ، فهي القديعة التي لا تنسب الى شيء ، بل كل شيء ينسب اليها ، وهي امومة البداية والنشوء ، وهي كذلك المعاد ، وهي ، فيما بين النشوء والمعاد ، الحبيبة والحب (٤٠) .

ان كانت هذه ماهية الخمرة ، فان لوجودها الفعل الذي يليق بهذه الماهية . فهي تمنح الحياة وتغير قيمتها ، وتؤلف بين الاشياء ، وتبطل منطق الزمن العادي ، وتهدم سجن الحياة العادية ، وتضيء وتهدي . انها نشوة التألف بين الذات والعالم (٤١) .

وكما ان الله جوهر العالم ، والعالم غابة رموز لاسمائه وصفاته وافعاله، كذلك الخمرة جوهر وليست اشياء العالم الانسيجا من المطابقات بين الخمرة وبينه . فهي النار ، وهي كائن حي يرى وينطق ، وكووسها مصاييح او نجوم، وفواقعها جنادب تقفز بين الفيء والعشب ، والمجلس الذي تشرب فيه ، فلك يتم فيه الموت والنشور (٤٢) .

الخمرة شيء ترتبط به جميع الاشياء . انها مفتاح يصلنا بالابواب كلها . انها صيغة لوجود كل شيء ، واسم تصدر عنه تسمية كل شيء. وهي، اذن ، النقطة التي تتلاقى فيها الذات والطبيعة ، والتي تكشف عن ان النفاذ الى اعماق الذات انما هو ، في الوقت نفسه ، نفاذ الى اعماق الطبيعة .

الخمرة ، من هذه الناحية ، حلم ولها فعل الحلم : تكتشف المجهول ، سواء في الذات او في الطبيعة ، وتقتلنا من وحل الاشياء العادية ، وتقذف بنا فيما وراءها ، وتعلمنا ان المرئي وجه اللامرئي ، وان الملموس تفتح لغير الملموس ، فما نراه ونحسه ليس الا عتبة لما لا نراه ولا نحسه ، وتجتاز بنا هذه العتبة ، حيث تزول الفواصل ، ويصبح الباطن والظاهر واحدا . وكما انها تنقلنا ، ضمن المكان ، الى المكان الخفي الاخر ، فانها كذلك تنقلنا ، ضمن الزمن ، الى ما يتجاوز الزمن ، حيث يمحي زمن الاصطلاح ، زمن الدقائق والساعات ، الليل والنهار ، وحيث تتحول الحياة الى ما يشبه النشوة الدائمة .

وليست هذه النشوة الا الحياة في اشد ما تصل اليه من الكثافة والتوتر

والوعي والحسية . فليست الحياة حلما ، بل هي ، على العكس ، امتلاك الحلم وتجسيده . ان ابا نواس يحلم بمادة الحياة التي يحياها . انه يبتكر الافق الذي يسير فيه . فهو لا يفرق في اللاشعور ، وانما يوسع ، على العكس ، مجال شعوره . انه يحول الحلم الى سلاح لامتلاك الواقع . وهكذا يسيطر على ما يكتشفه ، وسرعان ما يتحد الغامض بالواضح ، والباطن بالظاهر ، ليشكلا معا ، المسافة والافق .

الحلم عند ابي نواس ، شكل آخر للخمرة . انه اليقظة — توحيد بين الاطراف المتناقضة ، وتقضي في الوقت ذاته على التناقض القائم في نفسه . اليقظة هي عالمه الحقيقي الوحيد ، وحين ينام او يحلم ، يستخدم النوم والحلم من اجل ان تكون اليقظة اكثر غنى وتفجرا وسيطرة .

تتخذ اليقظة ، عند ابي نواس شكل المجون . المجون خروج على نظام الاخلاق ، السائد . وكما ان الحلم دخول فيما يحجبه الواقع ، فان المجون دخول فيما يمنعه نظام الاخلاق . وكما ان الحلم يتضمن جدلية النفسي والاثبات ، الهدم والبناء — كذلك يتضمن المجون جدلية الرفض والقبول ، رفض ما هو راهن وقبول ما يتجاوزه . المجون في الواقع ، كالحلم فيما وراء الواقع ، نفي لكل ما ينفي حرية الانسان . كلاهما يمثل النشوة الكاملة .

المجون يظهر ويحرر . وهو يكتسب اهمية خاصة باعتباره طقسا احتفاليا ، اي فعلا جمعييا . والفرح فيه شعبي . اعني انه عام ، فحتي الطبقات الهامشية او الفقيرة تستطيع ان تشارك . انه عيد لكل وليس لاحد . فهو لا يلبي حاجة فردية وحسب ، وانما يلبي كذلك حاجة اجتماعية . انه عيد لا تعاش فيه الحرية الكاملة وحسب ، وانما يعد كذلك بحرية اكثر اكتمالا . انه يعد بما يتجاوز حضارة الامر والنهي — الى حضارة بلا الزام ولا جواز .

يبدأ الشعر ، مع ابي نواس ، ان يكون نظاما اخلاقيا ، وان يكون كذلك طريقا للمعرفة . هذا يعني ان الشعر لا يهدف الى تغيير الحياة وحسب ، وانما يهدف كذلك الى تغيير الانسان . وتكمن جدة ابي نواس ، اذن ، في الكشف عن الطاقات المكبوتة في الانسان ، وفي تجاوز الثنائية بين الذات والكون . ومن هنا ، لا يرفض ابو نواس التقليد الشعري الماضي وحده ، وانما يرفض كذلك التقليد الديني . فالشعر عنده ، من هذه الناحية ، فعل حياتي يعوض عن نقص شامل .

وفي هذا الفعل الحياتي تتلاشى الحدود بين الذاتي والموضوعي . لا يعود ايقاع الحياة متميزا عن ايقاع القلب والدم . يتعانق الخارج والداخل . وكل من يعيش هذه التجربة يشعر انه مكتف بها وبنفسه . لا تعود الدنيا عدوا ، والاخرة هي الصديق ، بل على العكس تصبح الدنيا الصديق الوحيد ، بل تصبح هي والانسان واحدا .

الفرق بين ابي نواس والشاعر التقليدي ، من هذه الناحية ، هو ان هذا الاخير يصدر عن التأمل الذهني ، فيلاحظ ويصف ، بينما يرفض ابو نواس كل معرفة لا تكون معاناة ذاتية وغبطة وشعورا بالتآلف مع الكون . وفي هذا ما يفسر محاولة ابي نواس ان يخلق باللغة السعادة الضائعة . فالصور التي يخلقها ، بدءا من الاشياء المحسوسة الفانية لا تهدف الى وصف هذه الاشياء الخارجية بذاتها ، وانما تهدف الى ان تطيل حركتها الداخلية - كان الاشياء هي التي تكشف عن نفسها في ذات الشاعر . فكل صورة رمز ، والكلمات جزء من حركة النفس ومن حركة الشيء . وهكذا يخلق الشاعر عالما سحريا يسيطر فيه على الاشياء والاخلاق والعادات ، خارج كل قمع او كبت ، سواء كان اجتماعيا او دينيا .

وهذا ما يفسر كيف ان ابا نواس مأخوذ بفعل الخطيئة - او بما يعتبره الناس خطيئة (٤٣) . فمقابل رعب الحياة ، الذي يحيط به ، يريد ان يخلق لطف الحياة - ولا يتمكن من هذا الخلق الا بالخروج على الامر والنهي ، اي بارتكاب الخطيئة . وهو هنا يكشف عن الصلة الحميمة بين ما للجسد وما للروح ، بل يكشف عن ان الجسد شأن روحي ، في المقام الاول . وهو ، في ذلك ، يوحد بين الشعور والاشعور ، بين الرغبات الدنيا والرغبات العليا في النفس . وهكذا يتخلص من ثقل الزمان الموروث ، بان يخلق زمانه الخاص ، الجديد . وان يخلق ابو نواس زمانه الخاص يعني انه يكشف عن جسد المكان الذي يعيش فيه . ويدل على لحظة الجمال في هذا الجسد . وليس شعره الا ثوبا يكسو به هذا الجسد ، تمهيدا للقاء به كما يلتقي العاشق مع حبيبته .

انه يبحث عن العناصر التي تخبئها تقاليد الدين والوراثة ، ويكشف عنها . انه ينفي السرية ويثبت الجهرية .

الاصرار على فعل الذنوب ، كما يعبر ابو نواس ، يعني انتهاكا للمحرم ، ورفضاً لمفهومه . لكن انتهاك ما حرمه الله ، انما هو خروج على الله نفسه . فكل خروج على شريعة الله ، خروج على الله . هذا الخروج يجعل الانسان

مساويا لله ، وشبها به ، فلا يعود يخضع للشرعية لانه يصبح هو نفسه مصدر الشرعية ، فتتعدى الممنوعات ، وتسود الحرية والمشيئة . فالانسان حين يخرق المحرم يتساوى بالله ، لانه يقيم بينه وبين ما يخرقه علاقة التبعية ، حيث يصبح المخروق تابعا ، والخارق متبوعا . وحين يعلن ابو نواس ، قائلا : « ديني لنفسي ودين الناس للناس » لا يفصل عن المفهوم السائد للدين ، وحسب ، وانما يفصل كذلك عن المفهوم السائد لله . غير ان التساوي بالله يقود الى نفيه او قتله . فهذا التساوي يتضمن رفض العالم كما هو ، او كما نظمه الله . والرفض هنا يقف عند حدود هدمه ، ولا يتجاوزها الى اعادة بنائه . ومن هنا كان بناء عالم جديد يقتضي قتل الله نفسه ، مبدءا العالم القديم . بتعبير آخر ، لا يمكن الارتفاع الى مستوى الله الا بان نهدم صورة العالم الراهن ، وقتل الله نفسه ، مبدءا هذه الصورة ، هو الذي يسمح لنا بخلق عالم آخر . ذلك ان الانسان لا يقدر ان يخلق الا اذا كانت له سلطته الكاملة ، ولا تكون له هذه السلطة الا اذا قتل الكائن الذي سلبه اياها ، اعني الله . وبهذا المعنى نفهم كلمة ساد ، التي تقول ما معناه ان فكرة الله هي الخطأ الوحيد الذي لا يستطيع ان يفتقره للانسان ، لانه بخلقه هذه الفكرة رضي بان يكون لا شيء ازاء الله الذي هو كل شيء . كذلك نفهم فكرة قتل الله عند نيئشه .

وفي المجتمع العربي بخاصة حيث تقتزن فكرة الله الكلي القدرة في السماء بفكرة ظله الخليفة او الحاكم الكلي الظلم على الارض ، لا تمكن النورة على هاتين الفكرتين الا بتأسيس فكرة تناقضهما وتجاوزهما في آن : فكرة الانسان الكلي الرفض والكلي الحرية . فلا مجال ، ازاء القيد الكامل ، الا للتخطيط الكامل . الخليفة في المجتمع العربي هو القانون . وكانت علاقته مع رعاياه علاقة سيد بعبد . كان يملك البشر ، كما يملك ادوات قصره ، وكما يملك ثيابه الخاصة . ولذلك لم يكن يدرك معنى ان يخالفه انسان . لان المخالفة تتضمن نفيا له ، ومن ينفي الخليفة كمن ينفي الله : لهذا كان قتل من ينفي الخليفة او ينفي ما يمثله الخليفة ، امرا عاديا يجري كما يجري ، ابسط الامور .

غير ان الانسان الذي يشعر بحريته ، ويريد ان يعيش بملء هذه الحرية ، سيعمل بالمقابل على ان يكون هو نفسه في مستوى الخليفة . يحول الكريه طيبا ، والمحرم حلالا ، والمنفر جذابا . يعكس القيم . يجرب كل شيء ، يعاني كل شيء - لكي يثبت انه لا يحيا تحت رحمة اي شيء . كانه يعلن : لن تعرف

شيئا اذا لم تعرف كل شيء ، وهو يعرف انه قد يقدم نفسه ثمنا لذلك ، لكنه يستقبل الموت بالفرح نفسه الذي يستقبل به ملذاته . ذلك انه يتساوى عنده ، بفضل امتلائه بالحرية ، الحياة والموت . بل انه قد يفرح بالموت اكثر من فرحه بالحياة نفسها .

ذلك انه لا يفرح بممارسة المسموح ، بقدر ما يفرح بممارسة الممنوع . فخرق الممنوع او المحرم يولد فوضى الفبطة - الفوضى التي هي وعد بنظام لا تمتع فيه . وليس الموت الا تنويجا لهذه السلسلة من اللذائذ التي تولدها الفوضى . ليس الا جزءا من الهدف الذي يمارسه . فحتى الموت لا يقدر ان يفره عن نفسه .

والانسان الذي يعيش في مجتمع قمعي يشعر انه ميت قبل موته الطبيعي . فاذا تمرد او ثار لا يشعر انه يفقد شيئا ، بل على العكس يشعر ، انه يتحرك ويحيا - ولذلك يشعر انه يربح الحياة نفسها حتى حين يموت .

طبيعي ان يتجاوز الانسان الذي يعيش هذه التجربة ، احكام المنطق العادي ، ويدخل في عالم يرفض الاحكام التي تكبحه ، سواء كانت اجتماعية او دينية . ويكون جموحه قويا بقدر ما يكون الكبح قويا . ففي عالم يفلق الابواب كلها في وجه الحرية ، يكون الجموح ، بالضرورة ، فوضى . فالفوضى في مثل هذا العالم هي وحدها التي تفتح ابواب الحياة . وهكذا يكون المجنون تعويضا عن غياب الحياة . بل يصبح هو نفسه الحياة .

يقول الماخن : في عالم يقيدني ، لا بد ، لكي اوجد ، من ان افعل ما يلد لي . و « ما يلد لي » يتجاوز التقاليد كلها ، اي يتجاوز القانون . وبما ان القانون فوق كل شيء ، فان من يشعر حقا بحريته ، يشعر ان القانون يضطهده حتى حين يخدمه . ومن هنا كان رفض التقاليد ، شرائع كانت او عادات ، شكلا من اشكال الامل بنظام آخر ينتفي فيه القمع بشتى انواعه . وفي مثل هذه اللحظات تكون سيادة الفوضى اكثر اهمية من سيادة النظام ، لان سيادة الفوضى هنا انما هي سيادة لقانون الحرية الفطرية ، على قانون الحرية الوضعية .

هكذا يخرج ابو نواس الشعر من اطار العلاقة مع الله واشيائه الى اطار العلاقة مع العالم واشيائه . وهو ، بذلك ، يخرج اللغة من مهدها الالهى

ويقذف بها في طين الجحيم اليومي ، او الجنة اليومية . ومن هنا تشفير عنده الصورة التقليدية للزمان والمكان . والمكان للفرد ممر او جسر هش . صحيح . لكن ليس من اجل ان يعبر عليه الانسان الى الآخرة كما يعلم الدين ، بل لكي يتخذ الانسان منه الاطار الكامل ، لحضوره على الارض . والانسان ضيف عابر على الارض : صحيح هذا ايضا . لكن لا لكي يعني هذا ، ان يتقلص الانسان مسافرا في وهم دار ثانية يقيم فيها الى الابد ، كما يعلم الدين ايضا ، بل لكي يعني ان كونه ضيفا فرصة الوجود الوحيدة ، لكي يعيش حياته بملء كامل . وصحيح ان كل ما على الارض يؤكد موت ما على الارض ، لكن هذا ليس لكي نزهد ونرفض ، بل ، على العكس ، لكي نزداد احتضانا لهذه الارض الطيبة ، وانغراسا في سريرها الطيب الذي يقلب الموت بان يجعل كل شيء يتحرك حوله وينتعش . انه يؤخر مجيء الموت ، يؤخره باستمرار ، حتى نشعر ان الموت لا يجيء ابدا . انه يظهر لنا العالم ، الزائل بطبيعته ، انه شيء آخر غير الزوال — انه العلامة على حياة لا تنتهي ، اي العلامة على الفعل الذي فصلنا عن الموت .

ان يحقق الانسان البراءة بالخطيئة نفسها، والدين بالمجون، وان يحطم الفيود والقوانين ، معلنا شرع الحرية : ذلك هو ما يطمح اليه ابو نواس . واذا كان لنا ان نختار بين متدين تضعه الحرية في مازق ، وماجن يتخذ من هذا المازق مخرجا ، فاننا نختار الثاني ، لانه يعرف من الحقيقة اكثر مما يعرف الاول ، اعني انه اكثر قدرة على ان يساعد في تحرير الانسان .

IV

اذا كان ابو نواس انطلق من اولى التجربة ، فان ابا تمام (٤٤) انطلق من اولى اللغة الشعرية . كان يريد ان يبدأ من كلمة اولى ، قبل القصائد المتراكمة في التاريخ الشعري الذي سبقه : كلمة اولى يبدأ بها الشعر . ومن هنا الحاجه الدائم على ان القصيدة تكون عذرية او لا تكون ، حتى انه يشبه ابداع الشعر ، اي خلق العالم باللغة ، بخلقه جنسيا — بالفعل الجنسي . فلقاء الشاعر والكلمة هو كلقاء زوجين عاشقين (٤٥) . ويعني ابو تمام بالعذرية ان شعره ابتكار لا على مثال ، ولذلك يمتنع من على غيره . ومن هنا يخدع الآخرين ، فهو بسيط بساطة الخلق الالهي ، لكنه صعب الا على الخالق ، لا من حيث ابداعه وحسب ، بل من حيث تدوقه كذلك . فتذوق الابداع ، شأن

الابداع ، ممارسة او هو ، كما يعبر ابو تمام ، شكل من اشكال افتراع العذرية (٤٦) .

شعر ابي تمام ، في هذا المنظور ، انسي وحشي في آن (٤٧) : تأنس به القلوب لانها تتجدد به ، لكنه في الوقت ذاته يستعصي على من يقلده ، فاذا اراد الشعراء ان ياتوا بمثله تعذر عليهم لغرابته (٤٨) . فشعره يصدر عن « ضمير صنع » وهو يتدفق كماء اصلي لا يعرف النضوب . مع ذلك يرى ان ما يطمح الى كتابته لم يحققه بعد . فعلى الرغم من انه يبدع باستمرار، فانه يستقل ما ينجزه ، لانه يشعر ان طاقته كامنة فيما لم ينجزه بعد (٤٩) .

بهذه العذرية يتحدث ابو تمام مثلاً عن المطر ، فيقول :

مطر يدوب الصحو منه وخلفه	صحو ، يكاد من النضارة يمطر
غيثان فالانواء غيث ظاهر	لك فعله ، والصح غيث مضمّر
وندى اذا ادهنت به لم الثرى	خلت السحاب اثاره وهو معدر

الكلمة هنا لا تتناول من الشيء مظهره ، وانما تتناول جوهره . وهكذا يبدو انها تنفيه فيما تشبهه ، وانها تنفيه فيما تظهره . فكما ان الكلمة بداية، يريد ان يكون ما يطبقها في العالم او الطبيعة بداية هو كذلك . فالكلمة العذراء تقتضي شيئاً بكرة . ثمة تطابق بين بكرة الكلمة وبكرة العالم — والشعر هو التطابق او زواج الكلمة البكر بالعالم البكر . هذا الزواج اتحاد حيوي من جهة ، وتحويلي من جهة ثانية . الكلمة اذن لا تعكس اشياء العالم ، بل تعيد خلقها . انها تخلق العالم على طريقتهما ، مجازيا .

من هنا كانت الكلمة عند ابي تمام اكثر من مادة صوتية ، فكل كلمة تكشف عن شكل خاص من الوجود ، بالاضافة الى انها تكشف عن شكل خاص من الايقاع . انها بنية عضوية تصل بنيويها بين ذات الشاعر واشياء العالم . وهذا يعني ان الكلمة تحتضن من الشيء فعاليتها ، فابو تمام لا يريد بهذه الابيات ، مثلاً ، ولا بشعره المائل ان يردنا الى سرير الطبيعة ، او ان يرينا لنا جسدها ، وانما يريد ان يدفعنا لكي نرى اشياء الطبيعة في اندفاعها وتفجرها الاصليين ، او في بكارتها . وهكذا يقيم علاقة جديدة بين الانسان وبينها ، وبالتالي ، بين الانسان والانسان . وحيث تقوم علاقة جديدة تزول الثروة القديمة وتزول المجانية التي ترافقها . وهكذا تدخل الى الكلام شرارة لغوية جديدة ، هي شرارة الشعر الذي يعيد كل شيء الى بدايته الاصلية .

الجديد اذن ، غريب . وتعني الغرابة ان شعره غير ما الفه الناس .
 فلفته اصلية ، اولية ، ولغة الناس ليست الا صدى ساقط لهذه اللغة
 الاولى . لكن هذا السقوط منفرس في النفس الى درجة تبدو معها الغرابة
 انها تأسيس للغة جديدة . وكل تأسيس يبدو تجاوزا ، وقد سمي هذا
 التجاوز « افسادا » ، وقيل ان كان هذا التجاوز صحيحا ، كان « ما قاله
 العرب باطلا » . ومن هنا لا تعيدنا لغة ابي تمام الى « جنة ضائعة » وانما
 يخلق لنا بعدا آخر نستشف عبره جنة ثانية . وحين نقرا شعره لا يتولد فينا
 الشعور باننا نتذكر او نستعيد شيئا فقدناه ، بل يتولد فينا الشعور باننا
 نؤسس شيئا آخر . ولئن حافظ ابو تمام على الشكل الخارجي لبنية القصيدة
 التقليدية ، فلقد غير نواته الاساسية : الكلمة ، وغير علاقات الكلمة ، الصوتية
 والدلالية . ولهذا لم يعد الشكل عائقا دون بروز هذه العلاقات ، بل اصبح ،
 على العكس ، عنصرا ضديا ، يزيد في بروزها ، فلقد فجره من داخل ، بتركيبه
 اللغوي الجديد .

القافية نفسها اكتسبت بعدا آخر ، ومعنى آخر . صارت نقطة ينتهي
 اليها سرب الكلمات في البيت . صارت مصبا لاندفاع ما ، مركز تجمع لحشد
 ما ، بؤرة ايقاع وتنغم . فهي مركز جذب للكلمات والصور ، وقطب تنعقد
 فيه الاشعة التي تنبعث منها . القافية تذكر وتحرض . تصل الايقاع بما
 مضى ، وتعد بايقاع آت . انها سفر وانتظار في آن .

ان ابا تمام يخلق في اللغة حيوية مستقلة ، وشعره يحرك بدءا من ذاته ،
 من اكتفائه بذاته ، ولا يحرك بموضوعه او بأي عنصر خارجي . ان فعل شعره
 يتوالد من طاقته اللغوية الخاصة . ان شعره فعال بذاته . اذا كان شعر ابي
 نواس يحرك بدافع مما قبل اللغة او مما وراءها ، فان شعر ابي تمام يحرك
 بلغته ذاتها — بما تكونه من تداعيات وعلاقات صوتية وتخيلية .

كان العالم يموت في دلالات العرف والعادة والتقليد ، فانبعث ، بشعر
 ابي تمام ، في دلالات جديدة . وهكذا اتخذ جسدا آخر ، وبعدا غير مألوف .
 لم تعد القصيدة هيكلًا يعلو في مكان ، بل اصبحت حركة زمنية — تتقدم في
 الزمان لحظة تثبت عالية في المكان .

كانت القصيدة قبله سطحا يمتد افقيا ، فصارت معه بنية عمقية .
 وهكذا انفجر السياق القديم للمعاني . لم يعد خطيا ، وانما اصبح السياق

الجديد يقدم للقارئ معنى متعددًا - أي إمكانية متنوعة لأكثر من معنى . ومن هنا منشأ القموض . فالقموض نتيجة لاهتزاز الصورة الثابتة في نفس القارئ لعلاقة الدال بالمدلول . وهو اهتزاز اعطى للقارئ انطباعا بان ابا تمام افسد وابطل ما كان صالحا ، ودعا الى فوضى ، اي الى ما لا يفهم . لكن ابا تمام كان يؤسس بافساده هذا ، اي في احلاله احتمالية المعنى ، محل يقينيته ، مبدأ اساسيا من مبادئ الشعر .

واذا كانت الكيمياء كما يعرفها جابر بن حيان « اعطاء الاجسام اصباغا لم تكن لها » (٥٠) ، فان بداية كيمياء الشعر هي « اعطاء الكلمة معنى لم يكن لها » . وهذا ما فعله ابو تمام .

V

لعل التحول الاساسي الذي حققه ابو نواس وابو تمام في اللغة الشعرية ، يكمن في الخروج من التعبير الطبيعي الى التعبير الفني ، اي في الخروج من الحقيقة الواقعية الى التخيل المجازي . وكان من اللازم ان يؤدي ذلك الى تحول في النقد ، مما لم يحدث . وفي هذا يكمن جانب كبير من قصور النقد ، في القرن الثالث الهجري ، عن مستوى الابداع . فقد استمر النقد القائم على اللغة الشعرية القديمة ، اي على اساس الصدق والكذب ، وهو ، في صميمه ، نقد اخلاقي . ومن هنا كان هذا النقد يؤثر الشعر الذي يكون فيه المعنى على قدر اللفظ ، دون مجاز او تخيل . وهذا مما ساعد في استمرار نمطية الشعر ، وقلبيته ، وتجميده ضمن اطر محدودة . ويعني ذلك ان النقد السائد كان يقيم الشعر لغويا لا بيانيا ، متأثرا بالقرآن - الكلام الالهي الذي لا يجوز فيه المجاز ، او الذي يكون الاسم ، بمقتضاه هو المسمى كما يعبر الباقلائي عن ذلك خير تعبير (٥١) . فهذا النقد يندرج في الاتجاه الذي كان يأخذ بظاهر القول في القرآن ، ويستبعد التأويل ، مكثفيا من الاستعارات والتشبيهات القرآنية بمعناها القريب . ويعود هذا الاتجاه الى ان كثيرا من هذه الاستعارات والتشبيهات تتعلق بذات الله ، او اصول العقيدة بعامة ، وحين ننظر اليها مجازيا ، او حين نؤولها فقد يوصلنا التأويل الى ما يناقض المعنى الظاهر . لهذا اكتفى اصحاب هذا الاتجاه بالمعنى الظاهر ، وحين يواجهون مجازا كانوا يأخذون المعنى الأكثر قربا من المعنى الظاهر ، وقد ادى هذا الموقف الى اعتبار اللغة الفاظا لها دلالات واضحة محددة . وهو الموقف ذاته الذي تبناه اصحاب

مذهب « الاوائل » من الشعراء والنقاد .

وكان للاعتزال الدور الاول في ابراز المجاز والتوكيد على اوليته ، بنفيهم كل تشبيه وتجسيم . فالمجاز هو الشكل الشعري للتأويل الذي هو المدول عن المعنى الاصلي للفظ ، او عن معناه الظاهر . وهكذا اكد الاعتزال البحث عن المعنى الاخر للالفاظ ، عن معناها البعيد ، لا المباشر القريب . ومن هنا فتح المجاز مجال التخيل ، متخطيا بذلك مسألة الصدق والكذب ، فاصلا بين الاسم والمسمى بحيث تمكن تسمية الشيء باسم غيره اذا قام مقامه ، معطيا ابعادا جديدة غنية للمعنى وللتعبير في آن .

كان الوصف الطريقة الفنية الغالبة قبل ابي نواس وابي تمام ، وبدءا منهما اخذ المجاز يحل محل الوصف . الغاية من الوصف هي الشرح والايضاح ، هي ، بتعبير آخر ، البيان . والوصف تدرجي ، فهو تأليف يجمع عناصر الشيء ، بحيث يبرز خاصيته ، بواسطة احكام صفاته المعروفة : شكله ، لونه ، وضعه ... الخ .

لكن المجاز فوري ، فجائي ، خاطف – يتناول الشيء بمقارنته بشيء آخر ، يشبهه جزئيا او كليا .

وفي حين يبني الوصف الشيء بأناة واحكام ، فان المجاز يتناوله خطفا ، ويوحى بان قيمته ليست وصفية . فالمهم في المجاز ليس الشيء بذاته ، بل العلاقة التي تقوم بينه وبين شيء آخر ، والصفة المشتركة الناشئة عن هذه العلاقة ، والمعنى الذي ينبثق عنها .

مهمة الوصف نقيض لمهمة المجاز : الوصف ينشئ شيئا او موضوعا موجزا ، ومعنى مسهبا (يوجز الشيء ويسهب في معناه) . اما المجاز فيبرز شيئا مسهبا ، ومعنى موجزا . فهو ليس زخرفا يعطي للاستلح لونه وحيويته ، وانما هو موقف اساسي يميز معنى ما .

من هنا يكون المعنى في المجاز احتماليا ، لانه يولد المعاني ولا يتلقاها . واذا كان المعنى احتماليا ، فان لكل شيء عددا لا نهاية له من المعاني . وهذا يكشف عن ان الانسان لا يستطيع ان يعرف من الاشياء الا صورا ، وعن ان الانسان ذاته والاشياء كلها صور من جوهر لا يعرف او لا يمكن ان يعرف معرفة كاملة . فكل مجاز ، بهذا المعنى ، يكشف عن تحول . فالشاعر حين يعبر

مجازيا عن العالم ، لا يحول العالم الى صورة وحسب ، وانما يتحول معه كذلك . وهكذا تكون الكتابة المجازية علامة على حياة مليئة ، على العكس من الكتابة الواقعية التي هي علامة على حياة فارغة . فان نستخدم المجاز هو ان نؤكد غنى الحياة ولا نهايتها ، وان نرفضه هو ان نقدم المفاهيم والافكار المجردة ، اي هو ان نؤكد فقر الحياة ومحدوديتها . ويعني استخدام المجاز ، تبعا لذلك ، استخدام اللغة باخص خصائصها ، مما يحو التعارض بين العقل والخيال ، بين الواقع والحلم ، وبين الرصانة واللعب . وهكذا يدخلنا المجاز في انخطاف خارج الذات ، في نشوة توحدنا بلا نهاية العالم . فخاصية الوعي في المجاز هي ان يعيش الواقع كدال ، كعلامة لواقع آخر يدل عليه . والواقع الاخر ليس معطى هنا والان ، وانما هو احتمالي او تخيلي .

ان خاصية المجاز ، بتعبير آخر ، هي ان يصرف الانتباه عن الحرف وعن الظاهر ، الى الروح والباطن . انه يهيئنا دائما لمستقبل جديد آخر ، ويفرينا بالمغامرة والرجاء ، متغلبا على بقاء الزمن ، واعدا بان مصيرنا الحر الفرح هو في هذا المجيء الذي لا ينتهي .

ان رفض المجاز هو رفض لجوهر الشخصية ، حتى انه يمكن القول ان شعرا بلا مجاز شعر بلا شخصية ، وحتى يمكن القول ان الانسان حيوان مجازي . فليس المجاز ، في جوهره ، الا الحركة التي يحاول بها الانسان ان يحول العالم ، وان يجعله على صورته .

ومن هنا ندرك السر في الحاح ابي نواس وابي تمام على ربط الشعر بالسحر من حيث انه رمز لطاقة التحويل ، وفي كونهما ينشئان « فنا شعريا » يقوم على الكشف عما لا يتناهى . ولا نجد ما يعبر عن هذا الفن الشعري افضل من ابيات لابي نواس نختم بها ، هي التالية :

من ظنوني ، مكذب للعيان	غير اني قائل ما اتاني
واحد في اللفظ ، شتى المعاني	أخذ نفسي بتأليف شيء
رمت ، رمت معي المكان	قائم في الوهم حتى اذا ما
من أمامي ليس بالمستبان	فكأنني تابع حسن شيء

فالشعر هو الكشف عما وراء العيان ، او هو تحول يتبع حركة ما يبقى عصيا على الكشف .

القسم الثالث

جدل الاتباع والابداع

١٥ القديم والامحدث

الفصل الاول

في معنى القديم ومعنى المحدث

I

يستند تأصيل الثبات أو الاتباع الى مفهومين اساسيين : مفهوم « القديم » ، ومفهوم « السنة » . وثمة اربعة معان في جذر كلمة « قديم » :

- ١ - **السبق** ، من قدم يقدم اي سبق .
- ٢ - **مضي زمن طويل** ، من قدم الشيء يقدم ، اي مضى على وجوده زمن طويل ، والقدم هو الزمان القديم .
- ٣ - **ما ينافي الحدوث** ، فالقدم ضد الحدوث ، والقول بقدم العالم يعني ان العالم ازلني لا علة لوجوده .
- ٤ - **القصد والمجيء** ، يقال قدم الى الامر اي قصد له ، ويقال **القادم** ، اي الذي يأتي بعد الحاضر .

غير ان القدم في اللغة غير القدم في الاصطلاح الكلامي او الفلسفي . فكل ما تقدم على غيره يسمى في اللغة قديما ، وان كان بعد ان لم يكن ، اي وان حدث بعد ان لم يكن حادثا . والقديم في الاصطلاح الفلسفي او الكلامي هو الذي لا اول له ، او هو الذي يكون علة ذاته (١) .

ثم ان لفظة « قديم » في القرآن تشير الى ما مضى ، زمنا ، ولا تشير الى معان فلسفية او دينية او فنية ، وهي تتضمن غالبا ، دلالة سلبية (٢) .

غير ان للدلالة التي غلبت على لفظة « قديم » ثلاثة ابعاد : بعدا لغويا ، هو السبق والاولية ، وبعدا دينيا - فلسفيا هو انعدام السبق والاولية ، وبعدا قيميا هو الكمال . وكان القدم في الاصل صفة لذات الله ، وحدها ، ثم جوز الفلاسفة وصف العالم كذلك ، بالقدم وبدءا من الجدل حول القرآن ، اهو قديم ام مخلوق (محدث) ، بدات صفة القدم تطلق على الشعر المتقدم بالزمان ، وكان يشار بذلك الى الشعر الجاهلي وشعر القرن الاسلامي الاول . واخذ المدافعون عن هذا الشعر يضيفون عليه خصائص القدم ، بالمصطلح الديني - الفلسفي ، وفي طبيعتها ، الثبات والكمال .

وقد تلاقى المصطلح اللغوي للفظ « القدم » والمصطلح الديني - الفلسفي ، في القرآن . فالقرآن « قديم » من حيث انه معجز لا يقدر الانسان « الحادث » ان ياتي بمثله ، ومن حيث انه كلام الله ووحيه المنزل ، ومن حيث ان فيه ما لا يعلم تأويله الا الله (٣) ، وفي النقطة الاخيرة سر النهي عن ان يستخدم الانسان رايه في تفسير القرآن . ففيه ما لا يمكن الوصول الى علم تأويله الا ببيان الرسول . ولذلك لا يجوز لاحد ان يقول فيه اي شيء الا استنادا الى بيان الرسول ، اي الى تأويل الرسول له بنص او بدلالة (٤) . ومن القرآن ما لا يعلم تأويله النبي نفسه ، ولا يعلمه الا الله . « وذلك ما فيه من الخبر عن آجال حادثة واوقات آتية ، كوقت قيام الساعة والنفخ في الصور ونزول عيسى بن مريم » (٥) . وحين كان النبي يذكر شيئا من ذلك كان يدل عليه باشرطه ، دون تحديده بوقت (٦) . وكل ما يستطيع الانسان الذي نزل القرآن بلسانه ، اي العربي ، ان يعرف تأويله هو « اعيان المسميات باسمائها اللازمة غير المشترك فيها والموصوفات بصفات الخاصة ، دون الواجب من احكامها وصفاتها وهيئاتها التي خص الله بعلمها نبيه . . . » (٧) ، فمن يسمع مثلا او يقرأ هذه الآية : « واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون ، الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » (البقرة : ١٢) . « لم يجهل ان معنى الافساد هو ما ينفي فعله مما فعله منفعة ، وان جهل المعاني التي جعلها الله افسادا والمماني التي جعلها الله اصلاحا » (٨) . ويروى عن ابن عباس انه قال : « التفسير على أربعة اوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر احد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه الا الله » (٩) . وفي هذا المعنى يروى حديث عن النبي يقول : « أنزل القرآن على أربعة احرف : حلال وحرام لا يعذر احد بالجهالة به ، وتفسير يفهمه العرب ،

وتفسير يفسره العلماء ، ومتشابه لا يعلمه الا الله ، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب » (١٠) .

ومن هنا النهي ، كما اشترت ، عن تأويل القرآن استنادا الى الراي الشخصي . ففي حديث عن النبي انه قال : « من قال في القرآن برأيه ، فليتبوا مقعده من النار » (١١) . وفي رواية ان ابا بكر الصديق يقول : في هذا الصدد : « اي ارض تقلني ، واي سماء تظلني ، اذا قلت في القرآن برأبي او بما لا اعلم ؟ » (١٢) . ولا يقف الامر عند هذا الحد ، وانما يتجاوز الى التوكيد على ان من يقول في القرآن برأيه ، فانه مخطيء وان اصاب ، ذلك ان اصابته ليست اصابة موثق انه محق ، وانما هي اصابة خاوص وظان » (١٣) . ومن يبحث في دين الله او يقول بالظن فانه يقول على الله ما لا يعلم ، وهذا مما نهى عنه الله وحرمه (١٤) . وفي هذا المعنى يروى عن النبي انه قال : « من قال في القرآن برأيه فاصاب ، فقد اخطأ » (١٥) ، اي اخطأ في فعله او في قول رايه وان كان هذا الراي عين ما يقصده الله ، لان هذا الراي لم يصدر عن عالم بان ما قاله انما هو حق وصواب وانما يقول ما لا يعلم ، أي انه يرتكب انما بفعل ما نهاه الله عن فعله . واذا كانت في القرآن آيات تحث على تفسيره والاعتبار بأمثاله ، فانها تحث على تفسير او تأويل ما لم يحجب عن الانسان تأويله (١٦) .

ويلخص الطبري وجوه تأويل القرآن في ثلاثة : وجه لا سبيل الى الوصول اليه ، وهو الذي استأثر الله بعلمه ، وحجب العلم به عن الناس كلهم ، ووجه خص الله النبي بعلم تأويله ، وحده ، دون سائر امته ، ووجه يقوم بتأويله أهل اللسان الذي نزل به القرآن ، وهو « علم تأويل عريته واعرابه » (١٧) . ومن هنا ضرورة اتباع السنة في تفسير القرآن . فالنبي اصدق المفسرين ، وهو اكملهم في الفهم والاحاطة ، ولهذا كان المصدر الاول لكل ما يحاول ، بعده ، هذا التأويل . ويتمثل هذا المصدر في اخبار النبي الثابتة عنه ، اما من ناحية « النقل المستفيض » ، او من ناحية « نقل العدول الاثبات » ، او من ناحية « الدلالة المنصوبة على صحته » (١٨) . وشرط كل مفسر ، بعده ، ان يعتمد في ما اتيح له علم تأويله ان يكون واضح البرهان « فيما ترجم وبين مما كان مدركا علمه من جهة اللسان » اما بالشواهد من اشعار العرب السائرة واما من منطقهم ولغاتهم المعروفة ، وان لا يخرج في تفسيره وتأويله « عن اقوال السلف من الصحابة والائمة والخلف من التابعين وعلماء الامة » (١٩) .

القديم ، بهذا المعنى ، هو « الصراط المستقيم » ، اي هو الطريق الواضح الذي لا امواجاج فيه ، او هو طريق الحق . ويكون تأويل معنى الآية : « اهدنا الصراط المستقيم » (الفاتحة : ٦) ، « وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من انعمت عليه من عبادك من قول وعمل » (٢٠) . ويؤول الصراط المستقيم بأنه القرآن ، او الاسلام ، او الدين الذي لا يقبل الله غيره وهو الاسلام (٢١) .

والقديم اذن هو الاصل الذي يبنى غيره عليه ، اي هو ما يحتاج اليه ، على النقيض من الفرع الذي يحتاج الى غيره . وكون القديم أصلاً يؤكد تفسير الفقهاء لكلمة أصل . فقد وضعوا لها اربعة معان اصطلاحية تناسب المعنى اللغوي : المعنى الاول هو الدليل . يقال ، مثلاً : الاصل في هذه المسألة الكتاب والسنة . والاصل ، بالمعنى الثاني ، هو القاعدة الكلية ، اي هو قضية كلية من حيث اشتمالها بالقوة على جزئيات موضوعها : الفروع والتفريع . والمعنى الثالث للاصل هو الرجحان ، اي الاولى والاخرى يقال ، مثلاً : الاصل الحقيقة . والمعنى الرابع هو الاستصحاب ، يقال ، مثلاً : تعارض الاصل والظاهر (٢٢) .

والقديم يمثل ، والحالة هذه ، « عهد الله » (٢٣) ، اي « وصية الله الى خلقه » ، وامرهم اياهم بما امرهم به من طاعته ، ونهيهم اياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسوله » (٢٤) .

II

للدن الاسلامي ، كما هو معروف ، اصول اربعة : القرآن ، وهو الاصل الكلي الاول ، والسنة وهي الاصل الثاني، المبين المفصل، والاجماع، واخيرا الاجتهاد او الراي .

وليس القرآن والسنة مصدرين للدين ، بالمعنى الحصري ، وحسب، وانما هما كذلك مصدران للثقافة بالمعنى الواسع للكلمة ، ومقياسان لصحة الفكر . وهذا يعني أن كل ما يأتي بعدهما انما هو تفريع منهما او بناء عليهما او استمداد منهما . واذا كان للعقل من دور ، في هذا الامر ، فهو الانطلاق اولا من التسليم بالقرآن والسنة تسليماً مطلقاً ، وهو ، ثانياً ، التعرف الى مقاصدهما ، الظاهرة المباشرة ، والتعرف من ثم ، بدءاً من هذا

الظاهر ، الى ما وراءهما . وهو ، ثالثا ، استنباط الاحكام التي لم يرد نص فيها ، في ضوء الاحكام التي ورد نص فيها . فالعقل آلة لفهم المعطى وشرحه .

وكان اللجوء الى العقل في عصر النبي محدودا ، لان الوحي كان ما يرال مستمرا ، ولان النبي نفسه كان مرجع الناس ، في شؤون دينهم ودنياهم ، فيجيب عن مسائلهم بالنص القرآني ، او بوحي يوحى اليه ، او باجتهاد منه . وقد نشأ حول اجتهاده تساؤل عن امكان الخطأ فيه . لكن ثبت ان النبي لا يخطئ في كل ما يتصل بمبادئ الشرع وأحكامه ، لكن يمكن ان يخطئ فيما يتصل بغيرها ، اي في شؤون الدنيا ، كشؤون الزراعة والتجارة والصناعة (٢٥) .

والسنة النبوية هي التبيان الاول لما جاء في القرآن من الكلي المجمل ، والتطبيق الاول لما جاء فيه من المحكم (٢٦) . ولهذا كانت « بسطا مختصرة ، وتفصيلا لمجمله ، وبيانا لمشكله » (٢٧) ، فالسنة « مبينة للقرآن » ، وهي ثلاثة انواع : قول ، وفعل ، واقرار . فالقول ما نطق به الرسول ، والفعل ما حققه وهو « ابلغ في باب التناسي والامثال من القول المجرد » ، والاقرار هو « ما رآه او سمع به النبي فاقره » (٢٨) . ومن هنا كانت السنة اصلا نائيا للحكم والحقوق ، وسواء كانت السنة تفريعا على اصل في القرآن ، او شرحا لامر كلي فيه ، او اقامة لقواعد جديدة - فانها كلها مستمدة من القرآن .

والسنة ، في اللغة ، هي الطريقة المسلوكة سواء كانت حسنة او سيئة (٢٩) . يقال : سننت الشيء بالسن اذا امرته عليه حتى يؤثر فيه سنا ، اي طريقا . ويرى الكسائي ان السنة معناها الدوام .

والسنة ، في الفقه ، هي ما يقابل البدعة . وتعرف ، شرعا ، بأنها « ما صدر من النبي من قول (الحديث) او فعل او تقرير » . وهي ، بهذا التعريف ، احد الادلة الشرعية الاربعة .

ولا خلاف على صدق السنة ، وانما يختلف في اطلاقها : هل تقتصر على قول النبي وفعله وتقريره ، ام تشمل اقوال الصحابة وما فعلوه وقرروه ، كما يرى الشاطبي ، وتشمل ما يصدر عن الائمة المعصومين من قول وفعل وتقرير ، كما يرى الشيعة ؟ (٣٠) .

غير ان الدخول في تفاصيل هذا الخلاف خارج عن نطاق ما نذهب اليه .
لذلك نكتفي بالتوكيد على ما لا خلاف فيه ، وهو ان السنة اصل من اصول
الاسلام . فهي الاصل الثاني ، بعد القرآن ، و « لولاها لما اتضحت معالم
الاسلام ، ولنعطل العمل بالقرآن ، ولما امكن ان يستنبط منه حكم واحد ،
بكل ما له من شرائط ومواضع » (٣١) . ولهذا فان رفض السنة او التنكر
لها ، بحجة الاكتفاء بالقرآن ، انما هو تنكر « لاصل الاسلام وهدم لاهم
معالمه وركائز العملية » (٣٢) .

وتمة احاديث كثيرة ، للنبي والصحابة ، تدور حول ضرورة المحافظة
على السنة ، والتمسك بها (٣٣) . ويستدل على ذلك او على ما يسمى
بحجبها ، بآيات من القرآن (٣٤) ، ويستدل كذلك بالاجماع (٣٥) ،
وبالسنة نفسها ، وبالعقل (٣٦) .

وقد تسباين وجهات النظر في طبيعة الصلة بين السنة والقرآن ، من
الوجه التشريعية : اهي اصل تشريعي مستقل عن القرآن ، ام هي مجرد
توضيح للاصول القرآنية ، وهي لذلك غير مستقلة عنه ؟ (٣٧) . غير ان
هذا التباين لا يتناول صحة السنة والالتزام بها ، وطاعتها ، وكونها حجة
على الامة جمعاء ، كما اشرت سابقا . ويلخص صبحي الصالح هذه المسألة
بقوله : « فللسنة ان تنفرد في التشريع حين يسكت القرآن عن التصريح ،
ولها ان تقوم بوظيفة التباين حين يترك لها التفصيل والتوضيح » (٣٨) .

ونظرا لتفاوت الصحابة في العلم والفهم ، كان من الطبيعي ان ينشأ
تفاوت او اختلاف في علمهم بسنة الرسول وفهمها ، وان ينشأ تبعا لذلك
تفاوت في مدى التوافق بين السنة من جهة ، واجتهاد كل منهم واستنباطه
في الاحكام التي يواجهها من جهة ثانية . وفي هذا اساس نشأة المذاهب .
وقد اجمع اصحابها على وجوب العمل بالسنة وتقديمها ، حيث ثبتت
صحتها ، على القياس والنظر ، وكانوا يرجعون ، حين تختلف الاحاديث
في مسألة ما ، الى اقوال الصحابة ، الاقرب عهدا بالنبي (٣٩) .

وعلى الرغم مما قيل عن الامام ابي حنيفة من انه يقدم القياس والنظر
على النص ، فانه لم يقدمهما الا حيث كان يرى ان النص موضع شبهة ،
لا يمكن الاطمئنان اليه (٤٠) .

وتجدر الإشارة هنا الى ان السنة اعم من الحديث النبوي ، لانها تشمل الفعل والقول والتقرير ، والحديث مقصور على القول . لكن « القول اقوى في الدلالة على التشريع من الفعل ، لاحتمال الفعل اختصاصه » ، بالنبي ، « والفعل اقوى من التقرير لان التقرير يطرقه من الاحتمال ما لا يطرق الفعل ، ولذلك كان في دلالة التقرير على التشريع خلاف العلماء الذين لا يخالفون في تشريع الفعل » (٤١) .

ويقترن مفهوم السنة بمفهوم الجماعة . وبدا هذا الاقتران منذ بدأ مفهوم السنة يأخذ ، الى جانب شكله الديني ، شكلا اجتماعيا - سياسيا . واقترن ، تبعا لذلك ، الانشقاق على الجماعة بالانشقاق على السنة نفسها . وسمي الانشقاق حدثا او بدعة . والنبي نفسه ، فيما يروى ، هو اول من اطلق هذا الاسم : الحدث ، على كل خروج عن الجماعة او السنة . ففي الحديث انه قال : « من احدث في المدينة حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين » (٤٢) . ويقول صبحي الصالح ان في هذا الحديث « ايماء الى براءة الله ورسوله من كل منشق على الجماعة ، خالع يد الطاعة ، مؤثر البدعة على السنة » (٤٣) ، ويقول ان الحدث هنا مرادف للبدعة .

ثم اتسع النهي عن احداث الحدث في المدينة ، دار السنة ، فصار نهيا شاملا عن احداث الحدث في ديار الاسلام كلها . وهذا ما صاغه النبي في قانون شامل فقال : « شر الامور محدثاتها » (٤٤) ، وقال : « من احدث في امرنا هذا ما ليس فيه فهو رد » (٤٥) .

والنهي عن الحدث او البدعة يعني تمسكا بالسنة والجماعة . وكان هذا التمسك يزداد تبعا لازدياد الخوف من احداث الحدث . وكما رويت للنبي احاديث عن التمسك بالسنة ، رويت كذلك احاديث عن التمسك بالجماعة (٤٦) . وساد روح التمسك ، بالجماعة والسنة حتى أصبح الاب ينصح ابنه قائلا : « يا بني ، اياك والحدث » ، وحتى أصبح الدفاع عن النفس يتكرر في هذه الصيغة : « ما احدثت في الاسلام حدثا ، ولا اخرجت من طاعة يدا » (٤٧) .

ولارتباط السنة بالجماعة ، شكل آخر هو ارتباطها بالامة . ويرى الطبري ان « اصل الامة الجماعة تجتمع على دين واحد ، ثم يكتفي بالخبر عن الامة من الخبر عن الدين لدالتها عليه ، كما قال جل ثناؤه : « ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة » ، يراد به اهل دين واحد ، وملة واحدة » (٤٨) .

وينتج عن ارتباط السنة بالامة ، مفهوم الطاعة . ولا يقصد بها هنا طاعة السنة والرسول وحسب ، بل طاعة الامة « اولي الامر » فيها . ويستند مفهوم الطاعة الى الآية : يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ، فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير واحسن تأويلا » (٤٩) . ويفسر الطبري طاعة الرسول بأنها اتباع سنته ، ويقول ان المقصود بأولي الامر ، الامراء والسلاطين والولاة . ويشير الى آراء اخرى تقول بان المقصود اصحاب السرايا على عهد النبي ، واهل العلم والفقه ، واصحاب محمد ، وبخاصة ابو بكر وعمر (٥٠) . ويورد الطبري حديثين يؤكدان الآية ، وتفسيره لها . الاول يقول : « من اطاعني فقد اطاع الله ، ومن اطاع اميري فقد اطاعني ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن عصى اميري فقد عصاني » . وجاء في الحديث الثاني : « سيليكم بعدي ولاة فيليكم البر ببره ، والفاجر بفجوره ، فاسمعوا لهم واطيعوا في كل ما وافق الحق ، وصلوا وراءهم ، فان احسنوا فلكم ولهم ، وان اساؤوا ، فلكم وعليهم » . ويخلص الطبري الى القول ان على المرء المسلم الطاعة فيما احب وكره ، الا ان يؤمر بمعصية ، فمن امر بمعصية فلا طاعة (٥١) .

وتتخذ طاعة الامة شكلا فقها - سياسيا هو الاجماع . وفي رواية ان الامام الشافعي احتج على الاجماع بهذه الآية : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » (النساء : ١١٥) ، فالذين يتبعون سبيلا غير سبيل المؤمنين يستحقون الوعيد ، شأن الذين يخالفون الرسول بعدما تبين لهم الهدى . وسبيل المؤمنين الاستدلال بالكتاب والسنة ، او هو السنن التي سننها الرسول وولاة الامر من بعده « (٥٢) ، فالأخذ بهذه السنن « تصديق لكتاب الله ، واستعمال لطاعة الله ، ومعونة على دين الله ، ليس لاحد تغييرها ولا النظر في رأي من خالفها » (٥٣) . وفي هذا معنى الاجماع . فالاجماع حق ، والامة لا تجتمع على ضلالة (٥٤) . و « ما دل عليه الاجماع فقد دل عليه الكتاب والسنة » (٥٥) .

ويقترض اتباع السنة ان نميز بين مفهومين : التقليد ، والاقتداء . فالتقليد بالمصطلح الشرعي (٥٦) ، يطلق على معنيين : الاول : حكم وال يكون فلان قاضيا في موضع . والثاني : العمل بقول الغير من غير حجة ، واريد بالقول ما يعم الفعل والتقرير ، تغليبا (٥٧) . فالتقليد اتباع الانسان

غيره ، فيما يقول او يفعل ، معتقدا للحقية ، من غير نظر الى الدليل . كأن هذا المتبع جعل قول الغير او فعله قلادة في عنقه ، من غير مطالبة دليل . كأخذ العامي بقول العامي والمجتهد بقول المجتهد . وعلى هذا ، فلا يكون الرجوع الى الرسول تقاييدا له . وكذلك الامر في الاجماع ، وفي رجوع العامي الى المجتهد . فهذا الرجوع اقتداء ، والاقتداء اهتداء (٥٨) . ولو سمي ذلك تقليدا كما يسمى ، في العرف ، أخذ المقلد العامي بقول المجتهد تقليدا ، فلا مشاحة في التسمية والاصطلاح ومن هنا ، قد يسمى اتباع الصحابة تقليدا باعتبار الصورة . ويضيف التهانوي قائلا : غير المجتهد يلزمه التقليد ، سواء كان عاميا او عالما بطرق صالحة من وجوه علم الاجتهاد . وقيل انما يلزم العالم التقليد بشرط ان يتبين له صحة اجتهاد المجتهد بدليله . واختلف في جواز التقليد في العقليات كمسائل الاصول ، فقيل بجوازه ، وقيل بوجوبه وان النظر والبحث حرام .

ان في هذا كله ، ما يشير الى انه ليس ثمة حد فاصل بين السنة والاجتهاد (الفكر) من حيث ان الاجتهاد صيغة تفسيرية للسنة ، والى ان الثقافة ، بعامية ، شكل من اشكال الشريعة . وفيه الى ذلك ما يتيح القول ان المتدين او المتسكن لا يفكر ، وانما السنة هي التي تفكر .

III

اما الاصل الثالث فهو الاجماع ، ويعرف بأنه « اتفاق المجتهدين من هذه الامة في عصر على امر من الامور » (٥٩) . ويكون الاجماع ويؤخذ به حين تعرض قضية لا يكون في احكام الكتاب والسنة نص عليها « (٦٠) . وللاجماع طرق اربع : « الراي الاجماعي ، التعامل الاجماعي ، رأي بعض المفتين مصحوبا بسكوت الباقيين الذين اطلعوا على هذا الراي ، التعامل لدى بعض المفتين دون ان يكون هذا التعامل قد اعترض عليه من قبل الباقيين الذين اطلعوا عليه ايضا » (٦١) . والاجماع هو اجماع «المجتهدين» لا اجماع الناس .

VI

والاجتهاد هو الاصل الرابع ، ويعرف بأنه « بذل الجهد في استخراج الاحكام من شواهد الدالة عليها ، بالنظر المؤدي اليها » (٦٢) ، ولا يصح الاجتهاد الا حين تعرض قضية « ليس في احكام الكتاب والسنة والاجماع

نص عليها « (٦٣) . ويسمى الاجتهاد رأيا وعقلا وقياسا (٦٤) . والاجتهاد « رأي غير مجمع عليه ، فاذا اجمع عليه فهو الاجماع » (٦٥) . واساس الاجتهاد ليس الصدور عن حكم العقل ، وانما هو « الفوص في الكتاب والسنة ، وتلمس الاشباه والنظائر ، ثم قياس الامور والنظر فيها ، كما جاء في كتاب عمر بن الخطاب الى ابي موسى الاشعري » (٦٦) . فشرط المجتهد ان يتلمس نور القرآن وهدى السنة « (٦٧) .

وفي عهد النبي كان يقتصر على الكتاب والسنة ، فنادرا ما كان يرجع الى الاجتهاد ، ولم يكن هنالك ما يستدعي الاجماع (٦٨) .

هناك ، اذن ، مبدا للاولية تتسلسل فيه نزلا حجية الاحكام بدءا من الاصل الاول . فالقرآن هو الاصل الاول ، والسنة تفريع عليه ، والاجماع تفريع على القرآن والسنة ، والاجتهاد تفريع على هذه الاصول الثلاثة .

ويوضح مبدا الاولية والتسلسل خبر النبي مع القاضي معاذ حين ارسله الى اليمن فقد قال له : « كيف تصنع ان عرض لك قضاء ؟ قال : اقضي بما في كتاب الله . قال : فان لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فان لم يكن في سنة رسوله ؟ قال : اجتهد رأيي لا آلو » . ويزيد الخبر المروي عن معاذ نفسه ، قائلا : « ف ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري ، ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله » (٦٩) .

وهكذا سلك الخليفة ابو بكر . فكان « اذا ورد عليه حكم نظر في كتاب الله تعالى ، فان وجد فيه ما يقضي به قضى به ، وان لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان وجد فيها ما يقضي به قضى به ، فان اعياه ذلك سأل الناس هل علمتم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فيه بقضاء ؟ فربما قام اليه القوم فيقولون : قضى فيه بكذا وكذا ، فان لم يجد سنة سنّها النبي صلى الله عليه وسلم جمع رؤساء الناس فاستشارهم ، فاذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به » (٧٠) .

وفي المسلك نفسه سار الخليفة عمر ، فكان « اذا اعياه ان يجد ذلك في الكتاب والسنة ، سأل : هل كان ابو بكر قضى به بقضاء ؟ فان كان لا بي

بكر قضاء قضى به والا جمع علماء الناس واستشارهم ، فاذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به « (٧١) » .

وكتب عمر الى شريح القاضي : « اذا حضرك امر لا بد منه فانظر ما في كتاب الله فاقض به ، فان لم يكن ففيما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان لم يكن ففيما قضى به الصالحون وأئمة العدل ، فان لم يكن فأنت بالخيار ، فان شئت أن تجتهد رأيك فاجتهد رأيك ، وان شئت أن تؤمرني ، ولا أرى مؤامرتك اياي الا خيرا لك » (٧٢) .

وهذا ما كان يقوله عبدالله بن مسعود : « من عرض له منكم قضاء فليقض بما في كتاب الله ، فان لم يكن في كتاب الله فليقض بما قضى فيه نبيه صلى الله عليه وسلم ، فان جاء امر ليس في كتاب الله ولم يقض فيه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فليقض بما قضى به الصالحون ، فان جاء امر ليس في كتاب الله ولم يقض به الصالحون فليجتهد رأيهم » (٧٣) . وهكذا كان يفعل جميع الصحابة ، ويقولون القول نفسه (٧٤) .

وتعني الاولى ان الاصل الاول لا يصح ان يلغيه اي حكم ، حتى حين لا ينص صراحة على الامر العارض . ذلك ان هذا الحكم لا يستمد شرعيته ، اي قيمته ، الا من كونه مستمدا من روح الاصل الاول . وتعني التسلسلية ان هناك مرتبة او طبقية دينية ، هي القائمة على صحة النبي ، والطبقية هنا تقوم على اساسين : اول هو القرب من النبي ومرافقته ، والعيش في زمانه . اما الثاني ، فتقوم بموجبه الطبقة على التمسك بالقرآن وفهمه ، اي على اساس ديني ، وهي طبقية « الصالحين » .

وكان الاجتهاد عند الصحابة ينقسم الى ثلاثة انواع : فهو اما انه « بيان وتفسير لنصوص الكتاب والسنة » ، واما انه « قياس على الاشباه والامثال مما في الكتاب والسنة » (٧٥) ، واما انه « الرأي الذي لا يعتمد على نص خاص ، وانما على روح الشريعة الماثلة في جميع نصوصها معلنة : ان غاية الشرع انما هي المصلحة ، وحيثما وجدت المصلحة فثم شرعة الله ، وان ما رآه المسلمون حسنا ، فهو عند الله حسن » (٧٦) . وهكذا أسس الصحابة ، وبخاصة عمر وعلي ، طريقة الاجتهاد بالرأي والمصلحة ، لكنه ظل اجتهادا نقليا ، مقتبسا من القرآن والسنة ، لا من العقل او التجربة .

وكما حدد الفقهاء الصلة بين المجتهد والنص ، كذلك حددوا الصلة بين الأمة والامام . وفي رأي المالكية والشافعية والحنبلية ان امامة الامام الجائر لا تعتبر « خلافة نبوية » ولكنها تعتبر ملكا دنيويا » . ومع ذلك فان طاعته واجبة وان لم يستوف شروط الخلافة . وفي شرح الموطأ للمالك ان رايه وراي اهل السنة ، اذا كان الامام جائرا ، هو الطاعة لا الخروج . « فالصبر على طاعة الجائر اولى من الخروج عليه ، لما فيه من استبدال الخوف بالامن ، واهراق الدماء وشن الفارات والفساد ، وذلك اعظم من الصبر على جوره وفسقه ، والاصول تشهد والعقل والدين ان اقوى المكروهين اولى بالترك » (٧٧) . ويقول الامام احمد « بوجوب الصبر عند الجور ، ونهى عن الخروج والائتمار نهيا صريحا ولذا روي عنه انه قال : الصبر تحت لواء السلطان على ما كان منه من عدل او جور ، ولا يخرج على الأمراء بالسيف وان جاروا » (٧٨) . ويوجز محمد ابو زهرة موقف الاسلام في هذا الصدد بقوله : « الخلافة النبوية تجب الطاعة المطلقة فيها ، والمختار للخلافة النبوية اذا فسق خرجت خلافته عن معنى الخلافة النبوية وصارت خلافته ملكا عضوا ، ويستوي مع من لم يختار . وقد اتفق الجمهور بالنسبة له على ثلاثة امور :

- ١ - عدم الخروج عليه حتى لا يؤدي الخروج الى فتنة يضيع فيها الحق ...
- ٢ - لا يطاع في معصية قط ...
- ٣ - كلمة الحق واجبة عند الحاكم ... (٧٩) واذا لم يمكن قولها فيجب انكار الجور بالقلب .

V

كان طبيعيا بعد وفاة الرسول والصحابة ، واتساع الارض الاسلامية ، ونمو الحركة العلمية ، وتشعب الفرق ، وحدة الخلاف فيما بينهما ، ان ينشأ خلاف حول فهم النصوص وان تتباين ، تبعا لذلك ، الاراء والاحكام . وهكذا نشأ خلاف حول فهم القرآن ، وحول اصولية السنة : هل هي اصل يكمل القرآن ، وما طريق اعتمادها ، وحول مكانة الصحابي من الاصول ، وحول الاجتهاد وما يتصل به من رأي وقياس واسحسان واستصلاح ، وحول الاجماع (٨٠) .

اما فيما يتصل بالخلاف حول فهم القرآن ، فقد نشأ بسبب تجدد الوقائع ، ولم يتناول كونه الاصل الاول للشريعة ، وكونه كتابا منزلا ، وانما

كان مرد الخلاف الى العلم بمراد المتكلم ، ذلك ان هذا المراد ، كان مجهولا ،
اما لان النصوص مبهمة واما لانها سكنت عن الوقائع .

والعلم بالمراد يعرف من الفاظه ، او من معانيها ، او من علل هذه المعاني
ومن هنا نشطت دراسة القرآن من الناحية اللغوية ، لكي يمكن فهم معانيه
والفاظها .

وقد تم التميز ، فيما يتعلق بالالفاظ ، بين الخاص والعام . فاللفظ
هو ما يخص شيئا واحدا بعينه دون غيره ، اما العام فيشمل الشيء الواحد
وغیره (٨١) . والتعبير باللفظ الخاص اوضح في الدلالة واكثر ، من التعبير
باللفظ العام . فعلي ، مثلا ، لفظ خاص ، يقابله : انسان ، وهو لفظ عام .
لذلك حين نخطب عليا بقولنا : يا علي ، يكون خطابنا اقوى في دلالة من
قولنا له : يا انسان .

وفما يتعلق بمعاني الالفاظ ، فقد قسم المعنى الى قسمين : معنى
يعرف صراحة لان الكلام يقصده مباشرة ، ومعنى يعرف إشارة ، لان الكلام
لا يقصده مباشرة . فهناك معنى بالعبارة ، ومعنى بالإشارة (٨٢) . والمعنى
الاول اوضح واكثر .

اما فيما يتعلق بعلم المعاني ، اي « العلل المناسبة لكل حكم من
الاحكام » ، فمنها ما يكون نقليا ، ومنها ما يكون استنباطيا بالاجماع ، ومنها
ما يكون استنباطيا بغير اجماع .

والقواعد التي تتعلق بفهم مراد المتكلم من الفاظه ومعانيها ، هي قواعد
البيان والتفسير ، اما قواعد علل المعاني ، فهي قواعد القياس والراي (٨٣) .

اما فيما يتصل بالسنة فيعود سبب الخلاف الى « طول العهد بالنسبة
لمن جاء بعد الصحابة وكثرة من تصدروا لرواية السنة ، وشيوع الاحاديث
المكذوبة » (٨٤)

واول شكل للخلاف يتمثل في القول بالاعتصار في الاستدلال على
الكتاب ، دون السنة واحكامها . لكن اصحاب هذا الراي قبلوا الاخذ
بالحديث شريطة ان يكون موافقا للكتاب (٨٥) واستند هؤلاء في ردهم السنة ،
الى ان القرآن كتب في عهد الرسول وبأمر منه ، اما السنة فلم تكتب في
عهده ، ولم يأمر بكتابتها ، وهذا مما يعني انها ليست واجبة التبليغ

كالقرآن . واستندوا كذلك الى ان القرآن تبيان لكل شيء ، ولا حاجة الى السنة كدليل على احكامه ، فالقرآن كاف بنفسه . واستندوا اخيرا الى ان السنة ، في معظمها ، ليست نابتة ثبوتا قطعيا كالقرآن ، وانما هي ظنية . وكل ما هو ظني عرضة للوهم والشك . اصف الى ذلك انه لا يجوز تفسير او تبيان القطعي بالظني (٨٦) .

وتجاوز الخلاف حول حجية الاستدلال بالسنة ، الى معناها . فمن رأي الشيعة الامامية ان اقوال الائمة سنة ، وان السنة لا تروى الا عن امامي ، ولذلك لم يقبلوا الاحاديث التي رويت بطرق اخرى ، الا اذا كانت موافقة لما روي بطريق امامية .

وقد نتج عن ذلك ان القائلين بالسنة وضعوا طريقة للعلم بها ، سميت بعلم اصول الحديث وهو يتناول نقل الحديث ، وناقله ، وشروطه ، كذلك اخذوا يدرسون تاريخ الرواة . وهكذا صار الاخذ بالحديث مشروطا بالتواتر ، والشهرة ، وخبر الواحد (٨٧) . واعتبر اهل السنة ان ما يثبت من الاحاديث بهذه الطرق يوجب التكليف ويلزم بالعمل ، وقالوا ان التواتر « يوجب علم اليقين علما ضروريا بمنزلة العيان » (٨٨) . اما المشهور فيوجب « علم طمأنينة ... يرجح جهة الصدق » (٨٩) . اما خبر الواحد فمن رأي اهل الحديث وفي مقدمتهم احمد بن حنبل ، انه يوجب « علم اليقين » ، لانه قد اوجب العمل ، ولا عمل من غير علم . ويخالفهم في ذلك القائلون بالمذهب الحنفي ، اذ يرون ان خبر الواحد « يوجب العمل ولا يوجب علم اليقين » (٩٠) .

كان رد السنة او التشكيك في حجيتها بدء الرأي . وساعد في نمو الاعتماد عليه كثرة الوقائع التي لا تماثل الوقائع الماضية ، وذلك لاختلاف الزمان والمكان ، بحيث لم يكن في القرآن ولا في السنة خبر عنها او اثر . وكان طبيعيا ان يميل الى الرأي من كان بعيدا عن بيئة النبوة ، وهكذا نشأ في العراق ، وانقسم بذلك الفقه الى قسمين : فقه الرأي ، وفقه الحديث .

وللرأي شرط اساسي هو الاصل الذي يجب ان يعتمد عليه . اما الكتاب واما السنة واما الاجماع . وقد سمي الرأي الذي يعتمد على اصل شرعي ، قياسا . ويعرف القياس ، لغة ، بانه التقدير ، ويعرف ، اصطلاحا ، بانه « الحاق امر بآخر في الحكم الشرعي لاتحاد بينهما في العلة » (٩١) . والعلة اما ان تؤخذ من نص شرعي واما ان تستنبط . وثمة اجماع على ان

القياس الذي يعتمد على علة شرعية ، انما هو حجة شرعية (٩٢) . لكن هناك من ينفي حجية القياس الذي يعتمد على علة غير منصوص عليها ، كداود الظاهري والنظام (٩٣) . فشرط الراي ، اذن ، ان يستند الى اصل شرعي ، والى علة تجمع بين هذا الاصل والقضية الناشئة . دون ذلك لا يصح الراي ، وانما يكون هوى لا رايا (٩٤) . لذلك لا راي حيث يكون النص متواترا .

ومن الطبيعي ان لا يكون القياس صالحا لنسخ شيء « من الادلة من كتاب او سنة او اجماع او قياس » (٩٥) . فمن ناحية الاصول الثلاثة الاولى ، فانها اقوى من القياس ، وهو الاضعف ، والاضعف لا ينسخ الاقوى . ثم انه لا يكون نسخ الا بنص وليس القياس نصا وانما هو « استدلال بالنص » (٩٦) . اما ان القياس لا يصلح لان ينسخ القياس فعائد الى انه ليس نصا .

ويوجز معروف الدواليبي علاقة القياس بالنص والاجماع فيما يلي :
« ١ - اذا جاء النص من الكتاب او السنة ودل على غير ما دل عليه القياس السابق ، فقد وجب العمل بالنص لرجحانه على الاستدلال ، كما وجب وقف العمل بالقياس لزوال شرطه وهو فقدان النص ، اذ لا اجتهاد في مورد النص .

٢ - اذا جاء الاجماع على غير ما دل عليه القياس السابق ، فقد وجب ايضا وقف العمل بالقياس ، وذلك لرجحان الاجماع في النقل وفي الراي ، على الراي غير الاجماعي من قياس ونحوه » (٩٧) .

الاستحسان شكل قياسي . وهو « يقوم على الاخذ في مسألة ما بحكم يخالف الحكم المعروف في القياس » ، اما لرجحان علة خفية واستحسانها ، واما لضرورة « توجب مصلحة او تدفع حرجا » (٩٨) . ويعرف ، اصطلاحا ، بانه « العدول بالمسألة عن حكم نظائرها الى حكم آخر ، لوجه اقوى يقتضي هذا العدول » (٩٩) . والاخذ بالاستحسان نتيجة لنظرة خاصة للشريعة . وهي نظرة ترى ان غاية الشريعة انما هي مصلحة الناس . « فكل امر فيه مصلحة او دفع مضرة ، مطلوب من الشارع ، سواء نص عليه ام لم ينص » (١٠٠) .

الاستصلاح كذلك شكل قياسي ، ويتم اللجوء اليه في كل قضية « لم يرد في الشريعة نص عليها ، ... او امثال تقاس بها » (١٠١) ، ويتم الحكم الاستصلاحى على القواعد الشرعية العامة (١٠٢) .

واذا كان القياس والاستحسان يقتضيان المقارنة بمسائل سابقة ، مناظرة او مشابهة ، فان الاستصلاح لا يستلزم هذه المقارنة ، وانما يستلزم تأكيد المصلحة . ومن هنا يعرف الاستصلاح بانه « بناء الاحكام الفقهية على مقتضى المصالح المرسله » (١٠٣) . وتتقرر هذه المصالح بمقتضى الاصول والقواعد العامة في الشريعة ، وليس بمقتضى نصوص خاصة ، وهي قواعد واصول تحمي هذه المصالح وتقرها بشكل مطلق لا يقيد النص الصريح .

غير ان الاساس في المصلحة يجب ان ينشأ على ما يقصده الشرع ، ومعنى المصلحة وغايتها المحافظة على مقصود الشرع . ويعرف الغزالي المصلحة بقوله : « اما المصلحة فهي عبارة في الاصل عن جلب منفعة او دفع مضرة ، ولسنا نعني ذلك ... لكننا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع . ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهو ان يحفظ عليهم : دينهم ، ونفسهم ، وعقلهم ، ونسلهم ، ومالهم . فكل ما يتضمن حفظ هذه الاصول الخمسة فهو مصلحة . وكل ما يفوت هذه الاصول فهو مفسدة ، ودفعه مصلحة » (١٠٤) .

والمذهب الشافعي لم يعتبر المصلحة الا اذا جاء بها النص ، او حملت على النص بالقياس . اما المذهب المالكي والحنبلي فقد اخذا بالاستصلاح ، دون تقييد بالقياس . وهذا يعني « ان كل عمل فيه مصلحة لا ضرر فيها ، او كان النفع فيه اكبر من الضرر ، فهو مطلوب من غير ان يحتاج الى شاهد خاص لهذا النوع من النفع ، وان كل امر فيه ضرر ولا مصلحة فيه ، او ائمه اكبر من نفعه ، فهو منهي عنه من غير ان يحتاج الى نص خاص » (١٠٥) .

ولئن كان المذهب الحنفي لم يأخذ صراحة بالاستصلاح ، فانه اخذ بالاستحسان . ومعنى الاستحسان ، كما رأينا ، هو الخروج عن القاعدة العامة ، وعن الاشباه والنظائر ، لضرورة المصلحة . « ومن قال بذلك فقد قال من باب اولى بالاخذ بالمصلحة المرسله اذا لم يكن هناك نظائر تعارضها ، ولا قواعد عامة تناقضها » (١٠٦) .

وينتج عن الاستصلاح مبدأ « تغيير الاحكام بتغير الزمان » ، وهو مبدأ يجيز نسخ ما « في الشريعة من بعض الاحكام تبعا لتغير المصلحة في الزمان » (١٠٧) . غير ان لهذا المبدأ قواعد ضابطة ، لا يصح تطبيقه الا اذا اخذ بها . ولتبيان هذه القواعد ، قسمت المصالح الى ثلاث : ضرورات ،

وحاجات ، وتحسينات (١٠٨) ، « والاحكام الشرعية التي شرعت لحفظ الضروريات اهم الاحكام واحقها بالمراعاة ، وتليها الاحكام التي شرعت لتوفير الحاجات ، ثم الاحكام التي شرعت للتحسين والتجميل . ولا يراعى حكم تحسيني اذا كان في مراعاته اخلال بحكم ضروري ، او حاجي ، لان المكمل لا يراعى اذا كان في مراعاته اخلال بما هو مكمل له » (١٠٩) . واولى قواعد الاستصلاح هي ان الضروريات اصل المصالح (١١٠) ، وثانيها هي انه « اذا كان الضروري قد يخل باختلال مكملاته (الحاجيات) كانت المحافظة عليها لاجله مطلوبة ، وانه اذا كانت زينة لا يظهر حسنه الا بها ، كان من الاحق ان لا يخل بها » (١١١) ، وثالثها هي ان كل « تكملة يفضي اعتبارها الى رفض اصلها فلا يصح اشتراطها » (١١٢) . ورابعها هي ان المصالح والمفاسد الراجعة الى الدنيا يجب ان « تفهم على مقتضى ما غلب » . . . فان رجحت المصلحة في فعل قيل انه مصلحة وكان مطلوبا ، وان غلبت فيه المفسدة قيل انه مفسدة وكان مهروبا عنه (١١٣) .

اما الاجماع فمعناه اتفاق العلماء من المؤمنين في رأي حول مسألة لم يرد عنها نص في القرآن او اثر في السنة ، وهذا ما كان يفعله الصحابة بعد موت النبي . ففي رواية عن سعيد بن المسيب عن علي انه قال : « قلت يا رسول الله الامر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ولم تمض فيه منك سنة ؟ قال : اجمعوا له العالمين من المؤمنين ، فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأي واحد » (١١٤) . فالاجماع في عهد الصحابة ليس اتفاق الامة بكاملها ، وانما هو اتفاق علمائها ، وليس من شرط هذا الاتفاق ان يتم في الامكنة كلها ، بل شرطه ان يتم في المكان التي تحدث فيه المسألة . وهذا هو النموذج الاول للاجماع ، وقد اصطلح على تسميته بالاجماع الواقعي . وكانت المدينة مكانا له ، باعتبار انها كانت مدينة العلماء . لكن بعد اتساع الارض الاسلامية وتعدد مراكز العلم والعلماء ، نشأ مفهوم آخر للاجماع هو ما اصطلح على تسميته بالاجماع الداتي ، ويعني اجماع العلماء كلهم ، في الامكنة كلها .

وقد قال الامام مالك بالاجماع الواقعي معلنا ان « الناس تبع لاهل المدينة التي بها نزل القرآن » (١١٥) ، فاهل المدينة « ورثوا علم السنة وفقه الاسلام » (١١٦) ولا فرق في هذا الاجماع ، عند الامام مالك ، بين ان يكون قوليا او عمليا ، وبين ان يكون نقليا او اجتهاديا (١١٧) .

واخذ الامام الشافعي بالمفهوم الداتي ، وتابعه الامام احمد في مذهبه ،

كذلك يذهب الامام ابو حنيفة ، لكنه اقر الاجماع السكوتي ، الى جانب الاجماع القولي ، بخلاف الامام الشافعي الذي لم يقر غير هذا الاخير ، قائلا: « لا ينسب لساكت قول » (١١٨) .

ولا يصلح الاجماع «ناسخا لشيء من كتاب او سنة او قياس او اجماع، ولا منسوخا بشيء من ذلك » (١١٩) .

وهناك اختلاف آخر في الاجماع حول الاشخاص الذين يتكون منهم . ويرى معظم الفقهاء السنة ان الاجماع لا تنقضه مخالفة القائلين بالامامية ، فهؤلاء في نظر الفقهاء مبتدعون ، والمبتدع لا ينقض اجماعا . واذا كان المبتدعون لا ينقضون الاجماع فانهم ، بالاحرى ، لا يعتبرون من عناصره التي تكونه (١٢٠) .

مقابل ذلك يرى القائلون بالامامية ان الاجماع هو اجماع مجتهديهم ، وحدهم وهو حجة لانه يمثل رأي الامام الغائب ويكشف عنه .

ومع ان الامام ابا حنيفة قلل من الاعتماد على الحديث ، واكثر الاخذ بالرأي في اوسع معانيه « سواء منه ما كان قياسا او استحسانا او استصلاحا ، مع تقدير تطورات الازمان والاعراف وما يكون لها من تأثير في الاحكام » (١٢١) ، فان الخلاف بين الفقهاء لم يكن يدور حول النص الثابت ، بذاته ، بل حول فهمه . فجميع الخلافات التي نشأت ، في هذا المجال ، تتصل بالمنهج وحده ، وجميع المناهج تنطلق من الايمان المطلق بالنص الثابت ، وتخضع لسلطانه الكامل .

VI

أصبح اتباع السنة مقياسا لصحة الدين ، وبقدر ما كان العهد بالنبي، واعماله وأقواله ، يبتعد ، كان هذا الاتباع يترسخ ويزداد التشبه بصحابته وتابعيه . ومن هنا نشأت السلفية ، مقابل الابتداع . واخذت الحركة السلفية ، وما تزال ، تمارس نشاطا ببعدين : الاول احياء السنة (١٢٢) ، والثاني اامة البدعة . فالسلفية اتباع من جهة ، واحياء من جهة ثانية ، ومحاربة لكل بدعة ، من جهة ثالثة .

والبدعة ، في اللغة ، ما كان مخترعا على غير مثال سابق . والابتداع

أحداث شيء على غير مثال سابق : والإبداع في الاصطلاح الفلسفي ، إيجاد غير مسبوق بالعدم ويقابله الصنع وهو إيجاد شيء مسبوق بالعدم . يقول ابن سينا في الاشارات : « الإبداع هو أن يكون من الشيء وجود لغيره ، متعلق به فقط ، دون متوسط من مادة أو آلة أو زمان » ، فكل مسبوق بعدم مسبوق بزمان ومادة . والإبداع أعلى رتبة من التكوين والأحداث . فالتكوين هو أن يكون من الشيء وجود مادي . هو إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود . والمراد بالإخراج مبدا الإخراج لا المفهوم الإضافي الاعتباري . ويعبر عنه بالفعل ، والخلق والتخليق والأحداث والاختراع ونحو ذلك من الإبداع والصنع بل التزييق والتصوير والاحياء . والأحداث أن يكون من الشيء وجود زمني . أما الإبداع فاقدم منهما ، لان المادة لا يمكن أن تحصل بالتكوين ، والزمان لا يمكن أن يحصل بالأحداث لامتناع كونهما مسبوقين بمادة أخرى وزمان آخر . وهما ، إذن مترتبان عليه ، وهو اقرب منهما إلى العلة الأولى ، فالإبداع إخراج الشيء من العدم إلى الوجود بغير مادة ، فان له ، بالنسبة إلى الأحداث والتكوين ، مزيد خصوص ، إذ يشترط فيه انتفاء المادة ، فهو يخص المجردات (١٢٣) .

والإبداع عند البلغاء أن يشتمل الكلام على عدة ضروب من البديع ، وهي : المناسبة التامة ، الاستعارة ، الطباق ، المجاز ، الإشارة ، الازداف ، التمثيل ، التعليل ، صحة التقسيم ، الاحتراس ، حسن النسق وأئتلاف اللفظ مع المعنى ، الإيجاز ، التسهيم (أي أن يدل أول الكلام على آخره) ، التهذيب ، الخلو من عقادة التركيب ، حسن البيان ، التمكن . وقد مثل التهانوي على هذا كله نقلا عن ابن أبي الأصبع بالآية : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء اقلعي ، وغيض الماء ، وقضي الأمر ، واستوت على الجودي » وقيل بعدا للقوم الظالمين » (١٢٤) . ففي هذه الآية عشرون ضربا من البديع .

أما البدعة في الشرع فهي ما أحدث على خلاف أمر الشارع ودليله الخاص والعام أو هي اعتقاد ما أحدث على خلاف المعروف عن النبي ، لا بمعاندة ، بل بنوع شبهة ، وفيه إشارة إلى أنه لا يكون له أصل في الشرع أيضا ، بل مجرد أحداث بلا مناسبة شرعية أخذا من قوله (ص) : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » . وقيل لا بمعاندة لان ما يكون بمعاندة فهو كفر . والشبهة ما يشبه الثابت وليس بثابت كادلة المبتدعين (١٢٥) . والمبتدع ، في الشرع ، هو من خالف أهل السنة اعتقادا . ويسمى المبتدعون

باهل البدع واهل الاهواء . ولا يسمى الكافر مبتدعا . لكن المبتدع قد يكون مبتدعا ببدعة تتضمن الكفر ، كان يعتقد ما يستلزم الكفر ، سواء كان مما اتفق على التكفير بها ، كحول الاله في علي ، او اختلف في التكفير بها ، كالقول بخلق القرآن .

والبدع خمسة احكام : واجبة ، وهي الاشتغال بالعلوم العربية التي يتوقف عليها فهم الكتاب والسنة ، كالنحو والصرف والمعاني والبيان واللغة ، بخلاف العروض والقوافي ، ومحرمة وهي مذاهب سائر اهل البدع المخالفة لما عليه اهل السنة والجماعة . ومندوبة ، وهي احداث الرباطات والمدارس . ومكروهة ، وهي زخرفة المساجد وتزويق المصاحف . ومباحة ، وهي التوسع في لديد الماكل والمشارب والملابس (١٢٦) .

ويعرف الامام الشافعي البدعة بانها « ما احدث وخالف كتابا او سنة او اجماعا او اثرا » وهذه هي « البدعة الضالة » ، « وما احدث من الخير ولم يخالف شيئا من ذلك فهو البدعة المحمودة » (١٢٧) .

وتتجلى البدعة الضالة في اشكال مختلفة . منها الردة ، وهو ما تشير اليه الآية : « ومن يرتدد منكم عن دينه ، فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (١٢٨) . وهذه الردة فتنة ، اي ترك بالله ، كما يفسرها الطبري (١٢) ، « والفتنة اكبر من القتل » (١٣٠) .

ومن اشكال البدعة ، التفرقة . وهو ما تشير اليه الآية : « وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (١٣١) وفي تفسير الطبري ان الصراط الطريق الذي ارتضاه الله لعباده ، وهو طريق قويم لا اعوجاج به عن الحق ، فاتبعوه ، أي فاعلموا به واجعلوه لانفسكم منهاجا تسلكونه . ولا تتبعوا السبل ، أي لا تسلكوا طريقا سواه ، ولا تتخذوا منهاجا غيره ، ولا تبغوا ديننا خلافه . ويفسر الطبري السبل بانها البدع والشبهوات ، وهي اليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الاوتان وغير ذلك من الملل ، فانها بدع وضلالات (١٣٢) .

وتشير الى التفرقة آية ثانية هي : « ان الدين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء ، انما امرهم الى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا

يفعلون » (١٣٣) . ويقول الطبري ، نقلا عن ابي هريرة ، أن النبي يقول في هذه الآية ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء وليسوا منك، انما هم اهل البدع واهل الشبهات واهل الضلالة من هذه الامة (١٣٤) .

وتشير الى التفرقة آية ثالثة : « واعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا ... ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » (١٣٥) ، ويروى عن ابن عباس انه قال في تفسير هذه الآية : « تبيض وجوه اهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه اهل البدعة والفرقة » (١٣٦) .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٦٣/٢) جاء ان ابن ابي حاتم وابا نصر في « الابانة » والخطيب في تاريخه ، واللالكائي في « السنة » اخرجوا عن ابن عباس في هذه الآية قوله : « تبيض وجوه اهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه اهل البدع والضلالة » . ويرد المعنى نفسه في مقدمة الامام احمد بن حنبل لرسائله « الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله » . حيث يقول عنهم : « عقدوا الوية البدعة ، واطلقوا عنان الفتنة ، فهم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مفارقة الكتاب » (١٣٧) .

ولكي يحفظ الانسان نفسه من ارتكاب البدعة ، يجب عليه ألا يلجأ الى رأيه ، وانما عليه ان يتمسك برأي السنة ويكتفي به . وعن هذا يعبر الامام الشافعي ، بقوله :

كل العلوم ، سوى القرآن ، مشغلة الا الحديث وعلم الفقه في الدين العلم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذلك وسواس الشياطين (١٣٨)

ويسفه الشافعي اللجوء الى الرأي ، فيقول :

لم يفتأ الناس حتى احدثوا بدعا في الدين بالرأي، لم يبعث بها الرسل (١٣٩) فاستخدام الرأي بدعة او يؤدي الى البدعة ، اي انه يحيد بصاحبه عن الاصل . وكان الشافعي يصف الحديث بأنه الاصل ، وجاء ذلك في قوله : « اذا رأيت رجلا من اصحاب الحديث ، فكأنما رأيت رجلا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جزاهم الله خيرا حفظوا لنا الاصل، فلهم علينا الفضل » (١٤٠) .

ومن يستخدم رايه يكون اول في الابتداء . وفي القرآن ما يشير الى ان النبي لم يكن اول ، مؤكدا على انه يتابع رسالة ، وعلى انه ليس هو الذي يقول ، بل الله ، فهو يتلقى وينقل . وهكذا يجب ان يفعل الناس بعده : ان ينقلوا ما القى اليهم . والآية المقصودة هنا هي : « قل ما كنت بدعا من الرسل ، وما ادري ما يفعل بي ولا بكم ، ان اتبع الا ما يوحى الي ، وما انا الا نذير مبين » (١٤١) . ويفسرها الطبري قائلا : ما كنت اول رسل الله التي ارسلها الى خلقه ، قد كان من قبلي له رسل كثيرة ارسلت الى امم قبلكم (١٤٢) . ويقال : هو بدع في هذا الامر وبتدعي فيه ، اذا كان فيه اول (١٤٣) . والمبتدع الاول ، من هذه الناحية ، هو الشيطان . ولذلك فان اقرب الناس الى الله هو اول من اتبع نبيه ، وابعدهم عن الله هو اول من اتبع الشيطان . وفي الرواية ان اول ما نزل جبريل على النبي علمه الاستعاذة . « قال : يا محمد : قل استعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم . ثم قال : قل بسم الله الرحمن الرحيم . ثم قال : اقرا باسم ربك الذي خلق » (١٤٤) .

وتعني الاستعاذة الاستجارة بالله من الشيطان ان يضر في الدين او يصد عنه . والشيطان ، لفة ، كل متمرد سواء كان جنيا او انسيا ، حيوانا او نسيا . و « سمي المتمرد من كل شيء شيطانا لمفارقة اخلاقه وافعاله اخلاق سائر جنسه وافعاله ، وبعده عن الخير » (١٤٥) . وربما كانت لفظة الشيطان مأخوذة من الشطن ، اي البعد (١٤٦) .

وكل شيطان رجيم ، اي ملعون او مشتوم (١٤٧) . وتوضح كلمة ابليس البعد الديني لكلمة شيطان . فابليس من الابلاس ، اي اليأس من الخير . فابليس « ابلسه الله من الخير كله ، وجعله شيطانا رجيمًا ، عقوبة لمعصيته » (١٤٨) .

نخلص من هذا كله الى القول ان البدعة هي الفعل ، وكل من فعل فعلا مبدع . والبدعة هي ايضا قول لم يسبق اليه قائله ، والمبدع او المبتدع في الدين هو من يحدث فيه ما لم يسبقه اليه غيره . وكل محدث قول او فعلا لم يتقدمه فيه متقدم ، تسميه العرب مبتدعا . يقول الاعشي :

يرعى الى قول سادات الرجال اذا
ابدوا له الحزم او ما شاءه ابتدعا

ويقول رؤبة بن العجاج : « . . . فليس وجه الحق ان تبدعا » . اي ان

تحدث في الدين ما لم يكن فيه . والبدعة ، اذن ، تتضمن شيئين : انعدام المثال ، وانعدام التعلم . فكأن البدعة تتصل بالفطرة . ومعنى ان الله مبدع هو انه ابدع « الاشياء لا على مثال تقدم ، ولا من احد تعلم » (١٤٩) ، فهو بارىء العالم من غير اصل او مثال « احتذاه » ، ومن هنا يسمى الله المبدىء . فعمل الله هو ، وحده ، البدعة . لكن هذه البدعة هي ، بالنسبة الى المخلوقين ، سنة يجب الاقتداء بها . وكل ما ياتيه الانسان مما « ليس له اصل في الكتاب والسنة واجماع الامة » (١٥٠) بدعة . فهي اذن خروج وكل خارج يصدر عن نفسه ، لا عن غيره ، سواء كان الغير شخصا او عملا او قولا . ومن هنا ارتبطت البدعة بالهوى ، والسنة بالحكمة . يقول الحيري (١٥١) : « من امر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن امر الهوى على نفسه نطق بالبدعة » . وجاء في تفسير الآية « ويعلمهم الكتاب والحكمة (سورة البقرة ، آية ٢٩) ان الحكمة هي السنة (١٥٢) ، وهكذا يقترن العمل بالبدعة بالعمل لهدم السنة ، وبالتالي الاسلام . وفي حديث عن النبي انه قال : « من مشى الى صاحب بدعة ليوقره فقد اعان على هدم الاسلام » (١٥٣) والبدعة ، اذن ، هي الهوى الذي يحدث ما لم يكن . والمبتدع هو الذي خلا قلبه من نور الايمان .

والبديع ، اي المبدع ، من اسماء الله الحسنى . فله ، وحده ، الابداع والبدعة . فالابداع صفة من صفات ذاته . ولا يجوز للمخلوق ان يتصف بصفة من صفات الذات الالهية . فهذه قديمة ، وذات المخلوق حادثة . ولا يجوز قيام الصفة القديمة بالذات الحادثة (١٥٤) ، كما انه « لا يجوز قيام الصفة الحادثة بالذات القديمة » . فالبدعة ، اذن ، نوع من اتصاف المخلوق بصفة ذاتية للخلق ، فهي خروج عن الدين وانسلاخ عنه ، لان كل مبتدع انما يضع نفسه مكان الله ، ولذلك فان ابتداعه يلغي او ينفي ابداع الله (١٥٥) .

وهكذا يتضح ان معنى السنة يتوحد بمعنى القديم . وسوف نرى ان هذا المعنى نفسه كان اساس النظرة الى اللغة والشعر ، في ايدولوجية الثبات او الاتباع .

الفصل الثاني

في الحركة اللغوية

لعل خير ما يساعدنا على فهم الدلالة العميقة لموقف علماء اللغة من الشعراء ، هو ان نفهم السبب الذي يكمن وراء التمسك بالاصل اللغوي (١) . وليس من شك في ان هذا السبب يعود الى الربط بين اللغة والدين ربطا جوهريا . فقد فسرت الآية : « وعلم آدم الاسماء كلها » (٢) ، بان الله علم آدم اللغة العربية ، وهي اذن فديمة قدم آدم . ومن هنا كان الدين عاملا اول في دراسة اللغة والشعر الجاهليين ، فقد كانت هذه الدراسة اللغوية - الشعرية وسيلة لمعرفة الدين بعامة ، ولفهم القرآن بخاصة (٣) . ويقول ابن عباس في تفسير هذه الآية، ان الله الذي علم آدم الاسماء التي يتعارف بها الناس (٤) . ويرى ابن عساكر ان آدم تكلم اللغة العربية ، وهو في الجنة (٥) . فاللغة العربية ، بحسب هذه النظرة ، قديمة الهية ، وينبغي على من يقوم بروايتها ان يسلك ازاءها سلوكه ازاء رواية الحديث (٦) . وفي هذا المنظور جمع الشعر الجاهلي واعتبرت لغته مقياسا للاصالة اللغوية . وابن عباس ، فيما يروي ، هو اول من استعان بالشعر الجاهلي ليفسر القرآن (٧) وكان الشرط الاول لمن يفسر القرآن ان يكون عالما باللغة (٨) . وهذا يعني ان المعرفة بالشعر الجاهلي شرط اساسي لمعرفة الاعجاز القرآني . فبقدر نصيب العربي من لغته ، سليقة وذوقا ، يفهم اعجاز القرآن ، فيدرك ان طاقة العربي تعجز عن الاتيان بمثله ، ويؤمن بالتالي انه وحي . وهكذا كان العربي ينظر الى القرآن في بدايات الاسلام من حيث انه لغة اكثر مما ينظر اليه من حيث انه مضمون ديني . وكانت اللغة سببا لرفضه او قبوله . فقد كان القرشيون يحذرون الناس من الاصغاء اليه ، واصفين كلامه بانه سحر يفرق بين الاب وابنه

وعشيرته (٩) . ويروى ، بالمقابل ، ان عمرا اخذ بسورة طه وهو يسمعها ، فأسلم (١٠) . كذلك أسلم سعد بن معاذ ، واسيد بن حضير ، مأخوذين بسماعهما القرآن (١١) . وحدث الامر نفسه مع جبير بن مطعم حين سمع سورة الطور ، وبخاصة هاتين الآيتين : « ان عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع » (١٢) . وحين سمع نفر من الانصار الى النبي في مكة يقرأ القرآن آمنوا به وعادوا الى المدينة فآظفروا الدين بها ، فلم يبق بيت من بيوت الانصار الا وفيه قرآن . وقد روي عن بعضهم انه قال : فتحت الامصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن » (١٣) . بل الجن نفسها لما سمعته لم تتمالك ان قالت : « انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشيد فأمننا به » (١٤) . وربما كان هذا كله سببا أول في دفع القاضي الباقلاني الى القول ان اكثر العرب فصاحة كان أسبقهم الى الاسلام ، اما الذين لم يكونوا « في البلاغة على حدود النهاية » (١٥) فقد تأخروا في اعلان اسلامهم . ولو كان العرب « في الفصاحة على مرتبة واحدة ، وكانت صوارفهم واسبابهم متفقة ، لتوافوا الى القبول بالاسلام جملة واحدة » (١٦) .

كان من الطبيعي اذن ان يقبل العرب على دراسة الظاهرة القرآنية المعجزة . وكانت هذه الدراسة في بادىء الامر ، تفسيرا ، وضع اسسه الاولى ابن عباس . وكان التفسير يكشف عن معاني القرآن واسلوبه ، بطريقة المقارنة بينه وبين الشعر العربي الجاهلي واسلوبه . والتفسير يفترض العلم باللغة ، في المقام الاول ، ومن هنا نشأ الاهتمام بجمع تراث الجاهلية اللغوي ، من شعر وخطب وامثال وسجع .

وقد تبلورت الدراسات القرآنية في ثلاثة اتجاهات رئيسية : الاتجاه التفسيري التقليدي الذي يقوم على جمع الاحاديث والاخبار والسير وعادات العرب واخبارهم ودعمها ببعض الشواهد الشعرية . وهذا التفسير نقلي ، مأخوذ من الصحابة والتابعين ، وربما رفع الى النبي نفسه . وبرز مثل على هذا الاتجاه كتاب الطبري : « جامع البيان » .

اما الاتجاه الثاني فهو الاتجاه اللغوي النحوي ، وقد عني اصحابه بدراسة لغة القرآن ، وتراكيبها ، وغريب الفاظها : فحاولوا ان يميزوا بين الاصيل العربي والدخيل الاجنبي (الفارسي او الحبشي او النبطي او الرومي ... الخ) . كما فعل ابو عبيدة في « مجاز القرآن » وابن قتيبة في « مشكل القرآن » والطبري في مقدمة تفسيره : جامع البيان . وحاولوا كذلك ان يحددوا مدلول اللفظة ، وصلة اللفظ بالمعنى العام للعبارة ، كما فعل

الاصمعي في كتاب « الاضداد » ، وان يدرسوا من ثم نغمية اللفظ وموسيقيته كما فعل الاصمعي في كتاب « الاجناس » .

والاتجاه الثالث هو الاتجاه البياني الذي عني بدراسة نظم القرآن ، وحاول ان يوضح كيف ان القرآن كتابة عربية ، اي جارية على الاسلوب العربي ، والعادة العربية في نظم الكلام ، وكيف انه في الوقت نفسه كان جديداً ، بل كان معجزاً : خرق هذه العادة ، حتى ذهب الباقلاني الى القول انه « خارج » عن اساليب العرب وعاداتهم في فن القول .

واقترنت هذه الدراسات بالتشديد المطلق على أن لغة القرآن عربية خالصة ، لا تخالطها العجمة . يقول ابو عبيدة معمر بن المثنى (توفي سنة ٢١٠ هـ) ، وهو من أوائل الذين درسوا لغة القرآن : « نزل القرآن بلسان عربي مبين ، فمن زعم ان فيه غير العربية فقد اعظم القول ، ومن زعم ان طه بالنبطية فقد اكبر ، وان لم يعلم ما هو ، فهو افتتاح كلام وهو اسم للسورة وشعار لها . وقد يوافق اللفظ ويقاربه ومعناهما واحد ، واحدهما بالعربية والاخر بالفارسية او غيرها . فمن ذلك الاستبرق بالعربية ، وهو الفليظ من الديباج ، وهو ، بالفارسية استبره ، وكوز وهو بالعربية جوز ، واشباه هذا كثير . ومن زعم ان « حجارة من سجيل » (١٠٥/٤) بالفارسية فقد اعظم » (١٧) .

ويتضمن هذا الانكار لورود كلمات اعجمية في القرآن ، افرادا اللغة العربية عن غيرها من اللغات ، واعتبارها وحيا لا يخضع للتطور ، ولا يجوز عليها التغير . ومن ثم القول بانها اصل لا يفتقر الى غيره ، بل اللغات كلها مفتقرة اليها ، فقد خصها الله بما لم يخص به جميع اللغات ، وخص العرب بها دون غيرهم من الشعوب ، وجعل منها « علم » الاسلام ، كما جعل « فلق البحر ، واليد ، والعصا ، وتفجر الحجر في التيه بالماء والرواء » ، « علم » موسى ، وجعل « احياء الموتى ، وخلق الطير من الطين ، وابراء الاكمه والابرص » ، « علما » لعيسى . وزمن موسى هو « زمن السحر » ، وزمن عيسى هو « زمن الطب » ، اما زمن محمد فهو « زمن البيان » (١٨) .

غير ان الامر الواقع هو دخول مفردات كثيرة من اللغات الاخرى الى اللغة العربية ، قبل نشوء الاسلام (١٩) وبعده . وكان معظمها مما يعبر عن اشياء مادية ، طبيعية او حضارية ، لم يالفها العرب في بيئتهم ، كاسماء الطير

والزهر ، وكأسماء الخمر والادوات المنزلية . وكان الشعراء هم الذين يقومون ، في بداية الامر ، باستعارة هذه المفردات . والمثالان البارزان في هذا الصدد هما الاعشى وعدي بن زيد العبادي . وازدادت هذه الاستعارة في العصر الاموي ، وبلغت اوجها في العصر العباسي .

وحين بدأ التأليف العلمي والفلسفي كثرت المفردات غير العربية وبخاصة في الكتب التي ألفها الفلاسفة والعلماء المنحدرون من اصل غير عربي ، كالفارابي والرازي وابن سينا .

وقد رافق ادخال (٢٠) الكلمات غير العربية الى اللغة العربية جدل تناول المبدأ ذاته ، بالإضافة الى الطريقة . فما دخل من هذه الكلمات في النسخ البنيوي للفظ العربي ، سمي معربا وقبله علماء اللغة ، واصبح جزءا من العربية (٢١) . لكن ما دخل منها وظل محافظا على صورته الاصلية ، فقد تردد اللغويون الاوائل في قبوله وسموه اعجميا دخيلا ، ليميزوا بينه وبين العربي الاصيل (٢٢) .

ويوجز ابراهيم انيس المعايير التي قررها المؤلفون العرب للتفريق بين الاصيل والدخيل في سبعة :

- ١ - لا تجتمع الجيم والقاف في كلمة عربية الاصل .
 - ٢ - لا تجتمع الجيم والصاد .
 - ٣ - ولا تجتمع الجيم والطاء .
 - ٤ - ولا تقع نون وبعدها مباشرة راء ، في اللفظ العربي .
 - ٥ - ولا تكون الزاي بعد دال .
 - ٦ - ولا تجتمع الزاي والدال مع السين .
 - ٧ - ولا تخلو الكلمة العربية ، الرباعية او الخماسية الاصل ، من حرف من حروف الدلالة : ل، ر، ن، م، ف، ب، باستثناء كلمة مسجد (٢٣) .
- وقرر علماء اللغة ، بالإضافة الى ما سبق ، ان صيغ : فعالان ، (مثل خراسان) ، وفاعيل (مثل آمين) وفعلل (مثل درهم) صيغ غير عربية (٢٤) .
- وينتقد ابراهيم انيس هؤلاء العلماء فيرى انهم « لم يكونوا على دراية

كافية بشقاقات اللغة العربية من لغات سامية تنتمي كلها الى أرومة واحدة ، فعمدوا الى الفاظ سريانية او عبرية او آرامية واعتبروها من الدخيل على العربية ، غير مدركين ان هذه اللغات قد انحدرت كلها من اصل واحد ، وربما اخذت الكلمة الواحدة السامية الاصل صورا متعددة في هذه اللغات الاخوات . ولا يصح لهذا ان تعد امثال هذه الكلمات اجنبية عن اللغة العربية » (٢٥) .

II

يبدو ، من هنا ، ان التشدد في المبدأ الذي يرفض الاخذ من اللغات الاخرى ، تعريبا او اقتراضا ، يعود الى ان اللغة العربية لشه القرآن . والقرآن كامل ، وما نزل به الكامل ، كامل ، بالضرورة . والكمال يعني ، من جهة ، ضرورة الاحتفاظ بطابع هذه اللغة وخصائصها ، ويعني من جهة ثانية ، انها مستغنية بذاتها عن التأثير لانها ليست ناقصة لكي تكون محتاجة الى غيرها بل انها الاكثر فصاحة . وقد تتفوق الامم على العرب في اشياء كثيرة الا في الفصاحة ، اي في اللغة . ولذلك فان اللغات الاخرى هي التي تحتاج ، على العكس ، الى الاخذ من العربية ، والى الاقتداء بها . انها اذن اساس ثابت ووسيلة التشبه بالاساس انما هو القياس . والقياس ، كما يعرفه المناطق ، هو استنباط مجهول من معلوم . ويعني ، في اللغة ان يشتق اللغوي صيغة من مادة لغوية على نسق صيغة مألوفة في مادة اخرى . وبعبارة ثانية هي ان يستخرج صيغة مجهولة ، بالاستناد الى صيغة معلومة . وقد تكون الصيغة صيغة كلمة ، او عبارة ، او طريقة استعمال . والغاية من الاخذ بالقياس هي التوسع اللغوي . وقد اخذ البصريون بالقياس ، بينما اخذ الكوفيون بالسماع . ويحدد ابراهيم انيس الفرق بين البصريين والكوفيين بقوله : « كان البصريون من اللغويين اهل منطق وفلسفة لغوية او اجتهد في اللغة ، يستنبطون ويؤولون ويخرجون ويعلمون . ويضعون الاحكام على حسب اجتهدهم في بعض الاحيان . اما الكوفيون فيبدو انهم قد اعتزوا بالنصوص التي انحدرت اليهم من العرب اعتزازا كبيرا فلم يشاءوا ان يفرطوا في أي نص من نصوص العرب حتى ولو كان هذا النص وحيدا فريدا . . . فموقف البصريين كان يشبه موقف المعتزلة من المسائل الدينية ، في حين ان موقف الكوفيين من اللغة كان يشبه موقف اهل السنة » (٢٦) .

والواقع ان القياس اللغوي اقترن بالقياس الفقهي ، وافاد كلاهما من الآخر . يروى في هذا الصدد ان بشرا المريسي المعتزلي قال للفراء : « اريد ان

أسألك مسألة في الفقه : ما تقول في رجل سها في سجدتي السهو ؟ قال : لا شيء عليه . قال : من أين لك ذلك ؟ قال : قسسته على مذاهبننا في العربية . وذلك أن المصغر لا يصغر ، وكذلك لا يلتفت إلى السهو في السهو » (٢٧) . ويشير ابن جني إلى إفادة اللغويين والنحويين من علل الفقهاء ، فيقول : « إنما ينتزع أصحابنا منها (٢٨) العلل لأنهم يجدونها منشورة في أثناء كلامهم ، فيجمع بعضها إلى بعض بالملاحظة والرفق » (٢٩) . وكان ابن الأنباري يرى أن القياس النحوي كالقياس في الفقه « بينهما من المناسبة ما لا خفاء فيه ، لأن النحو معقول من منقول ، كما أن الفقه معقول من منقول » (٣٠) .

وكان القصد من القياس « وضع الأحكام العامة للغة ، أو وضع القواعد لتلك النصوص التي انحدرت اليهم » (٣١) . وبهذا المعنى يشير ابن سلام في طبقات الشعراء إلى أن أبا الأسود الدؤلي هو أول من وضع قياس العربية . وحين اتسع التغير وعمق ، نشأت حياة جديدة فنشأت عند علماء اللغة حاجة إلى الفاظ جديدة تعبر عن هذه الحياة الجديدة . لكن مثل هذه الحاجة لم يكن ليلبيها القياس القديم ، فنشأ قياس جديد لاستنباط صيغ أو دلالات أو تراكيب جديدة ، واكتمل هذا القياس عند أبي علي الفارسي حتى أنه اعتبر زعيم المدرسة القياسية في القرن الرابع الهجري (٣٢) وكان أبو علي الفارسي يؤكد هذا القياس فيقول : « لأن أخطيء في خمسين مسألة مما بابة الرواية ، خير عندي من أن أخطيء في مسألة واحدة مما بابة القياس » (٣٣) وهكذا تطور القياس من كونه يؤسس ما روي في قاعدة عامة ، فأصبح يستنبط حالات جديدة ، وقواعد جديدة .

وآخر ما يعبر عن موقف المدرسة البصرية في هذا الصدد ما روي عن أبي عمرو بن العلاء حين سئل : « خبرني عما وضعت مما سميت به عربية ، أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ » ، فأجابه : لا ، فقال السائل : فماذا أنت صانع فيما خالفته في العرب وهي حجة ؟ فرد قائلا : أعمل على الأكثر ، وأسمي ما خالفني لغات » (٣٤) . أي أنه يؤسس القاعدة على الأمثلة الكثيرة ، أو على الحالة التي تكون أمثلتها هي الأكثر . أما قياس أبي علي الفارسي فهو استنباط كلمات جديدة لم تسمع ولم ترو عن العرب ، لكن استنباطها يتم « قياسا على ما سمع وروي » عنهم . ويسوغ ابن جني هذا القياس بقوله في الخصائص : ليس من شرط المقيس عليه الكثرة ، فقد يقاس على القليل لموافقته للقياس ، وقد لا يقاس على الكثير لمخالفته للقياس (٣٥) . وهذا النوع هو ما سمي « المطرد قياسا لا سماعا » (٣٦) . وقد عبر أبو علي الفارسي

من معنى هذا القياس بقوله : « ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب » . اي انه ليس « مثله » او « شبيها به » ، وانما هو جزء منه .

هكذا عرفت مباحث اللغة اتجاهين : الاتجاه النقلي او السماعي وهو اتجاه مدرسة الكوفة المتعصبة للنص ، والاتجاه القياسي الاجتهادي او العقلي وهو اتجاه مدرسة البصرة التي كانت تسمى النصوص التي تخالف ما اقامته من احكام وقواعد نصوصا شاذة ، وقد نما هذا الاتجاه واصبح اكثر اعتمادا على الاجتهاد والعقل عند ابي علي الفارسي وابن جني . وبما ان « اللغة لا تورث بل تكتسب » فهي « ملك من يتعلمها لا اثر للوراثة او الجنس فيها » ، فان هذا الاتجاه يبدو ، في ضوء التقدم الانساني ، وبخاصة في ضوء علم اللغات او اللسانية انه الاتجاه الصحيح .

ويرجع ابراهيم انيس سبب الخلاف بين علماء العربية الاقدمين في مسألة القياس الى اختلافهم في معنى السليقة اللغوية ، وتقعيد القواعد اللغوية ، ودور القياس . فالسليقة نوع من التعلم اي من الاكتساب ، وليست فطرية وراثية او جنس . وتقعيد القواعد يتم استنادا الى اللغة النموذجية الشائعة ، دون اعتبار اللهجات الخاصة . وهذا ما لم يدركه علماء العربية القدامى الذين اعتبروا اللهجات كلها ، على تفاوتها وتباينها ، حجة توضع القواعد استنادا اليها . وهكذا اضطربت القواعد ، واختلفت الآراء في المسألة الواحدة . ومرد ذلك الى انهم اضفوا طابع القداسة على كل ما نطق به العرب . اما حقيقة القياس فليست في العودة الدائمة الى النصوص التي سمعت عن العرب ، بل هي في العودة الى مخزون اللغة في حافظة الانسان . وليست ايضا في شيوع الظاهرة وحسب ، بل في طاقة هذا المخزون وتفاعلها مع الوجدان ، وعلى هذا فان القياس لا يجوز ان يقصر على « علماء اللغة » ، وانما يجب ان يقوم به كل من « يوثق به » من الادباء والشعراء (٣٧) .

III

يصف الجاحظ الدولة الاموية بانها « عربية اعرابية » (٣٨) . يكشف لنا هذا الوصف عن سياسة الدولة الاموية ، من الناحيتين القومية والثقافية . من الناحية الاولى كانت العصبية العربية روح الدولة والمدار الذي تدور عليه . وقد تجسدت هذه العصبية في المجالين النظري والعملي ، فاهمل غير العرب ، ومنعوا حقوقا كثيرة في طليعتها وظائف الامامة والقضاء (٣٩) . ومن

الناحية الثانية كانت السلفية اللغوية - الدينية روح الدولة ايضا والمدار الذي تدور عليه . وتجسد ذلك في المحافظة على اللغة والدين كما تركهما السلف ، وفي اعتبارهما جزءا جوهريا من الكيان القومي للعرب .

وكان لا بد لهذه السياسة ان تجد من يعارضها ، وي طرح بديلا لها . . . وطبيعي ان تلعب العناصر غير العربية دورا بارزا في هذه المعارضة . غير ان هذه المعارضة لم تكن رفضا للدين او اللغة او العروبة ، وانما كانت نوعا من المطالبة بفهمها فهما جديدا ، في ضوء الحياة الجديدة . كانت ، بتعبير آخر ، تريد ان تعطي لهذه الحياة طابعا جديدا هو ما يمكن تسميته بالاسلاموية ، فتتخطى بذلك طابع الجاهلية او العروبية العنصرية ، وهو ما رفضه الاسلام نفسه . وتحل بذلك مقولة المسلم ، ايا كان ، محل مقولة العربي . وبقدر ما كانت العنصرية العربية تبالغ في اعتبار اللغة والدين بمثابة حق موروث خاص بها ، كانت النزعة المعارضة تبالغ هي ايضا في رفض هذا الحق لان الاسلام آخى بين البشر ، فنفى بذلك العنصرية ودعاواها ، وجعل من الدين واللغة حقا للانسان ، لا كعربي ، بل كإنسان بما هو انسان ، في معزل عن جنسه ولونه .

ان في ذلك اصلا من اصول الصراع بين القديم والمحدث في اللغة والشعر . الاتجاه القائل بالتقديم يحافظ على هذا القديم ويعمل كل ما من شأنه ان يدعم هذه المحافظة . اما الاتجاه القائل بالمحدث فيعيد النظر ، ويعمل كل ما من شأنه ان يغير ويحدد . ومن الطبيعي ان يكون الاتجاه الاول نقليا ، وحين يستخدم العقل فلنكي يدعم النقل ، وان يكون الاتجاه الثاني ، على العكس ، عقليا ، والا يستخدم النقل الا لكي يدعم حكم العقل .

كان الاصمعي يمثل الاتجاه النقلي في اللغة ، وكان ابو عبيدة معمر بن المثنى يمثل الاتجاه العقلي (٤٠) . وكانت بينهما خصومة انتقلت الى انصارهما . ومما يقال عنهما ان طلاب العلم كانوا اذا اتوا مجلس الاصمعي اشتروا البر في سوق الدر ، واذا اتوا مجلس ابي عبيدة اشتروا الدر في سوق البر ، وفسرت هذه العبارة بانها تعني ان الاصمعي كان صاحب عبارة حسنة ، وان ابا عبيدة كان صاحب عبارة سيئة (٤٢) . ومن هنا كان يوصف الاصمعي بانه « احفظ الناس » ويوصف ابو عبيدة بانه « اجمعهم » (٤٣) ومن المفيد ان نشير هنا الى ان ابا نواس كان يميل الى ابي عبيدة . وقال مرة حول اشخاص ابي عبيدة والاصمعي الى الرشيد : « اما ابو عبيدة فانهم ان امكنوه من سفره قرأ عليهم اخبار الاولين والآخرين ، واما الاصمعي فلبيل يطربهم بنغماته » (٤٤) وهذا

يعني ان العلم لابي عبيدة ، اما الخطابة والانشاد فلأصمعي . ووصف الأصمعي بأنه كان « يتحدث في ثلث اللغة » ، وانه كان « ينفرد بالخلاف » ، و « يتفق ابو عبيدة وابو زيد في الرأي » (٤٥) . ولعل امتياز الأصمعي بجودة الانشاد عائد الى انه لم يكن يروي الا عن عربي خالص العروبة « و « الا اصح اللغات » (٤٦) . وكان لذلك يعتمد السماع اساسا وحيدا ، ولا يجيز ما يقاس على كلام العرب . وفي الاخبار ما يوضح موقف الأصمعي من القياس . فحين قرىء عليه قول جرير :

الم تعلم مسرحي القوافي فلا عيا بهن ولا اجتلابا

اي تسريحي ، انكر ذلك . وحين قرئت عليه الآية : ومزناهم كل ممزق ، امسك (٤٧) .

ويروي ان ابا حاتم السجستاني (توفي سنة ٢٥٥ هـ) سأل : اتقول في التهديد ابرق وارعد ؟ فقال : لا ، لست اقول ذلك ، الا ان ارى البرق واسمع الرعد . فانشد له قول الكميت :

ابرق وارعد يا يريد فما وعبدك لي بضائر

قال : الكميت جرمقاني من اهل الموصل ليس بحجة ، ولكن الحجة هو الذي يقول :

اذا جاوزت من ذات عرق ثنية فقل لابي قابوس ماشئت فارعد .

وهو شاعر جاهلي ، وشاعرك هذا متأخر لا يؤخذ بقوله .

قال ابو حاتم : فأتيت ابا زيد الانصاري وقلت له : كيف تقول من البرق والرعد فعلت السماء ، قال : رعدت وبرقت . قلت : فمن التهديد ؟ قال : رعد وبرق ، وارعد وابرق ، فاجاز اللغتين ولم يجز الأصمعي الا واحدة (٤٨) .

ويوضح الاتجاه السماعي عند الأصمعي موقفه من الفرق بين صيغة فعل وصيغة افعل . وهما صيغتان سماعيتان ، ولا يطرد فيهما القياس . وكان الأصمعي يلتزم بصيغة فعل في الفعل : كن ، اذا عنت الحفظ والصون ، استنادا الى ما سمعه من العرب ، فاکثرهم يقول : كنت الدر ، والجارية ، وكل شيء ، أي حفظته وصنته . اما صيغة افعل فتستعمل حين يريد القائل ان

يخفي الشيء في نفسه ، كأن يقول : اكننت الحديث او الامر في نفسي ، اي اخفيته .

غير ان ابا حاتم السجستاني روى ان ابا زيد الانصاري يخالف الاصمعي في رايه فقد قال : سمعت ابا زيد يقول : « اهل نجد يقولون اكننت اللؤلؤة والجارية ، فهي مكنة ، وكننت الحديث ، وكل صواب » . وفي اللسان : كننته وكننته بمعنى في الكن وفي النفس جميعا . فتقول كننت العلم وكننته ، فهو مكنون ومكن ، وكننت الجارية وكننتها فهي مكنونة ومكنة . فصاحب اللسان من راي ابي يزيد . وفي مثل هذا الخلاف كان الاصمعي يتمسك بالقرآن . وقد جاء المعنيان فيه ، بصيغتين مختلفتين . فالآية : كأنهم لؤلؤ مكنون (٤٩) تعني الصيانة والحفظ ، وهي من كننت . اما في الآية : « او اكننتم في انفسكم » (٥٠) ، فتعني الاخفاء ، وهي من اكن . غير ان ابا يزيد جوز الصيغتين ، لانه سمعهما من اهل نجد (٥١) . ومن الامثلة على هذا النقد اللغوي ما يروى عن الخليل انه قال : جاءنا رجل فانشدنا :

ترافع العز بنا فارنعمنا

فقلنا : هذا لا يكون . فقال : كيف جاز للعجاج ان يقول :

تفاعس العز بنا فاقعنسسا (٥٢)

وانتصر هذا الاتجاه وتبناه الشعراء المجددون وفي طليعتهم بشار . وكان الجاحظ نفسه يصفه بانه من المطبوعين اصحاب الابداع والاختراع (٥٣) . وكان بشار يقيس اللغة ويتصرف فيها على غير ما جاء عن العرب ، ويقول ابو الفرج انه كان احيانا يحشو شعره اذا اعوزته القافية والمعنى باشياء لا حقيقة لها (٥٤) . ويروي له المرزباني في الموشح نماذج من خروجه . فقد اشتق الفاظا على وزن فعلي ، لم ترد في اللغة . فقال :

والان اقصر عن سمية باطلاي واثار بالوجللى علي مشير

ويقول ايضا :

على الغزلي مني السلام فربما لهوت بها في ظل مخضلة زهر .

وكان الاخفش يطعن على بشار في قوله هذا ويقول : « لم يسمع من

الوجل والفزول « فعلى » ، وانما قاسهما بشار ، وليس هذا مما يقاس » .
وتقول الرواية ان بشارا هجا الاخفش حتى « بكى » ، وسئل بشار ان يكف
عنه ففعل « فكان الاخفش بعد ذلك يحتج في كتبه بشعره » (٥٥) .

وفي هذا الصدد يعلق ابراهيم انيس قائلا ان الاقدمين رأوا ان « امر
الكلام بالعربية يرتبط ارتباطا وثيقا بالجنس العربي ، ولذا ينكرون على
الفارسي او اليوناني امكن اتقان هذه اللغة كما يتقنها اهلها من العرب ، مهما
بدلوا في تعلمها وثابروا في المران عليها ، بل يظنون في رأيهم اجانب عن اللغة
كما هم اجانب عن الجنس العربي . فكأنما تصور هؤلاء الرواة ان هناك امرا
سحريا يمتزج بدماء العرب ويختلط برمالهم وخيامهم ، وهو سر السليقة
العربية ، يورثه العرب لاطفالهم ، وترضعه الامهات لاطفالهن في الالبان . ولذا
لم يتورع الرواة عن الاخذ من صبيان العرب والرواية عنهم ، ولذا لم يروا في
شعر ابي تمام والمتنبي ما يؤهلهم لتلك السليقة اللغوية التي قصروها على قوم
معينين ، وقصروها على زمن معين وقصروها على بيئة معينة ، فنشأ في
مخيلاتهم ما يمكن ان يعبر عنه بدكتاتورية الزمان والمكان ، مغالين في الحرص
على العربية والاعتزاز بها ، كما لو انهم لم يسمعوها بما روي من ان الرسول
صلى الله عليه وسلم حين سمع ان منافقا نال من عروبة سلمان الفارسي ،
دخل المسجد مغضبا وقال : ايها الناس ان الرب واحد ، والاب واحد ،
وليست العربية باحدكم من اب ولا أم ، وانما هي اللسان فمن تكلم بالعربية
فهو عربي » (٥٦) .

وكان « مجاز القرآن » لابي عبيدة مثار جدل بين اصحاب النزعة النقلية
السماعية واصحاب النزعة الاجتهادية العقلية (٥٧) . وكان هدفه من هذا
الكتاب ان يوضح ما يشتبه على الناس في قراءتهم آيات او عبارات قرآنية
غريبة تتجاوز المستوى اللغوي العام . وهذا الهدف يتطلب اعمال الراي
والعقل ، خصوصا ان في بعض الاستعمالات القرآنية للغة والعبارات « ما لا
يتفق اتفاقا دقيقا مع القواعد المنطقية التي شاعت في مجالس النحاة ، ولكنها
تتفق مع اسلوب العربية » (٥٨) . ويعني اعمال الراي والعقل اللجوء الى
التأويل ، اي البحث عن المعنى الخفي الكامن وراء ظاهر اللفظ . ويعمل ابو
عبيدة بعض دوافعه لتأليفه الكتاب بحاجة الناس في وقته الى فهم القرآن ،
ولم « بحتج السلف ولا الذين ادركوا وحيه الى النبي ان يسألوا عن معانيه
لانهم كانوا عرب اللسان ، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه ، وعما
فيه مما في كلام العرب مثله » (٢٩) .

وقد انتقد السلفيون من علماء اللغة والتفسير كتاب ابي عبيدة ، ورفع الاصمعي لواء الحملة عليه متهما اياه بانه « فسر القرآن برايه » . وفي الاخبار ان ابا عبيدة جاء الى الاصمعي بعد ان سمع تهمة ، فسأله : ما تقول في الخبز ؟ قال : هو الذي تخبزه وتأكله . فقال ابو عبيدة : فسر كتاب الله برايك ، قال تعالى : « اني اراني أحمل فوق راسي خبزا » . قال الاصمعي : هذا شيء بان لي فقلته ، ولم افسره برايي . فقال له ابو عبيدة : وهذا الذي تعبى علينا ، كله شيء بان لنا فقلناه ولم نفسره براينا » (٦٠) . ويحمل هذا الخبر كثيرا من السخرية المرة ازاء الاصمعي .

ويروى ان ابا عمرو الجرمي (توفي سنة ٢٢٥ هـ .) حمل كتاب المجاز وذهب الى الاصمعي الذي نظر فيه ، ثم قال لابي عمرو : يقول ابو عبيدة في كتابه : الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، اي لا شك فيه . فما يدريه ان الريب هو الشك ؟ قال ابو عمرو : انت فسرنا لنا في شعر الهذليين :

فقالوا تركت القوم قد حصروا به فلا ريب أن قد كان ثم لحيم

فامسك الاصمعي ، ورد الكتاب (٦١) .

ويروى عن ابي حاتم السجستاني انه قال عن كتاب المجاز : « انه لكتاب ما يحل لاحد ان يكتبه ، وما كان شيء اشد علي من ان اقراه قبل اليوم ، ولقد كان ان اضرب بالسياط اهون علي من ان اقراه » (٦٢) . ويقال ان الجرمي سال ابا عبيدة بلهجة من ينكر عليه تأليف الكتاب : عمن اخذت هذا يا ابا عبيدة ، فان هذا تفسير خلاف تفسير الفقهاء ؟ فقال له وقد ضاق به : هذا تفسير الاعراب البوالين على اعقابهم ، فان شئت فخذ ، وان شئت فدعه » (٦٣) .

اما الفراء الذي كان يحقد على ابي عبيدة ، بدافع العصبية ، قال : « لو حمل الي ابو عبيدة لضربته عشرين في كتاب المجاز » (٦٤) . لكن تجدر الاشارة الى الموقف العلمي السليم الذي وقفه الاخفش (ابو الحسن سعيد بن مسعدة ، توفي سنة ٢١٥ هـ . / ٨٣٠ م) ، فقد ذكر ابو حاتم السجستاني انه « اخذ كتاب ابي عبيدة في القرآن ، فاسقط منه شيئا وزاد شيئا وابدل منه شيئا . قال ابو حاتم فقلت له : اي شيء هذا الذي تصنع ؟ من اعرف بالغريب ، انت او ابو عبيدة ؟ فقال : ابو عبيدة . فقلت هذا الذي تصنع ليس بشيء . فقال : الكتاب لمن اصلحه وليس لمن افسده » (٦٥) .

في رأي ابن جني ان « اهل الكوفة اعلم بالاشعار من اهل البصرة » ذلك انه كان في الكوفة آثار مكتوبة ، كما يروى ، كان النعمان قد أمر بجمعها ونسخها (٦٦) . وبينما كان الشعر في البصرة وسيلة لاستنباط اللغة والاحاطة بها ، كان في الكوفة استعادة لماض يحن اليه سكانها . لذلك لم يكن عجيبا ان يظهر فيها اربعة رواة للشعر يعتبرون من اكبر الرواة وهم حماد الراوية (توفي سنة ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م) والمفضل بن محمد الضبي (توفي سنة ١٧٨ هـ) . وبزرج بن محمد العروضي وابو عمرو الشيباني (توفي سنة ٢٠٦ هـ) . ويظهر ان الشعر في الكوفة كان طقسا دائما ، وعادة يومية . كان نوعا من اللعب يمارسه الناس لتجديد حيويتهم الذهنية ، او لتزجية الوقت . وقد عاب الامام علي ، مرة ، على اهل الكوفة هذا الانصراف الى الشعر ، فقال يخاطبهم : « اذا تركتم عدتم الى مجالسكم حلقا عزين ، تضربون الامثال وتنشدون الاشعار . تربت ايديكم » (٦٧) .

ويمثل الفراء في كتابه معاني القرآن الموقف العام لاتجاه علماء الكوفة في فهم اللغة والقرآن . وقد كتبه الفراء في بغداد قبيل وفاته (٦٨) . وهو ، في شروحه ، يذكر اولا مختلف القراءات ، ويذكر معها طريقة القراءة عند البدو ، ثم يدرس قضايا النحو ، مقارنا بين الكلمات في القرآن ونظائرها في المأثور الجاهلي ، ولا يكتفي في دراسته بالاعتماد على قواعد النحاة وانما يلجأ الى الحس اللغوي الفطري . وحين ينشأ تعارض بين ما قالته العرب ، وما تقوله القاعدة النحوية ، فانه يختار ما قالته العرب ، شأن الكوفيين (٦٩) .

ومن الجدير بالملاحظة ان نشير الى ان علماء الكوفة لموا الخلافة وسلطانها ، انسجاما مع سلفيتهم الثقافية ، بينما ترفع علماء البصرة عن ذلك . كان المفضل الضبي ، مثلا ، مقربا الى المنصور ، وقد عهد اليه بتأديب ولي عهده المهدي ، فاختر له الاشعار التي عرفت باسمه : المفضليات (٧٠) . وكان ابن الاعرابي مؤدبا لابن سعيد بن قتيبة الباهلي ، وعهد المهدي الى الكسائي تأديب ولي عهده الرشيد ، وجعله الرشيد من جلسائه ومؤانسيه ، وعهد اليه بتأديب الامين (٧١) . واتصل الفراء بالرشيد والى للمؤمن كتاب الحدود في النحو ، وعهد اليه ان يعلم النحو لولديه (٧٢) . وكان ابن السكيت تلميذ الفراء معلما لاولاد المتوكل (٧٣) . وكان ابو جعفر محمد بن عمران الكوفي النحوي مؤدبا لعبدالله بن المعتز (٧٤) .

مقابل ذلك ، وبخ الحسن البصري بعض القراء الذين وقفوا على باب

ابن هبيرة قائلاً : « ما يجلسكم ها هنا ؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء ؟
 اما والله ما مجالستهم بمجالسة الابرار . تفرقوا ، فرق الله بين ارواحكم
 واجسادكم . لقد لقحتهم نعالكم ، وشمرتم ثيابكم ، وجزرتهم شعوركم ، فضحتهم
 القراء فضحككم الله . اما والله لو زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم » (٧٥) .

ويرسل سليمان بن علي الامير العباسي ، وكان واليا على الاهواز ، الى
 الخليل بن احمد يطلب اليه تاديب ابنه ، فيقدم للرسول خبرا يابسا ويقول
 « ما عندي غيره ، وما دمت اجدته فلا حاجة لي في سليمان » (٧٦) . وحين كان
 بعض علماء البصرة يذهبون الى بغداد ، كالاصمعي وابي عبيدة والمبرد ، فانما
 كانوا يذهبون تلبية لدعوة من ذوي السلطان (٧٧) . بل ان بعض علماء البصرة ،
 مثل ابي عبدالله اليزيدي ، آزر ثورة ابراهيم بن عبدالله على الدولة
 العباسية (٧٨) .

من هنا نفهم كيف ان الاتجاه الغالب في البصرة كان عقليا يعتمد القياس
 لكن على الاعم الاغلب اي الشائع المشهور ، اما الخصوصي او الشاذ فلا باس
 ان يحفظ ، لكن لا يجوز ان يقاس عليه . ونفهم ، بالمقابل ، كيف ان الاتجاه
 الغالب في الكوفة كان يجوز القياس على كل ما سمع من العرب ، حتى على
 الشاهد الواحد الذي يخالف الشائع العام و « كيف كان يجوز ، تبعاً لذلك ،
 ان تبني قاعدة نحوية على شاهد واحد . فالكوفيون والبصريون يجمعون على
 القياس كمبدأ ، لكنهم يختلفون في مدى تطبيقه ، تبعاً لاختلافهم في وجهات
 النظر (٧٩) . الخلاف بتعبير آخر ، بين البصريين والكوفيين ، هو ان النص
 يتبع القاعدة بالنسبة للبصريين ، وان القاعدة تتبع النص بالنسبة للكوفيين .

وكان على رأس الاتجاه السماعي ابو عمرو بن العلاء ، كما اشرنا . وكان
 من التعصب للتقديم بحيث انه لم يرو شعر جرير والفرزدق وامثالهما ، رغم
 استحسانه له . وكان يعتبرهما مولدين (٨٠) . وتابعه الاصمعي الذي كان
 لا يروي الا عن عربي خالص العروبة .

وفي بغداد اكمل ثعلب الاتجاه السماعي (٨١) الذي كان يرد كل ما يخرج
 عن عادة العرب ولا يجري على فطرتهم . وكان « يسلم بكل ما صدر عن العرب
 على اختلاف لغاتهم اذا كان محصوراً بالتبعية والرواية والسماع » أما
 القياس فلم يجزه « ألا ان يكون مطرداً على الاصل المعروف من غير
 تحريف » (٨٢) .

وتابعه ابن قتيبة الذي لم يجز القياس على ما نطق به العرب (٨٣) وابو سعيد السريافي (توفي سنة ٣٦٨ هـ .) . واكمل المبرد الاتجاه القياسي . وفيما كان ثعلب يكتفي بان ينقل ويشرح نقليا ، فان المبرد كان يتجاوز النقل الى التحليل وابداء رايه . ومن هنا كان المبرد اول من عني بالشعر الحديث . فقد جاء في مقدمة كتابه « الفاضل » قوله : « وسنذكر في كتابنا هذا ابوابا من كلام العرب وبعض ما روي عنها ونثرا من اخبارها ونفصل ذلك باشعار واخبار من قديم وحديث وما بينهما » (٨٤) . وبتأثير المنحى الحديث لم يثبت ابن دريد (٨٥) (توفي سنة ٣٢١ هـ .) في كتابه « الجوهرة في اللغة » الالفاظ الوحشية المستنكرة ، خلافا لما كانت عليه العادة في التأليف ، ورتب الالفاظ على الحروف الابجدية ، لا على مخارجها كما فعل الخليل بن احمد في كتاب العين .

وقد وصف الاتجاه الكوفي في بغداد بالمكابرة ، ووصف الاتجاه البصري بالمجادلة (٨٦) . الصفة الاولى تشير الى التمسك بالنقل ، والصفة الثانية تشير الى التمسك بالعقل .

وكان الدين يتمسكون بالسمع يستمدون حجيتهم من الطبع الذي لا يمكن ان يحيط به القياس . كان عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ممن يتردد على الحياة الحضرية ، فتوخذ عنه اللغة . وقد سمعه مرة ابو حاتم السجستاني يجمع الريح في شعره على ارياح ، فقال له : هذا لا يجوز ، انما هو الارواح . فقال عمارة : لقد جذبني اليها طبعي (٨٧) . وتحول السماع اخيرا الى نقل . ويعرفه ابن الانباري بقوله : « هو الكلام العربي الفصيح المنقول بالنقل الصحيح الخارج عن حد القلة الى حد الكثرة » . والنقل اما ان يكون متواترا كلفة القرآن وما تواتر من السنة وكلام العرب ، والشرط فيه ان يبلغ ناقلوه عددا لا يجوز اتفاهم على الكذب او احادا والشرط فيه ان يكون ناقله عدلا ، كما يشترط في نقل الحديث (٨٨) . فابن الانباري لا يجيز القياس في اللغة (٨٩) ، ويقول فخر الدين الرازي (توفي ٦٠٦ هـ . / ١٢١٠ م) ان « الطريق الى معرفة اللغة النقل المحض » (٩٠) ويمكن ايجاز الخصائص النحوية لمدرسة الكوفة كما يلي : الاخذ بكل ما جاء عن العرب ، واعتباره اساسا يجوز القياس عليه ، حتى لو كان شاذا . يقول السيوطي : « مذهب الكوفيين القياس على الشاذ » (الاقتراح ، ص ١٠٢) ويقول عنهم ، انهم كانوا : « اذا سمعوا لفظا في شعر او نادر كلام جعلوه بابا او فصلا » . (همع الهوامع ، للسيوطي : ٤٥/١) . ويقول الاندلسي : « لو سمعوا بيتا واحدا

فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوبوا عليه » (الاقتراح ، ص ١٠٠) ، ويصف الكسائي بأنه « كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً ويقيس عليه » (بغية الوعاة ، ص ٣٣٦ . ومعجم الأدباء : ١٩٠/٥) .

أما الاتجاه القياسي (٩١) فبلغ أوجه مع أبي علي الفارسي (توفي سنة ٣٧٧ هـ) وأبي الفتح عثمان بن جني (توفي سنة ٣٩٢ هـ .) (٩٢) . كان أبو علي الفارسي يتبنى قول أبي عثمان المازني : « ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب » (٩٣) ، وبالغ في تفسير هذا الكلام فقال : « إذا قلت طاب الخسكنان ، فهذا من كلام العرب لأنك بأعراك إياه قد أدخلته كلام العرب » (٩٤) ، فالكلمة تصبح عربية بمجرد قابليتها لتقبل حركات الأعراب . وهكذا شقق اللغة ، انطلاقاً من نظريته العقلية إلى خصائصها .

وخطأ ابن جني في هذا الاتجاه خطوة كبيرة . وافاد كثيراً ، من أراء ابن مقسم (٩٥) ، بالإضافة إلى ما أفاده من أبي علي الفارسي . وكان يسمي القياس اللغوي « العلم اللطيف الشريف » (٩٦) و « أكثر الناس يضعف عن احتمال لغموضه ولطفه » (٩٧) وفي الخصائص باب بعنوان : « هل يجوز لنا في الشعر من الضرورة ما جاز للعرب ؟ » ويجيب بأن يورد جواب أبي علي الفارسي : « كما جاز لنا أن نقيس منشورنا على منشورهم فكذلك يجوز لنا أن نقيس شعرنا على شعرهم ، فما أجازته الضرورة لهم ، أجازته لنا ، وما حظرته عليهم ، حظرته علينا » (٩٨) .

غير أن ابن جني لا يتبنى ، مع ذلك ، القياس بشكل مطلق . يقول : « لكن القوم بحكمتهم وزنوا كلام العرب فوجدوه على ضربين أحدهما ما لا بد من تقبله كهيئته ، نحو حجر ودار . ومنه ما وجدوه يتدارك بالقياس ، وتخف الكلفة في علمه على الناس ، فنقلوه وفصلوه . فلما رأى القوم كثيراً من اللغة مقبلاً منقاداً وسموه بمواسمه ، وغنوا بذلك عن الإطالة والإسهاب فيما ينوب عنه الاختصار والإيجاز . ومعاذ الله أن ندعي أن جميع اللغة تستدرك بالإداة قياساً » (٩٩) ثم يقول : « فإذا تعارض القياس والسمع نطق بالمسموع على ما جاء عليه نحو : « استحوذ عليهم الشيطان » (سورة المجادلة : ١٩) . . . ويتابع : « هذا ليس بقياس ولكنه لا بد من قبوله ، لأنك إنما تنطق بلغتهم » . وينتهي قائلاً : « إذا ادّك القياس إلى شيء ما ، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره ، فدع ما كنت عليه » (١٠٠) . وهذا يعني أن

ابن جني لا يلجأ الى القياس الا فيما لم يرد به سماع . ومن هنا اصبح القياس ابتكارا لصيغ وعبارات جديدة (١٠١) .

IV

يجب ان نتوقف ، في هذا السياق ، عند مسألة تتعلق بالخلاف حول طبيعة اللغة : هل هي توقيف والهام ام اصطلاح وتواضع ؟ وقد بحث هذه المسألة علماء اللغة قبل ابن جني وابي علي الفارسي (١٠٢) . وقال بالتوقيف العلماء الذين يقولون بان القرآن ازلي غير مخلوق (١٠٣) . وكان احمد بن فارس (توفي سنة ٣٩٥ هـ) وهو معاصر لابن جني يقول بالتوقيف . مستندا الى آيات قرآنية ، منها : « وعلم آدم الاسماء كلها » (البقرة : ٣١) . « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السننكم » (الروم : ٢٢) اي اختلاف لغتكم . ويدعم رأيه قائلا : « والدليل على صحة ما نذهب اليه اجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه او يتفقون عليه ، ثم احتجاجهم باشعارهم ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا لم يكن اولئك في الاحتجاج بهم باولى منا في الاحتجاج لو اصطلاحنا على لغة اليوم ، ولا فرق » (١٠٤) . ويتابع قائلا ، « ولم يبلغنا ان قوما من العرب في زمان يقارب زماننا اجمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه ، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح كان قبلهم » (١٠٥) ويرى احمد بن فارس ان القدامى كانوا يعرفون علمي النحو والعروض وان الدؤلي والخليل جدداهما (١٠٦) .

والى هذا الراي يذهب ابو علي الفارسي مستندا كذلك الى الآية : « وعلم آدم الاسماء كلها » (١٠٧) الا انه يوافق ابن جني في تأويله لهذه الآية من ان الله منح لادم القدرة على ان يواضع عليها . ووافق الاخفش كذلك على هذا التأويل (١٠٨) . وهكذا يوفق ابن جني بين التوقيف والمواضعة ، لكن في كثير من التردد . يقول : « انني على تقادم الوقت ، دائم التنقيح والبحث عن هذا الموضع فاجد الدواعي والخواج قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات التناول على فكري ، وذلك انني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقّة ، ما يملك علي جانب الفكر حتى يكاد يطمح به امام غلوة السحر . فمن ذلك ما نبه عليه اصحابنا رحمهم الله ، ومنه ما حدوته على امثلتهم ، فعرفت بتتابعه وانقياده وبعد مراميه وآماده صحة ما وفقوا لتقديمه منه ولطف ما اسعدوا به ، وفرق لهم عنه وانضاف الى ذلك وارد الاخبار الماثورة بانها من عند الله جل وعز فقوى فسي

نفسى اعتقاد كونها توفيفا من الله سبحانه ، وانها وحى . . . ثم اقول في ضد هذا : كما وقع لاصحابنا ولنا ، وتنهبوا وتنهبنا على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة ، كذلك لا ننكر ان يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا - وان بعد مداه عنا - من كان اللفظ منا اذهانا واسرع خواطر واجرا جنانا ، فاقف بين تين الخلتين حسيرا واكثرهما فانكفىء مكثورا ، وان خطر خاطر فيما بعد يعلق الكف باحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتهما قلنا به « (١٠٩)

فاللغة ، على هذا ، تواضع والهام معا (١١٠) وقد « وقع في اول الامر بعضها ثم احتيج فيما بعد الى الزيادة عليه لحضور الداعي اليه ، فزيد فيها شيئا فثبتا ، الا انه على قياس ما كان سبق منها في حروفه وتأليفه واعرابه المبين عن معانيه لا يخالف الثاني الاول ولا الثالث الثاني كذلك متصلا متتابعاً » (١١١) . لكن ما الجانب الالهامي في اللغة ، وما جانب الاصطلاح ؟ ان المنحى العام لتفكير ابن جنى يميل الى الاجابة بان اللغة ، بما هي الفاظ ودلالات انما هي تواضع لا توقيف . وينحصر التوقيف في قدرة الانسان على النطق ، فهذه الهام من الله ميز بها الانسان عن سائر مخلوقاته . ثم ان اللغة لم توضع في وقت واحد ، وانما وضعت بشكل متلاحق متتابع ، تبعا للدواعي كما يعبر ابن جنى . وفي هذا القول اشارة الى ان اللغة ظاهرة اجتماعية ، تنمو وتتسع وتتطور .

اما ابو هاشم الجبائي (٢٤٧ - ٣٢١ هـ / ٨٦١ - ٩٣٣ م) ومن تابعه من المعتزلة فيقول بان اللغة مواضعة واصطلاح . وهؤلاء يدافعون عن وجهة نظرهم بادلة عقلية وعقلية كذلك . فمن الادلة العقلية ، الآية : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » . (ابراهيم : ٤) ، اي بلغتهم ، وهذا يقتضي تقدم اللغة على ارسال الرسول والقول بالتوقيف يناقض مضمون هذه الآية لانه يعني القول بان ارسال الرسل متقدم على اللغة .

ومن الادلة العقلية قولهم ان اللغة لو كانت توقيفية لصح القول ان الله يخلق العلم الضروري بوضع هذه اللفظة لهذا المعنى . والعلم الضروري اما ان يخلقه الله في عاقل او في غير عاقل . والامران باطلان : لان العلم بان الله وضع هذه اللفظة لهذا المعنى يتضمن العلم بالله ، ولو كان ذلك العلم ضروريا ، لكان العلم بالله ضروريا ، وهكذا يبطل التكليف . وهذا باطل ، لانه ثبت ان كل عاقل يجب ان يكون مكلفا . ثم انه بعد كثيرا ان يصير الانسان غير العاقل عالما

بهذه اللغات العجيبة . ولا يجوز ، بالتالي ، أن يكون العلم بها غير ضروري ،
لأنه ان لم يكن ضروريا احتيج الى توقيف آخر ، ولزم التسلسل (١١٢) .

ومن الأدلة العقلية القول ان الصلة بين الالفاظ ومدلولاتها عرفية ، فلا
يمكن الوقوف مثلا على السبب في تسمية الشجرة شجرة والحجر حجرا ،
وكان من الممكن ان يكون لهما اسمان آخران . ففي اللغة ، من هذه الناحية ،
جانب لا يخضع للمنطق او للعقل اي انه نوع من المصادفة ، وهذا لا يصح ان
ينسب الى الله . اصف الى ذلك ان للمعاني المشتركة في العقل البشري ، الفاظا
مختلفة في كل لغة (١١٣) .

الفصل الثالث

في الحركة النقدية الصحفية :
الصولي والامدي

كان الشعر المحدث يمثل تجاوزا لمقياس الاولوية الزمنية من جهة ، ومقياس الاولوية اللغوية من جهة ثانية . ولهذا كان قبوله او تسويغه قبولا لمبدأ التجاوز .

والمبرد (١) بين اوائل علماء اللغة الذين وقفوا من التحول الشعري موقف القبول ، مبدئيا . فقد اعتمد الشعر المحدث اصلا من اصوله التي يدرسها لطلابه .

ويشير ابن المعتز الى انه شرح له قصيدة لابن نواس (٢) . واورد منه نماذج في كتابيه « الكامل » و « الفاضل » ، وخصص له كتابا كاملا هو « الروضة » ، ذكره ياقوت (٣) ، وقال عنه ابن الاثير انه « كتاب جمع فيه اشعار شعراء عصره ، بدأ فيه بابي نواس ثم بمن كان في زمانه وانسحب على ذيله » (٤) .

هكذا شارك المبرد في توجيه نظر النقاد والقراء الى مبدأ الاجادة ، والى ان مبدأ القدم ليس كافيا بذاته . ومن هنا وضعه ابن سنان الخفاجي بين النقاد الذين يقولون : « لا فضل لتقديم على محدث ، ولا لمحدث على قديم ، الا بالاجادة » (٥) وهذا ما يعبر عنه المبرد نفسه ، بقوله : « وليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لمحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطي كل ما يستحق » (٦) وهذا يعني ان النص بذاته مدار التقييم ، دون اي اعتبار للزمن الذي كتب فيه او لكاتبه . وقد ادى اخذه بهذا المبدأ الى ان يلاحظ العصرية

واهميتها ، من حيث انها تكشف عن اذواق الناس واهتماماتهم ، والى انها بالتالي تتضمن قيمة شعرية لا يجوز اهمالها . وبهذه النظرة كان يختار اشعار المحدثين او المولدين مسوغا اختياره بانها « حكيمة مستحسنة يحتاج اليها للتمثل ، لانها اشكل بالدهر » (٧) ، اي لانها اكثر التصاقا بالحياة وتعبيراً عنها من الشعر القديم .

ويدل استشهاده بشعر ابي تمام في اماكن كثيرة من كتاب « الكامل » ، وتمثله به ، للمقارنة بغيره او لنقده ، على خبرته بهذا الشعر وتفهمه اياه . ويفضله احيانا على غيره ، معللا سبب تفضيله بطرافة ابي تمام وحذقه بالكلام . ويضيف قائلاً : « وليس بناقصه حظه من الصواب انه محدث » (٨) ويروي له الصولي قوله عنه وعن البحتري « والله ان لابي تمام والبحتري من المحاسن ما لو قيس باكثر شعر الاوائل ، ما وجد فيه مثله » (٩) . وفي رواية ان عبدالله ابن المعتز قال له يوما : « يا ابا العباس ضع في نفسك من شئت من الشعراء ، ثم انظر : ايحسن ان يقول مثل ما قاله ابو تمام لابي المغيث موسى بن ابراهيم الرافقي يعتذر اليه ؟ فقال ابو العباس محمد بن يزيد : ما سمعت احسن من هذا قط (وكان ابن المعتز قد قرأ عليه بضعة آيات) ، ما يهضم هذا الرجل حقه الا احد رجلين : اما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام ، واما عالم لم يتبحر شعره ولم يسمعه » (١٠) وهذه النظرة لشعر ابي تمام جعلت المبرد يفضل الجيد منه على « شعر البحتري وشعر من تقدمه من المحدثين » (١١) .

وكان الشعر المحدث ، وبخاصة شعر ابي تمام ، يبلبل ذائقة بعض النقاد ويحيرهم . يدل على ذلك ما يروي عن العالم اللغوي التوجي او التوزي (١٢) ، من انه قال حين سئل عن شعر ابي تمام : « فيه ما استحسنته ، وفيه ما لا اعرفه ولم اسمع بمثله . فاما ان يكون هذا الرجل اشعر الناس جميعا ، واما ان يكون الناس جميعا اشعر منه » (١٣) .

وكما انقسم علماء اللغة ازاء حداثة ابي تمام ، انقسم كذلك الشعراء والكتاب . وبين الذين وقفوا الى جانب هذه الحدائث ودافعوا عنها علي بن الجهم ، (١٤) وابو الشيص الذي وصف ابا تمام عند موته بقوله « اكبر فني الارض من الارض » (١٥) وابن ابي فنن (١٦) ، وعمارة بن عقيل (١٧) ، الذي قال حين سمع شعره في الاغتراب لقد حجب الاغتراب ، وهو اشعر الناس (١٨) و « وجد ما ازلته الشعراء ، حتى كأنه كان مخبوءاً له » (١٩) ، والبحتري الذي كان يرى فيه اماما له ، وابن الرومي (٢٠) الذي كان يعترف بتتلمذه

عليه ، شأن البحري (٢١) والذي كان يرى ان البحري اخذ معانيه الجيدة كلها من ابي تمام .

وارى البحري يسرق ما قال ابن اوس في المدح والتشبيب
كل بيت له وجود معناه فمعناه لابن اوس حبيب

ومن هؤلاء الشعراء ابن المعتز (٢٢) الذي كان يصف شعر ابي تمام بانه « كله حسن » او يقول « اكثر ما له جيد » وان البحري « يفرق في بحره » وليس « في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبعد الكثيرة » (٢٣) .

ومنهم ابراهيم بن العباس الصولي (٢٤) الذي كان يقول لابي تمام : « امراء الكلام رعية لاحسانك » (٢٥) ، وكان يعتبره « اشعر اهل زمانه » (٢٦) . وقد وقف معظم الكتاب في القرن الثالث الهجري الى جانب ابي تمام .

منهم الحسن بن وهب (٢٧) الذي كان يصف شعره بانه يجيء منه كالمعجزة « (٢٨) ، ويقول انه لا يعرف شعرا قديما او حديثا افضل من شعره ، « ولا ابداع معاني ، ولا اغرب لفظا » ، وان القدماء كانوا يجيدون في البيت او البيتين من القصيدة ، وابو تمام يجيد في قصيدته كلها (٢٩) .

ومن هؤلاء الكتاب عون بن محمد (٣٠) الذي كان يقول : « من استطاع ان ياخذ المعنى فيصنع به صنع ابي تمام ، والا فلا يتعرض له » (٣١) .

ويقف ابن قتيبة (٣٢) من الشعر المحدث هذا الموقف نفسه . فهو يقول في مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » ما يلي : « ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، واعطيت كلا حظه ، ووفرت عليه حقه . فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده ، الا انه قيل في زمانه او أنه رأى قائله . ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عبادته في كل دهر ، وجعل كل تقديم حديثا في عصره ، وكل شرف خارجية في اوله . فقد كان جرير والفرزق والاخلط وامثالهم يعدون محدثين وكان ابو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن ، حتى لقد هممت بروايته . ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخريمي والعتابي

والحسن بن هانيء واشباههم . فكل من اتى بحسن من قول او فعل ذكرناه له واتيننا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله او فاعله او حدائنه سنه ، كما ان الرديء اذا ورد علينا للمتقدم او الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » (٣٣) .

ان في هذا النص ما يشير الى ان الحدائنه ظاهرة ضرورية وطبيعية ، والى ان قيمة الشعر ذاتية لا خارجية ، فلا يفيدته مجرد كونه متقدما في الزمان ، ولا يضره مجرد كونه متأخرا .

كان النقد ، مع ذلك ، في القرن الثالث الهجري ، دون مستوى الابداع الشعري . وقد اقتصر جهد النقد على قبول الشعر المحدث ، فهم لم يعرفوا كيف يكشفون معنى التحول الذي حققه ، او طمح اليه ، ولم يعرفوا ، بالتالي ، كيف ينظرون له . ولهذا بقي التنظير الاتباعي سائدا . ومن هنا كان لا بد لمن يريد ان يدرس هذا التحول من ان يعود الى النتاج الشعري ذاته . غير انني ساقف عند محاولتين قام بهما الامدي في « الموازنة » والصولي في « اخبار ابي تمام » لعرض جدلية القديم - المحدث كما نشأت واكتملت في القرن الثالث ، مع ان صاحبيهما عاشا في النصف الاول من القرن الرابع . ففي هاتين المحاولتين تتضح جدلية القديم - المحدث ، وتتجلى الخطوط الاساسية الكبرى لمعنى القديم الشعري من جهة ، ولمعنى المحدث الشعري ، من جهة ثانية ، كما كان ينظر اليهما النقد في القرن الثالث الهجري . وهو نظر استمر في القرون التالية بتنوعات وتفصيلات وسعته وزادته وضوحا ، لكنها لم تضيف اليه شيئا جوهريا يغير طبيعته الاولى .

II

يعرض الصولي في رسالته الى ابي الليث مزاحم بن فاثك ، التي هي بمثابة مقدمة لكتابه « اخبار ابي تمام » (٣٤) ، لصورة حية عن الحركة النقدية التي اثيرت حول شخصية هذا الشاعر وشعره . ويبدأ بالاشارة الى « افتراق آراء الناس فيه » بشكل يدعو الى « العجب » (٣٥) . وهو يقسم المفترقين فيه الى قسمين : معه ، وهم العارفون بالشعر المعرفة الحقيقية . وعليه ، وهم المدعون المقلدون الذين لا دليل لديهم ولا حجة . والقسم الاول مرتبتان : الاولى تعطيه حقه وموضعه في الشعر ، والثانية تبالغ فتجعله « نسيج وحده ، وسابقا لا مساوي له » .

اما القسم الثاني ، فمدع ومفلد . وما من احد « من الصنعين » ، يجرو
ان يقرأ له قصيدة واحدة ، مخافة أن ينفض عجزه ازاء ما لم يعرف
متله « (٣٦) .

كان هذا الوضع غير « العادل » ازاء ابي تمام يحتاج الى شخص «عدل» .
هذا الشخص هو الصولي نفسه ، كما يشير الى ذلك بصراحة . وهكذا اخذ
على نفسه ان يتبع اخبار ابي تمام ويعمل شعره كله « معربا مفسرا » حتى لا
يشذ منه حرف ولا يغمض منه معنى ، ولا ينبو عنه فهم ، ولا يمجحه سمع « (٣٣) .

ويحرص الصولي على ان يميز نفسه عن اهل زمانه الذين يتقاسمهم
الغلو مدحا او ذما ، والادعاء بما لا صلة لهم به . ومن اسباب ذلك رغبته في
ان يوحى او ان يثبت انه « عدل » ، وان شهادته في ابي تمام شهادة عادلة .
وهكذا يلحق نفسه « بالقدماء الماضين ، الاستاذين ، العلماء » ، وينفصل عن
اهل زمانه من « المتحليين بالادب » الذين « يطلب الرجل منهم فنا من فنون
الاداب ، فيقسم له حظ فيه ، وينال درجة منه ، فلا يرى ان اسم العالم يتم
له ، ولا ان الرياسة تنجذب اليه الا بالطعن على العلماء ، والوضع من ماضيهم
والاستحقاق لباقيهم » ولا يكتفي بذلك ، بل انه « يدعي من العلوم ما لم يخطر
له ببال ، ولا كد فيه ذهنا ، ولا حمل الى اهله قدما ، ولا عرف له طالبا ،
ويظن انه متى لم يعلمه لم يعد عالما ، ولم يحسب رئيسا » (٣٨) غير انه يستثني
من هؤلاء جميعا شخصين هما المبرد ، وثلعب (٣٩) اللذين « لم يدعيا ما لم
يحسنا ، ولا اجابا في الذي لم يعرفا » (٤١) . وحين يقارنهما باولئك يقول :
« وليس احد ممن اومات اليه في زماننا هذا يعشر عند احشيق الناس له ، ومن
رين على قلبه في محبته والتعصب له ، واحدا منهما ولا يدانيه في حال » (٤١) .

بعد ذلك ، يحاول الصولي ان يعلل الاسباب التي دفعت «ببعض العلماء»
الى « اجتناب » شعر ابي تمام و « عيبه » ، من جهة ، وان يعلل كذلك الاسباب
التي دفعت « الصنف الثاني » ، اي غير العلماء ، الى أن يعيبوا شعره .

اما فيما يتعلق بالعلماء ، فان الصولي لا يستغرب موقفهم ، فيقول
لمزاحم بن فاتك : « لا تنكر ان يقع ذلك منهم » . ثم يعدد له اسباب ذلك ،
ويمكن ان نوجزها في سبعة :

١ - الفتهم لاشعار الاوائل بحيث سهلت عليهم .

- ٢ - رواية « الأئمة » لها - ومما شاتها . وايضاح معانيها .
 - ٣ - مجازاة هؤلاء الأئمة فيما ذهبوا اليه .
 - ٤ - تشابه الفاظ القدماء وترابطها بحيث يتمكنون من ان يعرفوا منها ما صعب بما سهل .
 - ٥ - عدم وجود رواة للنسب المحدث ، شأن الشعر القديم .
 - ٦ - التقصير في روايته ادى الى التقصير في فهمه ، فجعله العلماء ، فعادوه .
 - ٧ - عدم الاعتراف بهذا التقصير مما ادى بهم الى الطعن على الشعر المحدث ، وبخاصة ، شعر ابي تمام ، وذلك تعويضاً منهم عن جهلهم ، وسترا لنقصهم (٤٢) .
- ويمثل الصولي على ما يذهب اليه في شأن هؤلاء العلماء بحكاية توضح ان احدهم استحسن كثيراً شعر ابي تمام ، بعد ان شرحه له ثعلب ، وتشير هذه الرواية الى ان الانسان ، ولو كان « عالماً » ، عدو ما جهل (٤٣) .
- اما الصنف الثاني ، فكانت اسباب معاداتهم لابي تمام من نوع آخر : طلب الشهرة ، لخمولهم وسقوطهم (٤٤) ، وهؤلاء ذوو « منزلة حقيرة يسان عن ذكرها الدم » (٤٥) .
- ويخلص الصولي من نقده لهؤلاء واولئك بان ابا تمام لو عابه من يعلم بالشعر (٤٦) لما كان في ذلك بأس ، ولكن من عابه « لا يعرف جيداً ولا ينكر رديئاً ، الا بالادعاء » (٤٧) . اصف الى ذلك ان بعض هؤلاء الجهلة يصحف أيضاً على ابي تمام ، ثم يعيب ما لم يقله ابو تمام قط « (٤٨) .

III

بعد هذا ينتقل الصولي الى الكلام على الحادثة بحيث يمكن اعتبار ما كتبه اول بيان عن الحادثة . ونفصل بيانه في النقاط التالية :

- ١ - **العلاقة بين القديم والحديث** : يشير الصولي الى هذه العلاقة فيقول بانه لا ينكر ان للاوائل السبق بشيئين : « الابتداء » و « الطبع » . وعلى هذا

يفسّم المحدثين او « المتأخرين » الى قسمين : قسم يتابع المتقدمين ويعملدهم ، وفد يجيد بعضهم احيانا ، المعاني التي يتابعونها (٤٩) . وقسم يبتكر معاني لم يعرفها القدماء ، وهذا عائد الى ارتباط هؤلاء بالوسط الطبيعي - الاجتماعي الذي يعيشون فيه ويصدرون عنه . وفي ذلك ما يشير الى أن تقييم الشعر لا ينفصل عن وسطه وظروفه . ومن هنا فان الاوائل ، فيما راوه وشبهوه عيانا ، يفوقون المحدثين . اما المحدثون ، فيما راوه وشبهوه عيانا ، فانهم يفوقون الاوائل .

٢ - نشوء لغة شعرية جديدة : وقد ترتبت على هذه الحقيقة ، اعني اختلاف تجربة المحدثين عن تجربة القدماء ، نتائج هي ان المعنى عند المحدثين صار اكثر ابداعا ، لا من حيث تعميق المعاني القديمة وحسب ، بل ايضا من حيث ابتكار معاني جديدة لم تخطر للاوائل . وهي ان المعنى الجديد ادى الى استخدام الفاظ قريبة ، مما ادى بدوره الى ان الكلام او اسلوب التعبير صار اكثر رقة وسهولة . فالشعر المحدث لم يستخدم الالفاظ الصحراوية القديمة ، بل استخدم الفاظ الحياة المدنية . وهذا هو السر في تحول الناس عن الشعر القديم الى الشعر الجديد .

٣ - مقياس الشعر : وبناء على هذا التحول في اسلوب التعبير الشعري ، نشأ مقياس آخر ، جديد للشعر ، عكس المعادلة القديمة . اعني ان جودة الشعر لم تعد ترتبط بضرورة ، باوليته . بل ان معنى الاولية قد تغير تماما . فلم يعد تابعا للقدم في الزمان ، وانما صار تابعا لجودة الشعر . فالابتداء هو ابتداء الجودة لا ابتداء الزمان . غير ان الجودة في الوقت ذاته مرتبطة بالزمان . فالشعر الجيد في عصر ما هو الذي يكون اكثر شبها بهذا العصر (٥٠) .

٤ - الجودة البادئة او معنى النقد : واذا اكتملت ، عند الصولي ، قاعدة النظر ، فان تطبيقها اصبح لديه ، سهلا وواضحا . وشرط كل ناقد للشعر ان تكون له قاعدة نظر . ومعنى ان تكون للناقد هذه القاعدة هو ان يكون « اعلم الناس بالكلام منظومه ومنثوره ، واقدر الناس على شيء متى اراده منه ، واحفظهم لآخذ الشعراء ، واعلمهم بمغازيهم ومقاصدهم . فاما من لا يحسن ان يعمل بيتا جيدا ، ولا يكتب رقعة بليغة ، ولا ينال حفظة ما قالته الشعراء في عشرة معان من عشرة آلاف معنى قد قالت فيه ، فكيف يجسر على ادعاء هذا ، وكيف يسوغه اياه من سمعه منه ؟ » (٥١) .

ويتضح ما في هذا الرأي من نفد يبلغ حد التجريح لكل ناقد للشعر جاهل باصوله ، ولكل من يسوغ نقد مثل هذا الناقد . على السواء .

وحين يطبق الصولي قاعدته النظرية على ابي تمام يرى ان سبب اجاته يرجع الى عاملين :

الاول هو ان ابا تمام ، بخلاف الشعراء الذين تقدموه ، اتخذ من الابداع ممارسة مستمرة ، وسلك على اساس ان الابداع موقف كلي لا جزئي .

والثاني هو انه كان بداية لطريقة جديدة في التعبير (٥٢) .

IV

« كان ابو تمام اذا كلمه انسان اجابه قبل انقضاء كلامه ، كانه كان علم ما يقول فاعد جوابه ، فقال له رجل :

— « يا ابا تمام ، لم لا تقول من الشعر ما يعرف ؟ »
فقال :

— « وانت ، لم لا تعرف من الشعر ما يقال ؟ »

فافحمه » (٥٣) .

ان في هذا الكلام ، سؤالاً وجواباً ، ما يوضح المشكلة التي اثارها شعر ابي تمام . القارئ يريد من الشاعر ان يقوده في ارض يعرفها ، اما الشاعر فيريد ان يكشف للقارئ ارضا جديدة .

هذا الكشف هو ، في نظر الصولي ، سر امتياز ابي تمام وتفوقه على الشعراء . فهو السبب الذي دفع الشعراء بعده ، وبخاصة المجيدين منهم ، الى ان يلوذوا به . ويمثل الصولي على ذلك بالبحثري ، فيقول انه لا يجد بعد ابي تمام ، اشعر منه « ولا اغض كلاما ولا احسن ديباجة ولا اتم طبعاً ، وهو مستوي الشعر : حلو الالفاظ ، مقبول الكلام ، يقع على تقديمه الاجماع ، وهو مع ذلك يلوذ بابي تمام في معانيه » (٥٤) وليس هناك دليل يمكن ان يكون اقوى من هذا الدليل على « فضل ابي تمام ورياسته » .

لكن منذ ان يلوذ شاعر بآخر لا بد من ان يشبهه . وهذا ما حدث للبحثري فحين « احتذى » معاني ابي تمام و « اقتصها » ، « جذبته المعاني واضطرته الى ان حكى لفظه في هذا ، فصار يشبه لفظ ابي تمام » (٥٥) .

كل لجوء تشابه ، فاللجوء يوحد . يصبح الشاعر اللاجئ ، بالضرورة ، مقلدا وفي احسن الحالات لا يوصف الا بأنه اجد التقليد ، او بأنه حسن المعنى الذي اخذه . ان في هذا دعوة الى ان يكون الشاعر بادئا ، فالشعر ابتداء .

ولم يكن البحثري وحده لائذا بابي تمام ، فان « من تبحر شعر ابي تمام وجد كل محسن بعده ، لائذا به ، كما ان كل محسن بعد بشار لائذ بشار ، ومنتسب اليه في اكثر احسانه » (٥٦) . وبعد ان ياتي الصولي بامثلة على « انتساب » البحثري لابي تمام ، يقول انه لا يريد ان يكثر من هذه الامثلة ، لان غيره (٥٧) سبقه الى هذا العمل ، فهو « يكره اعادة ما الف ، ويجتنب ان يجتذب من الادب ما ملك قبله » (٥٨) وكأنه بهذا القول يشير الى انه يكره لغيره ما يكره لنفسه : يكره للشاعر ان « يعيد » ما الفه غيره ، وان « يجتذب » له ما ملكه الشعراء قبله .

ولعل هذا الكشف او السبق هو الذي دفع عمارة بن عقيل (٥٩) الى ان يقول عن ابي تمام : « لقد وجد ما اضلته الشعراء ، حتى كأنه كان مخبوءا له » (٦٠) وجعلت المبرد يقول عنه ان له « استخراجات لطيفة ومعان طريفة » ، وانه « غائص يخرج الدر » ، و « ان لابي تمام والبحثري من المحاسن ما لو قيس باكثر شعر الاوائل ما وجد فيه مثله » (٦١) . وفي هذه الشهادة الصادرة عن امام في العربية والنحو ، كالمبرد ، شهادة بتفوق المحدث على القديم .

ويبني الصولي على هذا السبق عدة احكام . منها أنه لا يجوز ان يبحث شعر سباق كأبي تمام بمقاييس السرقة ، فالسابق لا يسرق . وجميع الذين بحثوا في شعره ، من ضمن تلك المقاييس ، مخطئون . فمن الواجب ان تصرف السرقة عن ابي تمام « لكثرة بديعه واختراعه واتكائه على نفسه » (٦٢) . هذا من حيث المبدأ او النظر . اما التطبيق فيؤكد . فحكم العلماء بالشعر قد مضى « بان » الشعراء اذا تعاورا معنى ولفظا او جمعاهما ، ان يجعل السبق لقدمهما سنا واولهما موتا وينسب الاخذ الى المتأخر » (٦٣) ، وعلى هذا لا يمكن ان يقاس البحثري بابي تمام « وهو به ، وكلامه منه ، وليس ابو تمام بالبحثري ، ولا يلتفت الى كلامه » (٦٤) .

ومن هذه الاحكام انه لا يجوز الاستناد الى الاراء التي يطلقها رواة الشعر ، ذلك ان الرواة قد « يعلمون تفسير الشعر » ، لكنهم « لا يعلمون الفاظه » (٦٥) . ويعني بذلك ان الرواة يجهلون الجوانب الفنية في التعبير الشعري ، ولذلك لا حكم لهم فيها . اذ « ليس من اجابه طبعه الى فن من العلوم او فنين اجابه الى غير ذلك » . وهكذا فان من « فسر غريب قصيدة او اقام اعرابها » لا يعني بالضرورة انه يحسن « ان يختار جيدها ، ويعرف الوسط والدون منها ، ويميز الفاظها » (٦٦) . فكما ان الشعر طبع ، فان تدوق الشعر هو كذلك طبع . واذا كان هذا التدوق ، اي علم الشعر والكلام في معانيه وتمييز الفاظه ، مما لا يقع « لافطن الناس واذكاهم » الا بعد « تعليم ، وتعب شديد ولزوم لاهله طويل » ، « فكيف لبلدهم واغابهم » ؟ (٦٧) .

ومن هذه الاحكام ان هؤلاء « البلداء الاغبياء » (٦٨) هم الذين يفسدون الشعر ، لكثرتهم ولكثرة ما يهرفون بما لا يعرفون . ولهذا يجب ان يسكت الجاهل ، ويتكلم العالم . « وقد قالت الحكماء : لو سكت من لا يدري ، استراح الناس » (٦٩) . ولكم تواضع العلماء انفسهم فقال بعضهم « لقد حسنت عندي » لا ادري « حتى اردت اقولها فيما ادري » (٧٠) . ومن هنا كان للشعر اهله ، ومن الصعب ان يفهمه « غير اهله » (٧١) .

ويشير الصولي اخيرا الى ان العداوة التي يكنها القارئ للشاعر قد تكون حجابا بينهما ، بحيث لا يعود القارئ يرى اي فضيلة للشاعر الذي يكرهه ، بل لا يرى ، اذا رأى ، الا النقص . ويصف الصولي مثل هذا العمل بانه « مفرط القبح » ، وبخاصة اذا جاء من العلماء (٧٢) . ذلك انه لا يجوز ان « يدفع احسان محسن ، عدوا كان او صديقا » ، ويجب « ان تؤخذ الفائدة من الرفيع والوضيع » . وهذا ما نبه اليه كثير من العلماء والائمة . فقد قال علي : « الحكمة ضالة المؤمن ، فخذ ضالتك ولو من اهل الشرك » . ثم ان من يعيب الصحيح الحق ، فانما يعيب نفسه أولا . وقد قال المبرد ان من عاب اشعار أبي تمام « التي ترتاح لها القلوب وتجذل بها النفوس ، وتصفي اليها الاسماع وتشحد بها الاذهان ، فانما غرض من نفسه وطعن على معرفته واختياره » . بل ان الاعداء كثيرا ما « يصدقون في اعدائهم ، لا لنية في تقديمهم ، ولا لمجة في رفعهم وتقريظهم ، ولا لديانة يرفعونها فيهم ، ولكن يفعلونه حباطة لانفسهم ، وتنبيها على فضلهم وعلمهم » (٧٣) .

ليست « الموازنة » (٧٤) مفارنة بين شاعرين ، بقدر ما هي مقارنة بين مفهومين او نظرتين للشعر : قديمة يمثلها البحتري ومحدثة يمثلها ابو تمام . ويستهل الآمدي كتابه مشيراً الى ان رواة الشعر من المتأخرين . ينقسمون فيهما الى ثلاثة اقسام :

١ - قسم فضل البحتري واستند في هذا التفضيل الى ما في شعره من « حلاوة النفس ، وحسن التخلص ، ووضع الكلام في مواضعه ، وصحة العبارة ، وقرب المأني ، وانكشاف المعاني . وهم الكتاب ، والاعراب ، والشعراء المطبوعون ، واهل البلاغة » (٧٥) .

٢ - وقسم فضل ابا تمام ، مستنداً في ذلك الى « غموض المعاني ودقتها . وكثرة ما يورده مما يحتاج الى استنباط ، وشرح ، واستخراج . وهؤلاء هم اهل المعاني والشعراء اصحاب الصنعة ومن يميل الى التدقيق ، وفلسفي الكلام » (٧٦) .

٣ - وقسم ثالث وهم « كثير من الناس قد جعلهما طبقة ، وذهب الى المساواة بينهما » (٧٧) ، لكن الآمدي لا يشير الى المعايير التي اعتمدها هؤلاء .

اما نظرة الآمدي فتتفق مع نظرة الذين فضلوا البحتري ، وهو لذلك ينكر ان يكونا متساويين . « انهما مختلفان » ، كما يعبر « لان البحتري اعرابي الشعر ، مطبوع ، وعلى مذهب الاوائل ، وما فارق عمود الشعر المعروف ، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الالفاظ ووحشي الكلام ولان ابا تمام شديد التكلف صاحب صنعة ، ويستكره الالفاظ والمعاني ، وشعره لا يشبه اشعار الاوائل ، ولا على طريقتهم ، لما فيه من الاستعارات البعيدة ، والمعاني المولدة » (٧٨) .

غير انه سرعان ما يستدرك ميله الى البحتري ، وانحيازه اليه ، فيعمد الى اظهار الحياد والموضوعية ، وكأنه يريد ان يفصل بينه كقارئ متذوق ، وبينه كناقد . فهو ، كقارئ متذوق ، أميل الى البحتري منه الى ابي تمام ، غير انه كناقد ، يحاول ان يعرض محاسن ومساوي كل منهما، ويترك للآخرين ان يتوصلوا الى الحكم بانفسهم وهكذا يقول : « ولست احب ان اطلق القول

بأيهما أشعر عندي ، لتباين الناس في العلم واختلاف مذاهبهم في الشعر . ولا أرى لاحد ان يفعل ذلك ، فيستهدف لدم احد الفريقين ، لان الناس لم يتفقوا على اي الاربعة اشعر - في امرئ القيس والنايفة وزهير والاعشى ، ولا في جرير والفرزدق والاخلط ، ولا في بشار ومروان (٧٩) والسيد (٨٠) ، ولا في ابي نواس وابي العتاهية ومسلم (٨١) والعباس بن الاحنف ، لاختلاف آراء الناس في الشعر وتباين مذاهبهم فيه . فان كنت ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ، ويؤثر صحة السبك ، وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة المساء والرونق ، فالبحتري اشعر عندك ضرورة . وان كنت تميل الى الصنعة ، والمعاني الغامضة التي تستخرج بالفوص والفكرة ولا تلوى على ما سوى ذلك ، فابو تمام عندك اشعر لا محالة .

فاما انا ، فلست افصح بتفضيل احدهما على الآخر ، ولكني اقارن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما اذا اتفقتا في الوزن والقافية واعراب القافية ، وبين معنى ومعنى ثم اقول ايهما اشعر في تلك القصيدة وذلك المعنى . ثم احكم انت حينئذ ، ان شئت ، على جملة ما لكل واحد منهما ، اذا احطت علما بالجيد والرديء » (٨٢) .

وفي الموازنة التي يقيمها الأمدي بين الشعاعين ، ينحاز بشكل واضح الى البحتري ، وقلما يجد ، في الابيات التي يختارها لابي تمام ، الا ما يتيح له ان يدعم انحيازه . وهكذا يتأكد ان الأمدي نموذج المتمسك بالقديم ، لكن المنفتح على قراءة المحدث ومناقشته من اجل ان يزداد اطمئنانا الى موقفه .

ويبدأ الأمدي موازنته بذكر ما سمعه « من احتجاج كل فرقة من اصحاب هذين الشعاعين على الفرقة الاخرى ، عند تخصمهم في تفضيل احدهما على الآخر ، وما ينهاه بعض على بعض » (٨٣) ، وفي ذلك ما يوضح ، الى حد كبير ، المشكلات التي كان يدور حولها الجدل بين اصحاب الاتجاه الشعري القديم ، واصحاب الاتجاه الشعري الجديد . ونعرض ، بدورنا ، لهذه المشكلات ، كما وردت في الموازنة ، واحدة واحدة .

١ - **المجدد والمقلد** : النقطة الاولى التي يحتج بها اصحاب ابي تمام هي انه مبدع ، اما البحتري فمقلد له ، ولا تجوز المساواة او المقارنة بين المبدع

والمقلد ، ولذلك فان ابا تمام اشعر . ضرورة ، من البحري : « كيف يجوز لقائل ان يقول ان البحري اشعر من ابي تمام وعن ابي تمام اخذ ، وعلى حذوه احتدى ، ومن معانيه استقى ، وتلمذ له ، حتى قيل : الطائي الاكبر ، والطائي الاصغر ، واعترف البحري بان جيد ابي تمام خير من جيده ، على كثرة جيد ابي تمام . فهو ، بهذه الخصال ان يكون اشعر من البحري اولى من ان يكون البحري اشعر منه » (٨٤) .

ويناقش انصار البحري هذا الكلام فيعلنون ، اولا : « اما الصحبة فما صحبه ولا تلمذ عليه ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ولا رأى قط انه محتاج اليه » . (٨٥) غير أنهم يقولون : « لا ننكر أن يكون قد استعار بعض معاني أبي تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحري من شعر أبي تمام ، فيعلق شيئا من معانيه ، معتمدا للاخذ أو غير معتمد . وليس ذلك بمانع من ان يكون البحري اشعر منه » . ويقولون ثانيا : « اما قول البحري : جيده خير من جيدي ورديثي خير من رديته » ، فهذا الخبر ان كان صحيحا ، فهو للبحري لا عليه ، لان قوله هذا يدل على ان شعر ابي تمام شديد الاختلاف ، وشعره شديد الاستواء ، والمستوي الشعر اولى بالتقدمة من المختلف الشعر . وقد اجمعنا نحن وانتم على ان ابا تمام يعلو علوا حسنا ، وينحط انحطاطا قبيحا ، وان البحري يعلو ويتوسط ولا يسقط ، ومن لا يسقط ولا يفسف افضل ممن يسقط ويفسف » (٨٦) . ثم يستدلون على ما يذهبون اليه بجملة « من الروايات ، منها ما يقال عن كثير واخذه من جميل والتلمذ له ، دون ان يقول احد ، مع ذلك ، ان جميلا اشعر منه . بل هو ، على العكس ، اشعر من جميل » عند اهل العلم بالشعر والرواية » . (٨٧) ، وبين من يذكرونهم من هؤلاء : ابو تمام نفسه ، الذي اشار ، في شعره ، اكثر من مرة ، الى تقدم كثير في النسيب (٨٨) ويروي الأمدي نفسه ان البحري « سئل عن نفسه وعن أبي تمام ، فقال : « كان اغوص على المعاني مني وانا اقوم بعمود الشعر منه » (٨٩) . وهذا بعنى ، في مقياس الأمدي ، ان البحري اشعر من أبي تمام .

٢ - المؤثر والمناثر : والنقطة الثانية التي يحتج بها انصار ابي تمام هي انفرادهم بمذهب اخترعه وتأثر به جميع الشعراء الذين اتوا بعده ، فكان لهم اماما وكانوا له تابعين (٩٠) . وليس للبحري مثل هذا التفرد وهذا التأثير . ويرد انصار البحري بان ابا تمام لم يخترع ولم يتفرد ، وانه سلك في

مذهبه مسلك شعراء سبقوه ، فاكثر منه . واصول مذهبه مبثوثة في القرآن والشعر الجاهلي والاسلامي والشعر العباسي الاول . ويستدلون بامثلة على ذلك . ويقوم هذا المذهب ، في رأيهم ، على الاكثار من الاستعارة والطباق والتجنيس ، (٩١) وهي انواع تتبعها مسلم بن الوليد ، قبل ابي تمام ، « واعتمدها ووشح شعره بها ، ووضعها في موضعها ، ثم لم يسلم مع ذلك من الطعن ، حتى قيل : انه اول من افسد الشعر » (٩٢) . ويمضي هؤلاء فائلين ان كل ما فعله ابو تمام هو انه تبع هذا المذهب واكثر منه « واحب ان يجعل كل بيت من شعره غير خال من بعض هذه الاصناف فسلك طريقا وعرا ، واستكره الالفاظ والمعاني ، ففسد شعره وذهبت طلاوته ونشف ماؤه » ، وهم يستندون في قولهم هذا الى ابن المعتز (٩٣) . ثم ينتهون الى القول بسقوط الاحتجاج بان ابا تمام اخترع هذا المذهب وسبق اليه . وهكذا كثرت عيوبه للجوئه اليه و « صار استكثاره منه وافراطه فيه من اعظم ذنوبه » ، بينما البحري لم يفارق « عمود الشعر وطريقته المعهودة » ، مع ما نجده كثيرا في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة ، وانفرد بحسن العبارة وحلاوة الالفاظ ، وصحة المعاني ، وحتى وقع الاجماع على استحسان شعره واستجادته ، وروى شعره واستحسنه سائر الرواة على طبقاتهم واختلاف مذاهبهم ، فمن نفق على الناس جميعا ، اولى بالفضيلة واحق بالتقدمة « (٩٤) .

٣ - الشعر والناس : وتفوم الحجة الثالثة التي احتج بها انصار ابي تمام على ان الشعر لا يقيم بمدى انتشاره بين الناس ، بل يقيم بمدى عمقه ، وفهم ذوي الثقافة الشعرية العالية (٩٥) .

اما انصار البحري فيردون بالاعتماد ايضا على بعض العلماء بالشعر ، كابن الاعرابي ، وثلعب (احمد بن يحيى الشيباني) ، وحديفة بن محمد : والمبرد ، وعلى بعض الشعراء كدعبل بن علي الخزاعي . وكان دعبل يقول عن ابي تمام مثلا : « ان ثلث شعره محال ، وثلثه مسروق ، وثلثه صالح » ، وكان يقول عنه : « ما جعله الله من الشعراء ، بل شعره بالخطب وبالكلام المنشور اشبه منه بالشعر » (٩٦) .

وكان ابن الاعرابي يقول في شعر ابي تمام : « ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل » (٩٧) . اما حديفة بن محمد فقال : « ابو تمام يريد البديع فيخرج الى المحال » (٩٨) ، وكان المبرد « معرضا عنه » ، ولم يدون له في

كبه واماليه « كبير شيء » و « كان يفضل البحثري » (٩٩) وبناء على ذلك يبتل احتجاج اصحاب ابي تمام بان العلماء فضلوا شعره .
ويعمد كل من الجانبين الى بعض التفاصيل في حجة ، فيرى انصار ابي تمام ردا على انصار البحثري ، ان قول دعبل لا يقبل ، لانه كان يكره ابا تمام ويفار منه . اما ابن الاعرابي فكان يتعصب عليه ، لانه لا يفهم شعره ، لغرابته . ولهذا كان يطعن عليه ، حين يسأل عنه ، بدلا من ان يتصف بصفات العالم ويقول : لا ادري والدليل على تعصبه انه انشد مرة ابياتا من شعره لا يعرف قائلها فاعجب بها ، وحين قيل له انها لابي تمام غير رأيه واستقبحها (١٠٠) .
واذا كان « الظلم القبيح والتعصب الظاهر قد بلغا هذه الدرجة مع ابن الاعرابي الذي يشهد له الكثيرون بالعلم والتقدم ، فما تكون الدرجة التي يبلغانها مع الآخرين » ؟

وينفي انصار البحثري تهمة الظلم والتعصب والقصور في الفهم عن ابن الاعرابي بالرجوع الى موقف مماثل وقفه الاصمعي . فقد جاءه مرة أسحاق ابن ابراهيم الموصلبي وأنسده بيتين ، فسأله الاصمعي عن قائلهما ، فقال له انه اعرابي ، فابدى اعجابه الكبير بهما ، وحين اخبره انهما ، على العكس ، من شعره ، قال له انهما شعر مصنوع متكلف (١٠١) .

ويفسر هؤلاء موقف ابن الاعرابي بأنه ليس ، بخاصة ، قصورا عن الفهم . لان تهمة القصور لا تلحق القارئ الذي لا يفهم « معاني شعر شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب المألوفة ، الى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام الى الخطأ او الاحالة » ، وانما تلحق الشاعر . فالعيب والنقص هنا « يلحقان ابا تمام ، اذ عدل عن المحجة الى طريقة يجهلها ابن الاعرابي وامثاله » (١٠٢) . وهذا يتضمن القول ان الشعر في اساسه ، جماعي لا فردي ، وان تجربة الجماعة هي التي يجب ان ينطلق منها الشاعر . فاذا عدل عنها ، كان العيب والنقص فيه ، لا في الجماعة .

وهم يعللون تغيير ابن الاعرابي لرايه ، كتغيير الاصمعي لرايه ، بالقول ان ابداع الشاعر المتأخر لا يكون موضع العجب كابداع الشاعر المتقدم . ذلك ان هذا « لا يعول الا على طبعه وسليقته » ، بينما يعول ذلك على مثال سابق يحتذيه . فاذا كان ابو تمام يأتي ، اذن ، « بالمعنى المستغرب ، لم يكن ذلك منه ببدع ، لانه يأخذ المعاني ويحتذيه ، فليست له في النفوس حلاوة ما يورده الاعرابي القح » (١٠٣) .

غير ان هذا التفسير لا ينفي عن ابن الاعرابي والاصمعي كونهما ، اذا

صحت الروايتان . غير نفاذين في التمييز بين القديم والمحدث ، فلم يقوموا بهذا التمييز بنفسيهما ، بل بمعونة غيرهما . كذلك تشير الروايتان الى ان التعصب الاعمى القديم كان موزعا للتندر والسخرية .

٤ - الشعر والعلم (الثقافة) : ويحتج اصحاب ابي تمام بشقافته الواسعة في الشعر وروايته ، وفي الفلسفة ، وبانه اوجد في شعره تألفا بين المعنى الفلسفي غير العربي ، واللفظ العربي . وهو تألف جديد بداه هو ، ولم يسبق اليه . واذا كان الاعرابي لا يفهم بعض شعره فليس لانه محال او مستغلق ، والدليل على ذلك انه ، اذا فسر له ، لا يفهمه وحسب ، وانما يستحسنه ايضا . وهذا يعني ان عدم فهم الشعر لا يعود الى اغرابه ، بل يعود الى ان قارئه قليل الدربة والممارسة ، ومنذ ان تنكشف له معانيه ، بالممارسة والدربة ، يزول اغرابه ، ويصير واضحا .

ومن هنا يقول اصحاب ابي تمام ان « الشاعر العالم افضل من الشاعر غير العالم » (١٠٤) ، فالاول يضيف الى القارئ معرفة جديدة ، اما الثاني فلا يضيف اي شيء ، بل بعكس للقارئ معرفته ، فكأنه يرد له بضاعته .

ويسند اصحاب البحتري في ردهم على هذه القضية الى ان العلم ليس علة للشعر (١٠٥) . فمن المعلوم الشائع اولا ان « شعر العلماء دون شعر الشعراء » (١٠٦) ويشهد الواقع والتجربة لذلك . فان الخليل بن احمد كان « عالما شاعرا ، وكان الاصمعي عالما شاعرا ، وكان الكسائي كذلك ، وكان خلف ابن حيان الاحمر اشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان في زمانهم من الشعراء غير العلماء » (١٠٧) ثم ان ابا تمام ، ثالثا ، في ارادته ان « يدل على علمه باللغة وبكلام العرب » ، ادخل في شعره الفاظا غريبة وحشية ، بحيث اساء هذا العلم لشعره . وذلك على النقيض من البحتري ، الذي استسلم لطبعه ، في اختيار الالفاظ ، « فنفق » شعره وبلغ « المراد والغرض » . ولا يمكن رابعا : اخرا الاستناد الى الدعوى على الاعراب في استحسان شعر ابي تمام اذا فسروه . لانها دعوى لا تقوم الا بالامتحان (١٠٨) .

والا لانه ان « التجويد في الشعر ليست علته العلم ، ولو كانت علته العلم ، لكان من سماعته من العلماء اشعر ممن لبس بعالم » (١٠٩) . وهكذا

ينتج ان البحري الشاعر غير العالم ، افضل من ابي تمام ، الشاعر العالم (١١٠) .

هـ - التجربة وتفاوت التعبير (الاحسان والاساءة) : والنفطة الخامسة النبي يحتج بها انصار ابي تمام تستند الى فهم عميق لطبيعة التجربة الشعرية . فكل ابداع عظيم يتضمن ، بالضرورة ، اخطاء قد تكون ، احيانا ، عظيمة . ومن هنا التفاوت في كل نتاج يصدر عن التجربة الخلاقة . اما الاستواء فمن شأن التجارب العادية . واذا تم وعي هذه المسألة ، زالت ، في ضوءه ، اخطاء ابي تمام ، بل يصبح من الواجب « ان يسامح في سهوه ، ويتجاوز عن زلله » (١١١) هكذا لا تعود المسألة في نقد ابي تمام مسألة جزئية تقوم على تسقط بعض اخطائه ، بروح المغالطة والتعصب والتحامل ، وابرازها بشكل مسرف ، وانما تصبح المسألة كلية تقوم على فهم التجربة الشعرية ككل ، وادراك ما يداخل هذه التجربة من التوتر والوهن ، من التفجر والخمود . ولما كان « جيد ابي تمام لا يتعلق به جيد امثاله ، وكان كل جيد دون جيده ، لم يضره ما يؤثر من رديته » (١١٢) .

ويرد اصحاب البحري بان في هذا الكلام اعترافا هو ان ابا تمام يحسن ويسيء ، في حين « ان الاحسان للبحري دون الاساءة ، ومن احسن ولم يسيء افضل ممن احسن واساء » (١١٣) . اضع الى ذلك ان جيد ابي تمام الذي وصف بانه « لا يتعلق به جيد امثاله » ، انما وصف بهذه الصفة « لانه يأتي في تضاعيف الرديء الساقط ، فيجيب راءعا لشدة مباينته ما يليه ، فيظهر فضله بالاضافة . ولهذا ما قال له ابو هفان : اذا طرحت درة في بحر خرق فمن الذي يغوص عليها ويخرجها غيرك ؟ والمطبوع الذي هو مستوي الشعر ، قليل السقط ، لا يبين جيده من سائر شعره بينونة شديدة ، ومن اجل ذلك صار جيد ابي تمام معلوما وعدده محصورا » (١١٤) . ومن اجل ذلك يفضل البحري . وهذا « هو الصحيح » (١١٥) كما يعبر الامدي .

VI

يتحدث الامدي عن السرقة عند ابي تمام فيقول « ان الذي خفي من سرقاته اكثر مما ظهر منها ، على كثرتها » (١١٦) ، ويعزو سبب ذلك الى

عناية ابي تمام بالشعر : « اشتغل به وجعله وكده واقتصر من كل الاداب والعلوم عليه » وقرا الشعر الجاهلي والاسلامي والمحدث (١١٧) .

والسرقة هي ان يأخذ الشاعر معنى ليس له فيتبناه ويعرضه في صياغة جديدة . وتتفاوت هذه الصياغة : فقد تكون نسخا ، وقد تكون تحسينا . فالنسخ هو الاتيان بالمعنى عينه ، والتحسين هو ان يلفظ الشاعر المعنى الذي يأخذه (١١٨) .

وربما جاء النسخ نفسه مقصرا (١١٩) . يقول الفرزدق :
والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانبه نهار
ويقول ابو تمام :
والشيب ان طرد الشباب بياضه كالصبح احدث للظلام افولا
والنسخ قد جعل المعنى المأخوذ اكثر تعقيدا ، كما في هذا البيت لابي تمام :

أطل على كل الآفاق حتى كان الارض في عينيه دار (١٢٠)
وقد اخذه من منصور النمرى :

وعين محيط بالبرية طرفها سواء عليه قربها وبعيدها
ويلقى الأمدي على ذلك بقوله : « بيت النمرى أحب الي ، لأن معناه اشرح » (١٢١) .

وقد يسيء النسخ فيشوه جمال المعنى (١٢٢) . وقد يكون النسخ تغييرا للمعنى من اجل الاتيان بفرض آخر . يقول شاعر مجهول :

يبيع ويشترى لهم سواهم ولكن بالطعان هم تجار

وقد اخذ معناه ابو تمام « فقال وقصر وغير المعنى وجاء بفرض آخر » :

لفظ لأخلاق التجار ، وانهم لعد ، بما أدخروا له ، لتجار (١٢٣)

وقد يكون النسخ اخذا للفظ والمعنى جميعا . يقول الفرزدق ، مثلا :

انتم قرارة كل مدفع سوء ولكل سائلة تسير فرار

ويقول ابو تمام :

وكانت لوعة ثم اطمانت كذلك ، لكل سائلة قرار

ويميز الأمدي في السرقة بين سرقة « الخاص من المعاني » وسرقة « المشترك بين الناس » ، ويرى أن اخذ المشترك بين الناس لا يعتبر سرقة .
وان اخذ « الخاص من المعاني » هو « السرقة الصحيح » (١٢٤) . وينتقد الأمدي ابن ابي طاهر الذي نسب ابياتا لابي تمام الى السرقة وليست بمسروقة لانها « مما يشترك الناس فيه من المعاني » ، ويجري على سنتهم (١٢٥) ، ويمثل على ذلك بقول ابي تمام :

الم تمت يا شقيق الجود من زمن فقال لي : لم يمت من لم يمت كرمه

وابن ابي طاهر يرى ان هذا البيت مأخوذ من قول العتابي :

ردت صنائعه اليه حياته فكأنه من نشرها منشور

غير ان الأمدي يرد على ابن ابي طاهر قائلا : « ومثل هذا لا يقال فيه مسروق ، لانه قد جرى في عادات الناس ، اذا مات الرجل من اهل الفضل والخير واثني عليه بالجميل ، ان يقولوا : ما مات من خلف مثل هذا الشئ ، ولا من ذكر بمثل هذا الذكر . وذلك شائع في كل أمة وفي كل لسان » (١٢٦) ويدافع الأمدي عن ابي تمام في مختلف الحالات المماثلة (١٢٧) . فكل ما يشترك فيه الناس ، وبكثر على الافواه ، او كل ما هو « قائم في الفطرة والعقول يتفق الخواطر في مثله » (١٢٨) لا ينطبق على الاخذ منه مفهوم السرقة الادبية . وانما ينطبق هذا المفهوم على « بديع المعاني الذي يختص بها شاعر دون غيره » (١٢٩) .

اما السرقة الذي يحسن المعنى ، فقد يجيء كشفاً للمعنى المأخوذ واجادة للفظه (١٣٠) . وقد يكون اتباعا حسنا (١٣١) ، وقد يكون اجادة في الاخذ ، واحسانا للفظ واصابة في التمثيل (١٣٢) ، وقد يجيء المسروق بزيادة هي عكس المعنى الاول ، وقد يكون تحويلا مجيدا للمعنى الاول (١٣٣) ، وقد يكون عدولا للمعنى الى وجه آخر (١٣٤) .

هناك اذن مقياس واضح تلجأ اليه في تمييز السرقة . وهو يقوم على مبدئين : الاول هو ان المشترك لا يسرق (١٣٥) . والثاني هو انه لا يصح اطلاق

السرق الا على اخذ المعاني التي ابتكرها شاعر واختص بها دون غيره . وفي هذه الحالة يمكن ان يقبل السرق حين يكون تحويلا للمعنى الاول ، يخرج به عن مداره الاول . ومع ان فضيلة السبق تبغى لقائله الاول ، فان التحويل اذا جاء بارعا ، كاشفا ، يمكن ان يخول صاحبه لان يصبح احق بهذا المعنى من قائله الاول (١٣٦) .

لكن ما دلالة السرقة ؟ انها تشير الى رغبة السارق في توكيد نمط معين من التفكير . انها مظهر لاستمرار هذا النمط . وكل نمطية لا تلبث ان تدخل في المشترك ، وان كانت ، في البداية ، من الخاص . ولا تقتصر النمطية على المعنى ، وانما تتجاوزه الى الشكل . والسؤال الذي أهمله الأمدي ، وأهمله النقد العربي القديم ، هو التالي : هل يبقى المعنى هو هو ، اذا تغيرت طريقة التعبير عنه ؟ بعبارة ثانية ، كيف يمكن القول ان المعنى تحول ، ومع ذلك بقي هو نفسه ؟ وبالتالي : كيف يصح ان نقول عن شاعر حول معنى سابقا ، انه سرق هذا المعنى ؟ ان النقد العربي لا يجد اي اشكال في هذا السؤال ، لانه يفصل بين المعنى والشكل ، فالمعنى ، كما يرى ، قائم بذاته ، والشكل اناء له . لكن هذه النظرة خاطئة . فليس للمعنى كيان مستقل ، انه متداخل في اللغة ، بحيث يمكن القول ان شكل التعبير هو المعنى . فحين يتغير شكل التعبير يتغير المعنى حتما . وهكذا يتغير المقياس الذي يجب ان يعتمد في الكشف عن السرقة . انه المقياس الذي لا يستند الى المعنى ، بل الذي يستند ، على العكس ، الى طريقة التعبير .

أناقش ، ايضا ، لذلك ، بعض الامثلة التي ساقها الأمدي تدليلا على سرقة ابي تمام . ابدأ بقول ابي تمام ، يخاطب ابا دؤاد :

وما سافرت في الآفاق الا ومن جدواك راحتي وزادي
مقيم الظن عندك والاماني وان قلقت ركابي في البلاد (١٣٧)

ويروي الأمدي ان ابا دؤاد سأل ابا تمام « عن هذا المعنى حين انشده القصيدة ، فقال : اهو مما اخترعته ؟ فقال : هو مما اخترعته . فقال : بل اخذته من قول الحسن بن هانئ (ابي نواس) :

وان جرت الالفاظ يوما بمدحة لغيرك انسانا ، فانت الذي نعني (١٣٨)

فما الصلة بين المعنيين ؟ ان ابا تمام يتحدث عن ارتباطه النفسي

بممدوحه ، بينما يتحدث ابو نواس عن نوع آخر من الارتباط ، هو الوفاء
 لشخص استغرق الكرم فحق له ان يستغرق الشئ . الاول يعبر عن حالة
 داخلية ، والثاني يعبر عن موقف فكري . اصف الى ذلك ان المزاوجة عند
 الاول بين السفر والاقامة والقلق ، اعطت بعدا حركيا للمعنى جعلته مفتوحا ،
 بينما المعنى عند الثاني ساكن مغلق .

أخذ مثلا آخر . يقول الافوه الاودي :

وترى الطير على آثارنا رأي عين ، ثقة ان ستمار(١٣٩)

فتبعه النابغة بقوله :

اذا ما غزوا بالجيش خلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب
 جوانح قد ايقن ان قبيله اذا ما التقى الجمعان اول غالب(١٤٠)

واخلده حميد بن ثور ، فقال يصف الذئب :

اذا ما غدا يوما رايت غيابة من الطير ينظرن الذي هو صانع (١٤١)

وقال ابو نواس :

تنايا الطير غدوته نقّة بالشبع من جزره (١٤٢)

وقال مسلم بن الوليد :

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه في كل مرتحل (١٤٣)

ويقول ابو تمام :

وقد ظللت عقبان اعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل
 اقامت مع الرايات حتى كانها من الجيش ، الا انها لم تقاتل (١٤٤)

نحن هنا امام معنى ابتكره الافوه الاودي ، وهو الكناية عن انتصار
 قبيلته بتتبع الطير آثارها لتأكل من قتلى اعدائها . فالطير التي لا تعقل ،

تحسن يفرزتها ، ان قبيلته هي المنتصرة ، ولذلك تتبعها . وفي هذا اشارة الى
نفوق قبيلته ، نفوقا مطلقا بدهيا ، على أعدائها .

ولم يزد النابغة شيئا ، بل اكتفى بصياغة المعنى ، صياغة اكثر حركية
واشد وضوحا . اما حميد بن ثور وابو نواس ومسلم بن الوليد فقد كرروا
المعنى ، دون اية اضافة .

لكن ابا تمام حلل المعنى وحوله ، فاعطى بعدا جديدا لم يكن موجودا عند
الافوه الاودي ومن تابعه . وهذا ما يظهر في طريقة تعبيره . فقد خلق تزاوجا
بين « عقبان الاعلام » و « عقبان الطير » ، وجعل من هذه الاخيرة ظللا للاولى ،
ومع انها ظل ، اي منفصلة عن الجيش ، فانها كانت متصلة به لانغماسها في
دماء القتلى ، حتى انها بدت جزءا آخر من الجيش ، لكنه الجزء الذي يأكل ولا
يقاتل . وهكذا ينتج « معنى » « جديد » اغنى بكثير من « المعنى » الاول . فابو
تمام لم يستعد المعنى الاول ، ليصح القول انه سرقه ، وانما اعاد خلقه من
جديد . وهذا يعني انه غيرّه ، فصار معنى جديدا . اصف الى ذلك ان تحويل
المعنى نتيجة لتحويل اللفظ عن معناه الاصلي : فللاعلام عقبان ، والعقبان ظل ،
وهي تنهل ، وتقيم مع الرايات المتحركة . فثمة مزج بين اللغة والاشياء
والاعمال يحيد باللغة عما وضعت له اصلا . وهذا مما اخذه عليه الامدي ، مع
انه ، شعريا ، هو الذي ، اعطى البيتين بعدهما الشعري (١٤٥) .

أخذ مثلا نالما . يقول مسلم بن الوليد :

لا يستطيع يزيد من طبيعته عن المروءة والمعروف احجاما (١٤٦)

ويقول ابو تمام ، اخذا هذا المعنى كما يرى الامدي :

تعود بسط الكف حتى لو انه دعاها لقبض لم تجبه انامله (١٤٧)

والببت الاول ليس شعرا ، وانما هو تقرير بارد مباشر . ذلك ان
مسلم بن الوليد ينقل الفكرة كما هي ، ولا يضيف عليها من الشعر الا الوزن .
اما ابو تمام فيعبر بصورة شعرة : اي انه بوحى بان ممدوحه كريم بفطرته ،
حتى ان الكرم طبيعي فيه كما لو انه يتنفس ويمتشي . وكل تعبير بالصورة
بفتح افق الحساسية والتأمل ، بحيث لا يعود المعنى شيئا محددا منتهيا ،
وانما يصبح شيئا ينفث أو يتسع وسع الحساسية والتأمل .

وآخذ مثلاً رابعاً . يقول شاعر مجهول ، يصف السحاب :

كان صبيين باتا طول ليلهما يستمطران على غدران المقل

ويقول أبو تمام في وصف السحاب :

كان الغمام الغر غيبن تحتها حبيبا ، فما ترقى لهن مدام (١٤٨)

فكيف يصح القول ان ابا تمام اخذ المعنى من ذلك الشاعر ؟ الصورة في البيت الاول جامدة ، خارجية ، مباشرة ، تقريرية ليس فيها ايحاء . اما ابو تمام فقد مزج بين حالة النفس وحالة الطبيعة ، وخلق تطابقا بين فعل الانسان وفعل السحاب .

وهكذا اصبح الغيم عاشقا يبكي حبيبه الذي فقده .

أخذ مثلاً خامساً . يقول كثير عزة يمدح عمر بن عبد العزيز :

ونازعني الى مدح ابن ليلي قوافيها ، منازعة الطراب (١٤٩)

ويقول أبو تمام :

تفاير الشعر فيه ، اذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتل (١٥٠)

فكثير يحدد النزاع بينه وبين الشعر بانه نزاع شوق الى لقاء الممدوح ، فكل يريد ان يسبق صاحبه . والتعبير هنا كذلك تقريري ، بالاضافة الى ان البيت ركيك ، بصياغته ولفظه . اما ابو تمام فيطلق النزاع من جهة ، ويجعله نزاعا داخل الشعر فيما بين القوافي ، من جهة ثانية . ولا يخفى ما في لفظة : « وتفاير » من اشارة الى حركة الشوق وعمقها ، ومن اشارة الى الوقت نفسه الى كبرياء الشاعر الذي تقتل قوافيه بين يديه وهو ينظر اليها ، يتنافس بعضها في الغيرة من بعض ، ولها لرؤية الممدوح .

أخذ مثلاً سادساً . يقول الاعشى :

هم يطردون الفقر عن جارهم حتى يرى كالفصن الناضر

ويقول ابو تمام :

من نرد الاعدام عن اوطانه بالبدل ، حتى استطرف الاعدام

ولا شك ان في بيت الاعشى جمالا . فبقاء الجار غصنا ناضرا صورة حية تعبر عن الكرم تعبيرا موحيا غنيا . لكننا لا نستطيع ان نقول ان ابا تمام يستعيد هذه الصورة استعادة سرق . بل انه ، على العكس ، خلق علاقة بين الفقر والكرم ليست موجودة في بيت الاعشى . فكرم الممدوح شرد الفقر ، فغاب ، حتى صار يطلب لطرافته . والفقر بين « طرد » و « شرد » يكشف عن سكونية اللفظة الاولى ، فهي فعل يتم وينتهي ، ويكشف عن حركية اللفظة الثانية ، فهي فعل يظل فعلا مستمرا ، فالفقر ليس مطرودا ، بل مطارد . ولا ننسى ما في استخدام « استطرف » من خرق للعادة ، فان العادة جرت على كراهية الفقر والسعي الى تجنبه ، وابو تمام يحاول ان يخلق عادة السعي الى رؤية الفقر كأنه شيء غريب نادر .

ثمة امثلة كثيرة متشابهة يمكن ايرادها ، وكلها تؤكد على ان اتهام ابي تمام بالسرقة ناتج عن التمييز بين المعنى واللفظ ، واعتبار كل منهما كيانا قائما بذاته ، والنظر الى الشعر على انه نوع من المزج بينهما وفقا لقواعد معينة ، والى الابتكار على انه طريقة خاصة في هذا المزج . وبما ان الافكار كأفكار وجدت مع الانسان ، فقد صار محتما ان يكون الاكثر قدما في الزمان هو الاكثر ابتكارا لانه ، بحكم قدمه سيسبق من يأتي بعده . ومن هنا يقال في النقد العربي ان القدماء سبقوا الى المعاني ، وانهم لم يتركوا للمتأخرين معنى الا طرقوه . ومن هنا لم يفهم النقد الثورة التي أحدثها ابو تمام في علم المعاني ، ولا في طريقة التعبير . لم يفهموا بتعبير آخر ، شعره .

VII

هذه الثورة التي أحدثها ابو تمام يسميها الأمدي وغيره من النقاد « اخطاء واخلاقا واحالات واغاليط في المعاني والالفاظ » (١٥١) ، وينقل في هذا الصدد رأيا لبعضهم ورد في كتاب « الورقة » لابن الجراح ، يقول : « ان ابا تمام يريد البديع فيخرج الى المحال » (١٥٢) ، ومن هنا قيل انه تبع مسلم بن الوليد فافسد الشعر . ويفسر الأمدي المقصود من الافساد بأنه الاغراق في « طول طلب الطباق والتجنيس والاستعارات واسرافه في التماس هذه الابواب

وتوشيح شعره بها « (١٥٣) وكانت النتيجة أن « صار كثير » مما أتى به من المعاني لا يعرف ولا يعلم غرضه فيها إلا بعد الكد والفكر وطول التأمل ، ومنه ما لا يعرف معناه إلا بالظن والحدس « (١٥٤) . ولو أنه لم يوغل في تلك الأشياء و « لم يجاذب الالفاظ والمعاني مجاذبة ويقتصرها مكارهة ، وتناول ما يسمح به خاطره وهو بجمامه غير متعب ولا مكدود ، وأورد من الاستعارات ما قرب في حسن ، ولم يفحش ، واقتصر من القول على ما كان محدوا على حذو الشعراء المحسنين ، ليسلم من هذه الأشياء التي تهجن الشعر ، وتذهب بمائه ورونقه « (كان تقدم » عند أهل العلم بالشعر أكثر الشعراء المتأخرين . . . لما فيه من لطيف المعاني ومستغرب الالفاظ » (١٥٥) .

ويحاول الأمدي أن يدلل على صحة ما يذهب إليه ، فيخصص لذلك وهو ما يسميه ب « مساوئ » أبي تمام ، حوالى مئة وخمسين صفحة « (١٥٦) ، يذكر فيها « أخطاءه » و « محالاته » . من هذه ، مثلا ، قول أبي تمام يصف عنق الفرس :

هاديه جلع من الأراك ، وما تحت الصلا منه ، صخرة جلس (١٥٧)

ويلحق الأمدي على هذا البيت بقوله : « هذا من بعيد خطاه ان شبه عنق الفرس بالجلع ، ثم قال « جلع من الأراك » ومتى رأى عيدان الأراك تكون جدوعا ؟ أو تشبه بها اعناق الخيل « (١٥٨) ، فالأمدي ينتقد أبا تمام في شيئين : الأول تشبيهه عنق الفرس بما لا يشبه به ، والثاني جريه في هذا التشبيه على غير العادة المألوفة .

والنقد من الناحية الأولى صادر عن المزج بين الاسم والمسمى ، فالأمدي يعتقد أن أبا تمام يوحد بين الاسم والمسمى ، فهو يقصد من هذا التشبيه أن عنق الفرس جلع على الحقيقة ، وأن في الأراك جلعا ، مع أن « عيدان الأراك لا تغلف حتى تصير كالجلدوع ولا تقاربها » (١٥٩) . فالجلدوع إنما هي للنخل فقط . والنقد من الناحية الثانية صادر عن التمسك بالحدو على مثال الاقدمين ، وهذا موقف فاسد بذاته . وهكذا غاب عن الأمدي جوهر الشعر في هذا البيت ، بل أن ما ينتقده هو عنصر الشعر بالذات . فالاسم في الشعر غير المسمى . فان أبا تمام حين يشبه عنق الفرس بجلع من الأراك لا يريد أن يقدم معادلا لفظيا للعنق بذاته ، وإنما يريد أن يوحي بصفاته وهي اللين والحركة . فالعبارة هنا ليست المعبر عنه . ومن هنا غاب هذا التوازن أو هذا

التناقض في الفرس بين عنقه اللين المتحرك كالاراك ومؤخرته الثابتة الصلدة كالصخرة .

ومنها قول ابي تمام يصف الحلم :

رقيق حواشي الحلم لو ان حلمه بكفيك ما ماريت في أنه برد (١٦٠)

ويعلق الآمدي على هذا البيت فيذكر ما قاله ابن المعتز عنه : « هذا هو الذي اضحك الناس منذ سمعوه الى هذا الوقت » (١٦١) . ثم يقول : « والخطأ في هذا البيت ظاهر ، لاني ما علمت احدا من شعراء الجاهلية والاسلام وصف الحلم بالرقّة ، وانما يوصف بالعظم والرجحان والثقل والرزانة » . ويأتي بأمثلة كثيرة على ذلك (١٦٢) . ثم يقول : « وايضا فان البرد لا يوصف بالرقّة ، وانما يوصف بالمتانة والصفافة » . ويعجب « من اتباع البحري اياه في البرد » ، مشبرا الى قوله :

وليال كسبن من رقة الصيف فخلين انهن برود (١٦٣)

ويختم الآمدي قائلا أن ابا تمام « يريد ان يتدع فيقع في الخطأ » (١٦٤) . وموقف الآمدي هنا يستند الى قاعدة القديم ، فكل ما يرد في الشعر المحدث مما لم يرد في الشعر القديم ، او مما لا تسمح به الطرق المتبعة في الشعر القديم انما هو شيء باطل . فكأنه يريد من الشعر المحدث ان يكون مجرد استطراد لما اتى به الشعر القديم .

ويتهم الآمدي ابا تمام بالخروج عمدا عما « اعتمده » الشعراء قبله ، فهو « لا يجهل هذا من اوصاف الحلم ، ويعلم ان الشعراء اليه يقصدون ، وياه يعتمدون » (١٦٥) . وفي الخروج العائد عن سنة السلف ، يتضاعف الخطأ . وخطأ الآمدي هنا ناتج عن سوء فهمه ، فهو يعتبر لفظة البرد كما هي وكما ترسخ معناها بالاستعمال والعادة ، اي انه ينظر اليها كحقيقة . غير ان ابا تمام يفرغ اللفظة من شحنتها القديمة ويعطيها مدولا جديدا ، ثم انه لا يقصد ان يكون الاسم (الحلم) هو المسمى (البرد) . ومن هنا لا يعود ينطبق عليه مقياس الآمدي : « وكل ما دنا من المعاني من الحقائق كان الوط بالنفس ، واحلى في السمع ، واولى بالاستجادة » (١٦٦) ، ذلك ان ابا تمام لا يعنى بنقل

الحقيقة كما هي ، وانما يستخدم الحقيقة كما هي لكي يخيّل بوساطتها معنى آخر . فالتخيّل هو مدار اهتمامه ، لا نقل الحقيقة .

ومن الامثلة التي يمكن اعتبارها نموذجية ، في هذا الصدد ، اي الي يمثل بها الآمدي على الاحقيقية عند ابي تمام وعلى ضديته لما نطق به العرب ، قول ابي تمام ، يصف امرأة :

من الهيف ، لو ان الخلاخل صيرت لها وشحا ، جالت عليها الخلاخل

ويلقى الآمدي على هذا البيت بقوله : « ان هذا الذي وصفه ابو تمام ضد ما نطقت به العرب ، وهو اقبح ما وصف به النساء ، لان من شأن الخلاخل ان توصف بانها تعض في الاعضاء والسواعد ، ونضيق في السوق ، فاذا جعل خلاخلها وشحا تجول عليها فقد اخطأ الوصف ، لانه لا يجوز ان يكون الخلاخل الذي من شأنه ان يعض بالساق وشاحا جائلا على جسدها » (١٦٧) ، ثم يأتي بامثلة من الشعر القديم تؤيد ما يذهب اليه (١٦٨) .

ونستطيع الآن ان نقرر بعض مبادئ النقد التي يعتمدها الآمدي . المبدأ الاول هو حقيقية العبارة وحقيقية وصفها ما تعبر عنه ، بحيث يتم التطابق بين العبارة كاسم ، والمعبر عنه كمسمى . والمبدأ الثاني هو اعتبار ما قالته العرب في القديم نمطا معنويا وشكليا هو بالضرورة مثال يجب ان يحتدى ، لانه يمثل التعبير الاكمل عن المعاني . والمبدأ الثالث هو قياس جودة الشعر المحدث بمدى حرصه على استمرارية النمط القديم واحتدائه له .

وحين يريد الشاعر ان « يبتدع » ما ليس موجوداً في القديم أو « يزيد » على القديم أو « يغرب » ، فان ذلك « يخرج به الى الخطأ » (١٦٩) .

ويجد الآمدي اساس النمطية وعلة استمرارها في العادة الجارية عند الناس (١٦٩) وما يرغبون فيه ، وليس من الضروري ان تكون العادة فنية ، ولا الرغبة شعرية . ويجدهما كذلك في تقسيم الالفاظ الى نوعين : الفاظ « صيغتها صيغة الحقائق ، بعيدة من المجاز » والفاظ محدودة للمجاز ، وهي « مألوفة معتادة لا يتجاوز في النطق بها الى ما سواها » . وعلى هذا فان للمجاز نفسه « صورة معروفة » لا يجوز الاخلال بها (١٧٠) .

والقاعدة في ذلك ، كما يقررها الآمدي ، هي التالية : « وانما تستعمار اللفظة لغير ما هي له ، اذا احتملت معنى يصلح لذلك الشيء الذي استعيرت له ويليق به ، لان الكلام انما هو مبني على الفائدة في حقيقته ومجازه ، واذا لم تتعلق اللفظة المستعمارة بفائدة في النطق فلا وجه لاستعارتها » (١٧١) . وظاهر هذه القاعدة صحيح ، ولا خلاف فيه ، غير ان المسألة هي تحديد المعنى الصالح للشيء الذي استعيرت له اللفظة ، وكيف يتم تحديده ، ومن يحدده . والمسألة كذلك في تحديد معنى « الفائدة » من الكلام . هل هي في الاعلام نفسها في الانشاء ، وهل هي في الشعر نفسها في النثر ؟

وبهذه الحقيقية المباشرة الجامدة يحاكم الآمدي ما يهدف ابو تمام بوساطته الى التخيل لا الى رسم الواقع (١٧٢) . ونختار اخيرا للتدليل على خطأ الآمدي وسوء فهمه ، قول ابي تمام :

اجدر بجمرة لوعة ، اطفأوها بالدمع ، ان ترداد طول وقود

ويلحق الآمدي بقوله : « وهذا خلاف ما عليه العرب ، وضد ما يعرف من معانيها ، لان العلوم من شأن الدمع ان يطفىء الغليل ويبرد حرارة الحزن ، ويزيل شدة الوجد ، ويعقب الراحة » (١٧٣) .

وابو تمام يريد ان يخيل للقارىء مدى لوعته بحيث ان ما يظن انه يطفئها لا يزيدھا الا اشتعالا . يريد ، باختصار ، ان يقول : البكاء ، أحيانا ، لا يجدي .

نستطيع ان نضيف الآن مبدئين آخرين من مبادئ النقد عند الآمدي . الاول هو انه لا يجوز للشاعر ان يخرج الى غير المعروف ، فمجاله انما هو المؤلف وحده . والثاني هو ان كل استخدام لغير المعروف ، انما هو اغراب ، اي انه لا يدخل في نطاق الذائقة العربية .

ويتحدث الآمدي عن « قبيح الاستعارات » عند ابي تمام ، وبعد ان يورد امثلة من شعره ، يقول : « فجعل ، كما ترى ، مع غثاثة هذه الالفاظ - للدهر اخدا ، ويدا تقطع من الرند وكأنه يصرع (١٧٤) ، وجعله يشرق بالكرام (١٧٥) ، ويفكر (١٧٦) ويبتسم وان الايام بنون له (١٧٧) ، والزمان ابلق (١٧٨) (. . . .) وجعل لصروف النوى قدما (١٧٩) ، وللامن فرشا (١٨٠) ، وظن ان

الفيث كان دهرًا حائكا (١٨١) ، وجعل للأيام ظهرا يركب (١٨٢) ، والليالي كأنها عوارك (١٨٣) ، والزمان كأنه صب عليه ماء (١٨٤) ، وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والفشاعة والبعد من الصواب . وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس هو له إذا كان يقاربه أو يناسبه أو يشبهه في بعض أحواله ، أو كان سببا من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لا ثقة بالشئ الذي استعيرت له وملائمة لمعناه « (١٨٥) . وملاءمة معنى الاستعارة لمعنى ما استعيرت له هو القرب من الحقيقة (١٨٦) .

ويصوغ الأمدي أفكاره هذه بشكل آخر حينما يتحدث عن « فضل البحثري » فيقول : وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن الثاني ، وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ، ووضع الالفاظ في مواضعها ، وإن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله ، وإن تكون الاستعارات والتمثيلات لا ثقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه ، فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف وتلك طريقة البحثري « (١٨٧) والبلاغة هي قوام هذه الطريقة . ولهذا فإن أجود الشعر أبلغه . ويحدد الأمدي البلاغة بأنها « أصابة المعنى ، وإدراك الغرض بالفاظ سهلة عذبة ، مستعملة سليمة من التكلف ، كافية ، لا تبلغ الهذر الزائد على قدر الحاجة ، ولا تنقص نقصانا يقف دون الغاية . . . فإن اتفق - مع هذا - معنى لطيف أو حكمة غريبة أو أدب حسن ، فذلك زائد في بهاء الكلام ، وإن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه » (١٨٨) .

وهذه هي طريقة العرب القديمة ، وطريقة البحثري ، وهي تغلب البلاغة ، أو اللفظ على المعنى . وهي على طرفي نقيض مع طريقة أبي تمام ، التي يصفها الأمدي بأنها تقوم على « لطيف المعاني ودقيقها والإبداع والغرابة فيها والاستنباط لها » (١٨٩) . أي أنها طريقة تغلب المعنى على اللفظ . وإذا كانت هذه الطريقة التي تناقض طريقة البحثري هي طريقة الشاعر ، « وكانت مبادئه مقصورة عنها ، ولسانه غير مدرك لها حتى يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان أو حكمة الهند أو أدب الفرس ، ويكون أكثر ما يورده منها بالفاظ متعسفة ونسج مضطرب ، وإن اتفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليم النظر ، قلنا له : قد جئت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة ، فإن شئت دعوناك حكيما ، أو سميناك فيلسوفا ، ولكن لا نسيمك شاعرا ، ولا ندعوك بليغا ، لأن طريقتك ليست على طريقة العرب ، ولا على مذاهبهم ، فإن سميناك بذلك لم تلحقك بدرجة البلغاء ولا المحسنين الفصحاء .

وينبغي ان تعلم ان سوء التأليف ورداءة اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميئه حتى يحوج مستمعه الى طول تأمل ، وهذا مذهب ابي تمام في عظم شعره « (١٩٠) .

وهذا يعني ان ابا تمام ليس شاعرا « في عظم شعره » ، بينما الشاعر هو البحتري : « وحسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا حتى كأنه قد احدث فيه غرابة لم تكن ، وزيادة لم تعهد ، وذلك مذهب البحتري . ولهذا قال الناس : لشعره ديباجة ، ولم يقولوا ذلك في شعر ابي تمام » (١٩١) وهكذا يربط الأمدى الشعر بالكلام ، وبقرر ، انبأما « للمذهب الاوائل » ان الكلام يقوم بنفسه .

خلاصة الكتاب الثاني

- ١ -

رأينا ان طابع الثقافة العربية بين منتصف القرن الثاني ونهاية القرن الثالث للهجرة ، انما هو طابع الصراع بين العقل والنقل ، التجديد والتقليد ، الاسلاموية والعروبوية ، اعني بين اتجاهات سلفية ، واتجاهات عقلية - تجريبية .

مقابل فكرة البادية والقيم الناشئة عنها والمتصلة بها ، نشأت فكرة الحاضرة والقيم الناشئة عنها ، والمتصلة بها . ومقابل الاتجاه الذي يؤكد على التقليد نشأ الاتجاه الذي يؤكد على الابداع . ومقابل الحرص على المطابقة مع الدين والنظام ، نشأ الحرص على المطابقة مع الحياة والتغير ، ومقابل التعقل ورفض التخيل ، نشأت الحماسة والاندفاعات التخيلية .

هكذا نشأت ، على الصعيد الشعري ، لغة المدينة ، مقابل لغة الصحراء . وسيطر الجدل ، تبعاً لذلك ، بين القديم والمحدث : بين « عمود الشعر » او « مذهب الاوائل » من جهة ، ومذهب « المعاني المولدة والاستعارات البعيدة » من جهة ثانية ، او ، بتعبير آخر ، بين « المألوف المعروف » و « المخترع الغريب » . ونشأت مقابل خصائص القديم ، خصائص جديدة للحديث .

فمن خصائص الحداثة ، الفوص على المعاني ، والانفراد بمذهب مخترع . واقتترنت الحداثة كذلك بالعلم والثقافة ، بعامة ، او المرجع بين الالفاظ العربية والمعاني الفلسفية « ، بطريقة استخدام اللغة استخدماً جديداً يؤدي الى اقتران الكلمات اقتراناً غير مألوف مما يتعد باللغة عن صيغها القديمة ومجراها العادي .

- ٢ -

ففيما يتصل بالمنحى الاتباعي ، اي منحى الثبات ، راينا ان الثقافة العربية ، كما اصلها وعبر عنها الشافعي والاصمعي والجاحظ ، انما هي ثقافة سلفية ، وهي ، في الوقت نفسه ، ثقافة النظام الذي ساد .

تبدو الحياة ، في منظور الشافعي على الاخص ، انها بمختلف وقائعها ومستوياتها ، تدّين أو تنويعات على التدّين . ومن هنا كان يصف كل تفكير لا يكون اتباعا للسنة ، بأنه هذيان . وكان يسمي البحث العقلي « ترديا » ، ويؤكد ان « ممارسة علم الكلام » دليل على التجرد من الدين ، وان جميع الآثام والدنوب - ما عدا الشرك - اسهل عند الله من هذه الممارسة .

هكذا بدا الانسان في هذه النظرة كأنه مجرد شخص مكلف ليس وجوده في الدنيا الا امتحانا له . ولهذا فان وجوده يجب ان يكون طاعة ، بالضرورة . ومعنى ذلك ان الحرية عصيان وانفصال ، اما الخضوع فانتظام واتصال : انتظام في اطار سيادة النظام القائم ، واتصال بالسلفية واصولها .

اما في منظور الاصمعي والجاحظ فقد بدا ان الجديد انما هو تنويع على القديم ، او ترميم له ، او صهر لعناصره في صيغة جديدة . وبدا العربي في الحالين كأنه لا يعرف من الفكر الا بعده الغيبي ، اي الدين ، والا مظهره البياني ، اي اللغة . وبدا الفكر العربي انه فكر الذات التي تتأمل ذاتها تأمل استعادة ، لا فكر الذات التي تتأمل العالم او الطبيعة تأمل ارتباد واكتشاف .

الشعر (والفكر بعامة) موجود، بحسب الثبات أو الاتباع، في الشيء الماضي او الكلمة الماضية وجود اللحن أو الرائحة ، مثلا ، في الزهرة . وهو اذن يكرر العلاقات القديمة ، ويبقي البنية القديمة كما هي . لكنه، بحسب التحول أو الابداع، موجود خارج الشيء والكلمة، والانسان هو الذي يضيفه على الأشياء والكلمات . وهو يضيفه بطريقة تعبيرة الفريدة عن تجربته الفريدة . لذلك لا يكرر العلاقات القديمة ولا يحافظ على البنية القديمة ، وانما يكشف علاقات جديدة وبنية جديدة . وهكذا يغني العالم ويغني علاقتنا به . ومعنى ذلك انه يغيره .

والشكل ، بحسب الثبات ، قانون ونموذج . انه مطلق يصح لكل

زمان ومكان . كتلة تتدحرج غير عابثة بالزمان والمكان . والشاعر ، يجيء اليه من خارج ، وينظر اليه كأنه كيان معلق في مكان تجريدي . اما الشكل ، بحسب التحول ، فلا وجود له بذاته . انه يمتزج ، بالحياة والتجربة ، وينقل الى المكان حركة الزمان النفسي . وهو ، اذن ، حياة تتحرك في عالم يتحرك . انه نمو بلا نهاية .

واذا كان التقليد او الاتباع اخذا مباشرا او نقلا عن السنة ، وكانت السنة تقضي حتى على اللغة ، فانها بالاحرى تقضي على الفكر (١) . فالتقليد ذو منشأ ديني ، غير ان الصراع الذي بدأ بين العرب وغيرهم ، مع حركة الفتوحات والاستقرار في البلدان المفتوحة ، كان ، على الصعيد التاريخي ، عاملا حاسما في ترسيخ التقليد ، روحا ومنهجاً . فقد ولد هذا الصراع لدى العربي شعورا بان لغته ودينه وكيانه القومي وحدة لا تتجزأ ، وان كل مساس بأي من هذه الاطراف الثلاثة ، مساس بها جميعا . ومن هنا اخذ يحافظ عليها كما ورثها ، او كما فهمها اسلافه المؤسسون ، ولم يعد يميز بين معنى اللغة بذاتها ، مثلا ، او الدين بذاته ، وبين نظرة اسلافه اليهما ، وتبنى هذه النظرة باعتبارها حقيقة مطلقة .

هذا الفهم حول الشعر الى فن للشعر، اي الى معرفة اساليب الاقدمين والنهج على منوالها ، كذلك حول الدين الى تعاليم ومؤسسات . لم يعد الدين تجربة ، بقدر ما اصبح مفهوما . ولم يعد الشعر تجربة بقدر ما اصبح مجموعة من القواعد .

(١) فسر مرة ابو العباس ثعلب الحديث : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب فصاعدا » . بقوله ، لا يجزيه الا بالحمد وأخرى . فسأله فقيه : فما تقول في قول النبي : لا قطع الا في ربع دينار فصاعدا ، « قال : القطع في الربع فما زاد . قال : فهلا قلت مثل ذلك في الحمد انها تجزى وحدها ؟ قال ابو العباس : السنة تقضي على اللغة ، واللغة لا تقضي على السنة » . (مجالس ثعلب : ١ / ١٧٨ - ١٧٩) .

وكان ذلك يعني ، ضمن هذا المنظور ، ان القديم هو الاصل : ينشأ حوله ويموب كل شيء . اما هو فيبقى ، ويعني ، بالتالي ، ان العرب امة واحدة ، يجسدون هذا الاصل في المعرفة والايمان والعبادة ، وانهم ، في ذلك ولذلك « خير امة » ، وليس الزمن الا فرصة لاثبات جدارتهم في كونهم امة هذا الاصل الواحد . وكل ما يحدث في العالم الخارجي المادي ليس الا انفعالا يتكيف مع الاصل الروحي ، او يخضع له . ان ما نسميه بالحضارة ليس ، في هذا المنظور ، الا فطرة او رداء . وكما ان الرداء ، مهما تغير او تنوع ، لا يؤثر في طبيعة الجسم ، فان « التقدم » (او التخلف) لا يؤثر ، مهما تغير او تنوع ، في جوهر الاصل القديم . بل انه ، على العكس ، يثبت هذا الجوهر على ما هو عليه . وليست مهمة العقل تبعا لذلك ، مهما تقدم في كشوفه واوغل في اكتناه العالم ، الا ان يخضع لهذا الجوهر ، ويستسلم ضعيفا عاجزا .

الدين ، في هذا المفهوم ، يتجاوز التاريخ ، لانه فيما وراء التفسير . وليس له تاريخ ، ذلك انه هو التاريخ . ومن هنا يبدو في تناقض جوهري مع الثورة . فهذه تعد بعالم جديد ، نظريا وعمليا ، فتنتهي بذلك التاريخ قبلها ، وتبدأ تاريخا جديدا - اي رؤيا جديدة للعالم وللانسان . فهي تفترض ان ما تميمه افضل مما ازالته . وبما ان الاسلام هو خاتمة الكمال ، ويستحيل وجود ما هو اكمل منه ، فانه ينفي الثورة نفيا مطلقا . واذا جاز الكلام على ثورة فيه ، فانما تكون احتجاجا على السقوط التاريخي للانسان المسلم ، ومطالبة بالعودة الى الاسلام - النبع الاصلى . الثورة هنا تقييم لما اعوج ، وترميم لما انهار وليست ابداءا لعالم جديد . انها حركة ضمن الثابت الكامل ، من اجل ان يعرفه الذين جهلوه ، ويعود اليه الذين اهلوه ، وليست تجاوزا له في اتجاه التحول ، بحثا عن رؤيا جديدة .

كانت الدعوة للتغيير ، بتعبير آخر ، دعوة للعودة الى مبادئ الاسلام . ولم يكن اصحاب هذه الدعوة يطرحون مسألة ايجاد عالم افضل خارج الاسلام ، وعلى الانسان ان يكافح من اجل ابتكاره وتحقيقه ، وانما كانوا يطرحون مسألة الكفاح ضد الذين شوهوا العالم الافضل الموجود اصلا في

الاسلام ، او انحرفوا عنه . وهذا يعني ان كل ما يمكن ان يحلم به المسلم او يطمح اليه موجود في تراثه الاصلي المتحقق في الماضي ، وما عليه الا ان يؤمن به ويعيه ، لكي يتجلى له ذلك . ويعني ان المستقبل يسوِّغ بالماضي ، لان في هذا الماضي بذرة لكل احتمال مقبل . وليست المسألة اذن بالنسبة الى المسلم ، ان يغير الرؤيا الاسلامية الاصلية للعالم ، بل المسألة هي ان يعرفها حق المعرفة ، ويؤمن بها حق الايمان (١) .

وهكذا كان العربي ، يعيش فيما تمكن تسميته ، بالضياح المركب : ضياح السلفية ، وضياح السلطوية . وفي هذا الضياح ، كان العربي يعيش منعزلا عن الطبيعة ، متصلا بمفهوم تجريدي عن الله . كان ، في ذلك ، يحيا منفصلا عن الواقع ، ومنفصلا عن ذاته في آن . وتاريخ الانسان خاضع اذن لقبلية حتمية - لزم من اصبغ خارج الزمان . والانسان ، في هذه الحتمية يقبل ولا يسأل ، يتلقى ويأخذ ، ولا يفعل او يغير .

- ٣ -

في هذا الاطار نفهم اهمية الحركة الثورية ، وبخاصة ثورة الزنج والحركة القرمطية . فقد كانت هذه الحركة نوعا من العمل الجماعي، لتوليد الشروط المادية الملائمة لحياة الانسان ، وهي شروط كانت تعتبر ثائوية ، او كانت عطاء من الخلافة . وكان التاريخ الذي حاولت الحركة الثورية

(١) بين الحجاج وقطري بن الفجاءة جدل يوضح ، بشكل نموذجي ، ما اذهب اليه . فقد كتب الحجاج مرة الى قطري بن الفجاءة : « اما بعد ، فانك كنت اعرابيا بدويا ، تستطعم الكسرة ، وتخف الى الثمرة ، ثم خرجت ، تحاول ما ليس لك بحق ، واعرضت عن كتاب الله ، ومزقت من سنة رسول الله ... فارجع عما انت عليه بما زين لك » . ورد عليه قطري ، قائلا : « ... بل الله بصرنني من دينه ما اعماك عنه ، اذ انت سابح في الضلالة غرق في غمرات الكفر ، ذكرت ان الضرورة طالت بي ، فهلا برز لي من حزبك من نال الشيع ، واتكا فاندع . اما والله لئن ابرز الله صفحتك ، واظهر لي صلتك ، لتنكرن شبعك ، وتعلمن ان مقارعة الابطال ، ليست كتسطير الامثال » . (الكامل للمبرد : ٣٧٩/١) .

ان تكتبه ، بالفلاحين ، « اهل السواد » ، وبالمضطهدين على اختلاف انواعهم ، يعتبر خارج التاريخ ، لانه يعتبر نقیضا لارادة الخلافة . فقد كانت السلطة السياسية مؤسسة على مفهوم معين للدين ، جعل الدين نفسه محدودا بهذه السلطة وسياستها . كانت ذاتية الفرد ملغاة ، وكان يستحيل عليه ان يشبثها الا بان ينفي الدولة .

ولئن اتسمت الحركة الثورية بالتطرف ، او بما كان يدعى بالاباحية واتهمت على اساس ذلك بالتسعوبة والزندقة والالحاد ، فان هذا كان رد فعل ، ضد فعل من النظام غير انساني . كانت تريد ان تخلق وضعاً جديداً ، لا على صعيد الحياة والسلوك وحسب ، وانما على صعيدي التفكير والتعبير ايضا . فالحضور الساحق المطلق للسلطة ، انتج الرغبة في ثورة تمارس الغياب المطلق لكل سلطة : ثورة مستمرة لم تروض طوال ثلاثة قرون ، وهي ظاهرة فريدة في تاريخ الامم . وطبيعي اذن ان تتحرر من الابوة ورمزها : السلطة - الخليفة ، ومن العائلية القبلية وحياتها المغلقة . فالمضطهد يلجأ دائما الى الحرية ، ويؤسس كل شيء عليها . سيصبح ، اذن ، ضد الرموز التي نحول دونها : ضد الامة والخلافة . وسيقيم سلطة جديدة تحل محل السلطة القديمة : العقل بدلا من النقل ، والالحاد بدلا من التدين .

كانت الحركة النورية محاولة لازالة التناقض بين المواطن والدولة . ولا تمكن هذه الازالة الا بخلق التوافق بين المدنية (المواطنة) السياسية ، والانتماء الانساني . وهذا ما هدفت الى تحقيقه ، فاحلت محل العروبة الاسلام ، ومحل الانتماء المنصري الانتماء الديني . ولم تكن الحركة القرمطية الا نضجا زمنيا في هذه المحاولة . فقد عملت على ازالة هذا التناقض باقامة متحد مطلق ، بدلا من الدولة المطلقة ، باقتصاد مشترك وملكية مشتركة . كان هذا تجاوزا للمحاولات المتتالية الاولى التي قامت على ازالة التناقض بالعودة الى مبادئ الدين . وبلاضافة الى الملكية الجماعية والاقتصاد المشترك ، ركزت الحركة القرمطية على القاعدة الفقيرة المقموعة ، المستغلة من المجتمع ، وامبرت انها هي التي تمثل المجتمع حقا .

- ٤ -

اتخذت الثورة شكلها التنظيمي الاكمل في الحركة القرمطية ، ولئن كانت هذه الثورة متعددة لا تجمعها اسباب واحدة ولا غايات واحدة ، فقد

كانت تجمعها فكرة واحدة ، على الأقل هي القول بالخروج على الطغيان او على « السلطان الجائر » .

وكان للحركة الثورية اهمية تحويلية كبرى تجسدت ، على الاخص ، في الفصل بين العروبة والاسلام ، اي في القول باسلامية العروبة بدلا من عروبية الاسلام ، وفي اعطاء الاسلام بعدا انسانيا ، امنيا ، يتجاوز القومية والجنس الى الانسان بما هو انسان . وتجسدت كذلك في نظرية خلع السلطان الجائر ، وفي القول ان الخلافة لا يجوز ان تكون محصورة في قریش، وانما يجب ان تكون للاجدد والاحق ، ايا كان لونه وجنسه . وقد عنى ذلك صليا المساواة بين المسلم والمسلم ، دون فرق بين مولى او سيد ، عربي او اعجمي ، والمساواة بينهما اقتصاديا ، وفقا للعدالة والحق .

وطبيعي ان يرافق الثورة على البنية السياسية التي يمثلها هذا السلطان الجائر ، ثورة على البنية – الثقافية التي يستخدمها او يستند اليها . وقد تجلت هذه الثورة في مختلف المجالات الثقافية ، بدءا من اللغة . ولم تكن ثورة على مادة المعرفة بذاتها ، بقدر ما كانت ثورة منهجية تهدف الى تثبيت فهم جديد للموروث الثقافي ، ومنهج جديد في البحث والمعرفة . ويمكن ايجاز مبادئ هذه الثورة في ثلاثة : العقل قبل النقل ، الحقيقة قبل الشريعة ، الابداع قبل الاتباع .

هكذا نفت هذه الثورة حجية النقل بذاته ، اذا لم يكن مؤيدا بالعقل ، وهذا يعني انها اتخذت العقل اساسا ومقياسا . ففي اللغة رفضت الشاذ، اي كل ما لا يطرد قياسه عقليا ، وفي الدين قدمت حكم العقل ، فاذا تعارض مع النص كان لا بد من تاويل هذا النص بمقتضى العقل ، وادى ذلك الى تقديم الباطن على الظاهر واعتبار الحقيقة كامنة في الباطن ، اما الظاهر فتعليمي شرعي . ثم ادى ذلك الى انكار الدين والنبوة أصلا ، واقامة دين العقل من جهة ، وإلى القول بالنبوة المستمرة من جهة ثانية . والنبوة المستمرة شكل من اشكال نفي النبوة الاسلامية من حيث انها خاتمة النبوات . وهكذا لا تقتصر النبوة على فترة الوحي ، وانما هي ، دون زمان ، ولا نهاية لها . فهي نور ابدى قد يتجسد في شخص ، وقد يظل في مقره الالهي ، لكنها تور مستمر .

وعلى صعيد الشعر نشأت لغة شعرية جديدة ومقاييس نقدية جديدة،

نعارض لغة البادية المباشرة بلغة المدينة العقلية - المجازية ، ومقاييس البادية القائمة على التدقيق البسيط ، بمقاييس المدينة القائمة على الثقافة الواسعة ، المتنوعة .

وإذا كان القول بالنقل ينضمن القول بصحة المنقول ، التامة ، المستمرة عبر الزمان والمكان ، مما يعني ان مجال التطور في المنقول ضيق او مفلق ، فان القول بالعقل يتضمن الانفتاح وقابلية التطور المستمر ، بالضرورة . ذلك ان الموقف النقلي تقليدي بالضرورة ، اي تكراري بالضرورة . اما العقل فيرفض ، ويغير ، ويختار ، وفي هذا يكمن التطور .

وكان للمعتزلة دور اول في رفض التقليد والاعتماد على العقل . ووصل الامر بالنظام الى رفض الاخذ بالمنقول والمأثور ، والى الشك في الحديث وآراء المفسرين والى انكار حجية الاجماع ، واخيرا انكر ان يكون اعجاز القرآن في نظمه وحسن تأليفه وراى ان اعجازه في اخباره عن الغيوب ، فاما التأليف والنظم فان البشر قادرون على الكتابة مثل القرآن وعلى « ما هو افصح منه » ، (١) لولا ان الله صرفهم عن ذلك .

وفي مناخ الباطنية - الامامية ، اعني في مناخ الحقيقة ، نشأت الحركة الصوفية واكتسبت صيغتها القصوى ، في القرن الثالث الهجري ، مع ابي يزيد البسطامي ، والحلاج . وفي هذه الصيغة اعتبرت الشريعة رمزا لمعنى باطن ، اي ان قيمتها ليست في ظاهرها وانما هي في معناها الباطن . فالاسلام ، بحسب هذه الصيغة ، ليس في جوهره شريعة ، وانما هو حقيقة . انه ديانة القلب . فليس المسلم هو الذي ينتمي الى قوالب وقواعد ، وانما هو الذي ينتمي الى سر . وهذا يعني تجريد القرآن من المذهبية . فالاسلام هو القلب ، لا الاخلاق ولا الفلسفة ولا التشريع . والايمان ، على هذا ، ليس كلاما . لذلك ليس الدين تراثا يورث او ينقل ، فهو حركة القلب ، وهذه تعاش ولا تنقل . والايمان تجربة حميمة لا توصف . انه حب وعشق . وتبعاً لذلك تغيرت المعاني الظاهرة او الشرعية . فحل الحج بالهمة ، محل الحج الى البيت الحرام ، والسفر الروحي محل السفر الجسدي ، وحل الذكر ، مثلاً ، محل الصلاة ، اي حلت الصلاة الباطنية محل شكلها الظاهر . فالذكر مجالسة مع الله ومحادثة ، من اجل استدعاء حالة الوجد والاشراق . انه طريق الحب والمعرفة والفناء ، او هو المنهج

(١) الملل والنحل للبغدادي ، ص ٩٨ .

الصوفي للوصول الى الله ، مقابل المنهج العقلي في الفلسفة ، او المنهج النقلي في الدين . وحلت الولاية ، مثلاً ، محل النبوة . فالولاية منحة الهية ، شأن النبوة ، وهذا يعني انها مقدرة ازلا ، ولا تكتسب . انها نور الهى يقذفه الله في صدر الصوفي . ولهذا كان الولي معصوما عن الخطأ ، او على الاصح ، عن مخالفة الشرع . وهو يأتي بالكرامات ، ويخبر بالغيب ، ويسخر قوى الطبيعة . بل انه ، كما يذهب بعض الصوفيين ، افضل من النبي (١) . وهكذا يوغل الولي في فضاء اللانهاية الى ابعد مما اعطي للنبي . فهو متحرر من قيود الزمان والمكان ، سماؤه « الهوبة » ، وفلكه « التنزيه » ، ومشاهدته « شجرة الاحدية » - لا سدرة المنتهى ، الشجرة التي رآها النبي في معراجة ، والديمومة جناحاه ، والازلية مجاله (٢) . وفي هذا بداية التصور الرمزي للكون ، مقابل التصور الفقهي المادي المباشر ، وبداية مفهوم الكون الرمزي ، الذي سيعطيه في القرن السادس الهجري الكون السنجاري ومحبي الدين بن عربي صيغته الأكثر اكتمالا . وقد وصل هذا التفسير الرمزي ، في القرن الثالث مع الحلاج ، بخاصة ، الى ابطال الشريعة الظاهرة ، واقامة الباطن وحقيقته . وهذا يعني القول بالنبوة المستمرة كما اشرنا . والنبوة المستمرة انما هي نفي مستمر للعالم الراهن . وهي من هذه الناحية فكرة ثورية ، وميزتها الثورية مطلقة ، بمعنى انها غير مرحلية ، وغير محدودة . انها ، اذ تتحدث عن الواقع ترفضه وتحلم بواقع حقيقي . كل راهن يجب تجاوزه : ذلك هو المعنى العميق لفكرة النبوة المستمرة . انها ، بتعبير آخر ، ثورة مستمرة . غير ان هذه الدلالة الثورية في النبوة المستمرة ، غطيت بالمظهر المذهبي المحافظ ، بعوامل الصراع السياسي العنيف الذي خاضه القائلون بها . ومن هنا يجب ان نفهم هذه الفكرة ، في معزل عن ظروف هذا الصراع السياسي - ان نفهمها بذاتها . والواقع ان التصوف ، من الناحية السياسية ، كان ثورة اللا تملك في عالم قوامه التملك . القرمطية والصوفية تهدمان ، كل بخصوصيتها ، الاسلام السلطوي التقليدي : الاولى تبني مجتمع الفقراء والاشتراكية ، والثانية ترفض الجماعية ، وتقيم الدخلاء الدائمة . القرمطية تجاوز لاقتلاع الفرد ، الذي

(١) راجع في هذا الصدد : التصوف ، لابي العلا عفيفي ، ص ٢٥٨ ، وما بعدها . وانظر آراء الترمذي (توفي ٢٨٥ هـ) والداراني (توفي ٢١٥ هـ) في المصدر نفسه ، ص ٣٠٤ . وانظر ايضا كتاب : ختم الولاية .

(٢) اللع ، ص ٣٨٤ .

يمثله الدين بشكله السلطوي ، والصوفية تجاوز لهذا الاقتلاع الذي يمثله الدين ايضا ، بشكله الشرعي - الفقهي .

- ٥ -

كانت التجربة الباطنية - الصوفية تعني ، على صعيد الادب واللغة ، الفصل بين الاسم والمسمى ، والتوكيد على ان العبارة (الاسم) لا تساوي المعبر عنه (المسمى) ، فالعلاقة بينهما علاقة اشارة ورمز ، لا علاقة مطابقة وهوية . او هي بتعبير آخر ، علاقة احتمال لا علاقة يقين .

وقد ادى القول بالعلاقة اليقينية الى الاخذ بحرفية الكلمات ، ومحاكمة الشعر منطقيا واخلاقيا . بل ان هذا كان من اهم الاسس النقدية التقليدية . من هنا كان النقاد يسمون الشعر الذي يوحى بعلاقات احتمالية شعرا غامضا . وقد راينا فيما تقدم امثلة على هذا النقد كثيرة ، ندعمها بامثلة اخرى . فحين وصف عبدالله بن قيس الرقيات ناقتة في سيرها الى ممدوحه ، قائلا : « سواء عليها ليلها ونهارها » ، علق ابن ابي عتيق ، ناقد الحجاز ، قائلا : « هذه يا ابن ام ، فيما ارى ، عمياء » ؟ وقيل ان الشاعر رآه فسلم عليه ، فرد ابن ابي عتيق بقوله : وعليك السلام يا فارس العمياء . فقال له : ما هذا الاسم الحادث يا ابا محمد ، بأبي انت ؟ قال : انت سميت نفسك حيث تقول : « سواء عليها ليلها ونهارها » ، فما يستوي الليل والنهار الا على عمياء . قال : انما عنيت التعب . قال ابن ابي عتيق : فيبتك هذا يحتاج الى ترجمان ليترجم عنه (١) . فالناقد هنا يريد مطابقة مباشرة بين الاسم والمسمى ، بين العبارة وما تعبر عنه ، والا كان الكلام غامضا واحتاج الى ترجمان . وهذا الموقف النقدي هو في اساس النظرة التي انكرت على الشعر المحدث اتجاهه الى اقامة علاقات احتمالية بلجؤه الى المجاز والتخييل ، مما بلبل يقينية الدوق التقليدي . وقد عبر عن هذا الموقف ، بشكل استقصائي منظم ، الامدي في موازنته بين ابي تمام والبحري . وقد نفى الامدي ان تكون دقة المعاني مقياسا صالحا لتقييم الشعر ، لان هذه الدقة موجودة في كل لغة وكل امة . المقياس اذن هو ما تنفرد به اللغة العربية ، وهو البيان والفصاحة . ولهذا كان افضل الشعراء اكثرهم بيانا وفصاحة . ولا يكون البيان والفصاحة الا بالبعد عن دقيق المعاني . وهكذا

(١) الاغاني : ٨٦/٥ - ٨٩ .

يكون الشعر الحقيقي هو ما كانت الفاظه في مواضعها ، قريبة المأخذ ، وما كانت معانيه واردة بالالفاظ المعتادة المستعملة في امثال هذه المعاني . واذا كان الشعر بيانا في الدرجة الاولى ، وكان البيان خاصية عربية فان الشعر هو ، في المقام الاول ، بنية الفاظ ، « فصنة الالفاظ قائمة بنفسها مستغنية عما سواها » . « واذا لم يسلك الشاعر في شعره هذه الطريقة سمي حكيما ، وفيلسوبا ، لكنه لا يكون شاعرا ولا بليغا ، لان طريقته التي سلكها ليست على طريقة العرب ولا على مذهبهم » (٢) .

لكن ابا نواس و ابا تمام اقاما اسسا للجديد ، فلم يعد ، بالنسبة اليهما تنوعا على القديم ، او ترميما له ، او صهرا لعناصره في صيغة جديدة . اي ان الجديد لا يكون جديدا الا اذا كان نفيا للقديم - فنيا . لكن لا ينفي هذا النفي الفني ان يكون الجديد كامنا في القديم ، اعني ان يكون من ممكنات القديم . لكن الدليل على انه لم ينتقل من الامكان الى الفعل الا في هذه اللحظة هو ان القديم كان يحول دون انتقاله ، ودون تحقيقه - اي كان ينفيه . ولذلك لا يقدر الجديد ان يتحقق الا اذا نفى القوة التي كانت تنفيه ، اعني القديم .

- ٦ -

هكذا ، بين الثورة الاجتماعية ، والثورة الفكرية - بين عقلانية المجتمع ، المقرونة بعقلانية الدين وابطال النقل ، وباطنية الدين وابطال الظاهر ، والمنهج الشكي الاختباري التجريبي وابطال النبوة ، - كانت تنمو حركة التحول والابداع في المجتمع العربي . وقد اخذت هذه الحركة منحى ذاتيا : يرد الدين الى كونه تجربة ذاتية ، ويرد الشعر الى كونه هو الآخر تجربة ذاتية . تجلت هذه الحركة في التصوف ، وتجلت في المنحى الشعري عند ابي نواس و ابي تمام . اما الموضوعية الدينية فقد اخذت بعدا نقديا جذريا ، بانقلابها الى نقيضها : الموضوعية العقلية . لم يعد الدين في هذا المنحى هبوطا ليس للانسان فيه غير دور التلقي والتسليم ، وانما اصبح صعودا ايضا ، للانسان فيه دور الابداع . هكذا بدل ان يستمر الدين غيبا يجب ان يخضع له العقل ، اصبح غيبا يجب ان يخضع هو للعقل ، اي لتجربة الانسان وحياته . فالدين للانسان ، وليس الانسان للدين .

(٢) راجع في هذا الصدد : الموازنة : ٣٨٩/١ - ٤٠٥ .

ومن هنا نفهم طبيعة المواقفة بين الحركة الثورية والموقف النظري المتعلق بنفي الوحي وإثبات العقل ، كما تمثل عند الرازي وابن الراوندي . فهذان يحرران الانسان ، على اساس النظر العقلي ، والحركة الثورية تحرره على اساس النضال السياسي .

لقد نقد الرازي النبوة والوحي وإبطلهما ، وكان في ذلك متقدما جدا على نقد النصوص الدينية في اوروبا القرن السابع عشر . ان موقفه العقلي نفي للتدين الايماني ، ودعوة الى الحاد يقيم الطبيعة والمحسوس مقام الغيب ، ويرى في تأملهما ودراستهما الشروط الاولى للمعرفة . وحلول الطبيعة محل الوحي جعل العالم مفتوحا امام العقل : فاذا كان للوحي بداية ونهاية ، فليس للطبيعة بداية ولا نهاية . انها اذن خارج الماضي والحاضر : انها المستقبل ، ابدا .

لقد مهد الرازي وابن الراوندي للتحرر من الانغلاقية الدينية . ففي مجتمع تأسس على الدين ، باسم الدين ، كالمجتمع العربي ، لا بد ان يبدأ النقد فيه بنقد الدين ذاته . وطبيعي ان هذا النقد لا يجوز ان يكون هدفا بذاته ولدائه ، وانما يجب ان يكون وسيلة للهدف الاسمي : انعتاق الانسان مما يفرّ به ، انعتاقا جذريا وكاملا .

وهكذا اتحدت حركة التأويل ، اي تغيير المعنى القديم ، بحركة التثوير ، اي تغيير الواقع - الواقع القائم كتجسيد للمعاني القديمة .

هوامش الفصل الاول

(القسم الاول)

- (١) ولد الامام محمد بن ادريس الشافعي سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م في غزة ، وتوفي في مصر سنة ٢٠٤ هـ / ٨٢٠ م . وقد تتلمذ على الامامين مالك وابي حنيفة ، في بادىء حياته ، ثم انتهى الى مذهب خاص به ، وقد وصفه بأنه شيء جديد صرف الناس عن آراء مالك وابي حنيفة . ويقول ابن حجر عنه : « اجتمع له علم اهل الرأي وعلم اهل الحديث ، فتصرف في ذلك حتى اصل الاصول ، وقعد القواعد ، واذعن له الموافق والمخالف واشتهر امره ... » .
- راجع : المدخل الى علم أصول الفقه ، معروف الدواليبي ، الطبعة الخامسة ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٣٦٩ - ٣٧٦ ، نسح الاسلام ، احمد امين : ٢٢٠/٣ وما بعدها . الامام الشافعي ، عبد الحليم الجندي ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٧٤ وما بعدها . تاريخ المذاهب الاسلامية ، محمد ابو زهرة : ٢٢٧/٢ - ٢٨٠ .
- (٢) الامام الشافعي ، فقيه السنة الاكبر ، عبد الفني الدقر ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٢٩٥ .
- (٣) آداب الشافعي ، ومناقبه ، لابن ابي حاتم الرازي ، ص ٥٥ .
- (٤) مناقب الشافعي للفخر الرازي ، ص ٥٧ . وراجع اقوالا بهذا المعنى في : الامام الشافعي للدقر ، ص ٢٠٦ - ٢٠٨ .
- (٥) نقلا عن : الامام الشافعي ، للدقر ، ص ٢١٣ .
- (٦) آداب الشافعي ومناقبه ، ص ٩٢ .
- (٧) مخطوطة « مغيث الخلق في اختيار الاحق » نقلا عن : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .
- (٨) الرسالة ، تحقيق احمد محمد شاكر ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٤٠ ، ص ٨ ، ١٠ .

- (٩) سورة فصلت ، ٤١ ، ٤٢ .
- (١٠) الرسالة ، ص ١٧ .
- (١١) المصدر نفسه ، ص ١٩ .
- (١٢) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
- (١٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .
- (١٤) الرسالة ، ص ٢١ - ٢٢ . أنظر أيضا : ص ٣٢ - ٣٣ .
- (١٥) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .
- (١٦) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
- (١٧) المصدر نفسه ، صفحة ٤٠ .
- (١٨) المصدر نفسه ، ص ٧٣ - ٧٦ . وبهذا المعنى يقول في « جماع العلم » : « لم اسمع احدا نسبته الناس او نسب نفسه الى علم ، يخالف في أن فرض الله عز وجل اتباع امر رسول الله صلى الله عليه وسلم والتسليم لحكمه ، وبأن الله عز وجل لم يجعل لاحد بعده الا اتباعه ، وانه لا يلزم قول بكل حال الا بكتاب الله او سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وان ما سواها تبع لهما » . (١) (جماع العلم ، بتحقيق احمد محمد شاكر ، مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٠ ، ص ١١) .
- (١٩) المصدر نفسه ، ص ٧٨ . والاشارة هنا الى الآية : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » (آل عمران : ١٦٤) وهذا الاقتران بين الكتاب والحكمة يتكرر في آيات عدة : البقرة : ١٢٩ ، ١٥١ ، ٢٣١ ، الجمعة : ٢ ، النساء : ١١٣ ، الاحزاب : ٣٤ .
- (٢٠) الرسالة ، ص ٧٩ . وأنظر أيضا : ص ٨٤ - ٨٥ ، ١٠٤ .
- (٢١) المصدر نفسه ، ص ٩١ - ٩٢ .
- (٢٢) الشافعي ، فقيه السنة الاكبر ، ص ١٩٥ . وفي هذا المعنى يقول : « اذا وجدتم سنة صحيحة فاثموها ، ولا تلتفتوا الى قول احد » . ويقول ايضا : « ما من احد الا وتذهب عنه سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمزب عنه ، فمهما قلت من قول ، او اصلت من أصل فيه عن رسول الله خلاف ما قلت ، فالقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قلبي » . (معجم الادباء : ٣١١/١٧) .
- « اذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقولوا بها ودعوا ما قلت » . (توالي التأسيس ، لابن حجر ، ص ٦٣) . « متى رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا

- صحيحاً ولم آخذ به . فاشهدكم على ان عقلي ذهب » (المصدر السابق ، ص ٦٣) . وأنظر مجموعة من مثل هذه الاقوال في : الامام الشافعي ، فقيه السنة الاكبر ، ص ١٩٨ - ٢٠٣ .
- (٢٣) جماع العلم ، ص ٣٣ .
- (٢٤) جماع العلم ، ص ٣٣ - ٣٤ . أنظر أيضاً : الام ١١٣/٥ - ١١٤ . وأنظر : الرسالة ، ص ٤٢٥ .
- (٢٥) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .
- (٢٦) المصدر نفسه ، ص ٣٩ - ٤٠ .
- (٢٧) الرسالة ، ص ٤١ .
- (٢٨) المصدر نفسه ، ص ٥٣ . أنظر أيضاً : ص ٥٠٧ ، ٥١١ .
- (٢٩) تاريخ المذاهب الاسلامية : ٢/٢٦٥ .
- (٣٠) راجع : المستصفى للغزالي (المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٣٢٢ هـ) : ٢٧١/١ . ويعرف الاستحسان بأنه « نوع من القياس يقوم على الاخذ في مسألة ما بحكم يخالف الحكم المعروف في القياس » ، وذلك اما « لرجحان علة في دليل الاستحسان هي ادق واخفى من العلة المعروفة في دليل القياس ، واما لضرورة توجب مصلحة او تدفع حرجاً ، عندما يكون اطراد العمل بالقواعد العامة وبالحكم القياسي مؤدياً الى حرج او مشكلة في بعض المسائل » . ويعرف الاستحسان أيضاً بأنه « العدول بالمسألة عن حكم نظائرها الى حكم آخر ، لوجه أقوى يقتضي هذا العدول » . (راجع : مالك ، لابي زهرة ، مطبعة الاعتماد ، مصر ١٣٦٥ هـ ، ص ٣٢٢ . الحقوق المدنية في البلاد السورية ، مصطفى الزرقا ، مطبعة الجامعة السورية ، الطبعة الثالثة ، دمشق ١٣٦٧ هـ : ٢٧/١ . المدخل الى علم أصول الفقه ، معروف الدواليبي ، ص ٢٩٣ وما بعدها .
- (٣١) الام ، للشافعي ، سلسلة « كتاب الشعب » ، القاهرة ١٩٦٨ : ٢٦٧/٧ - ٢٧٧ .
- (٣٢) مالك ، لابي زهرة ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ . أنظر أيضاً : المدخل الى علم أصول الفقه ، ص ٢٩٩ .
- (٣٣) يعرف الاستصلاح بأنه « بناء الاحكام الفقهية على مقتضى المصالح المرسلة » ، وهي المصالح « التي لم يقيد اعتبارها بورود نص خاص بعينها ، وانما العمدة في اعتبارها على ما جاء في الشريعة من أصول

- عامة وقواعد كلية ، من شأنها أن تعتبر المصالح وان تحميها بصورة
مرسلة ، اي مطلقة غير مقيدة بنص خاص » . (المدخل الى علم اصول
الفقه ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٢٣٨) .
- (٣٤) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ .
- (٣٥) كتاب الام : ٢٠٣/٦ .
- (٣٦) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، مصطفى عبد الرزاق ، الطبعة
الثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ . انظر أيضا : الشافعي
لأبي زهرة (مطبعة العلوم بمصر ١٣٦٤ هـ .) ص ٣٢٠ . وانظر :
المدخل الى اصول الفقه ، ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .
- (٣٧) تاريخ المذاهب الاسلامية : ٢/٢٧٠ - ٢٧١ .
- (٣٨) الرسالة ، ص ٣٥٧ - ٣٥٩ . ومثال هذا العلم : الصلوات الخمس ،
وصوم شهر رمضان ، والحج ، وتحريم الزنا والقتل والسرقه والخمر ،
وما كان في معنى هذا .
- (٣٩) المصدر نفسه ، ص ٣٥٩ .
- (٤٠) الرسالة ، ص ٣٧١ - ٣٧٢ .
- (٤١) المصدر نفسه ، ص ٤٧١ .
- (٤٢) المصدر نفسه ، ص ٤٧٥ - ٤٧٦ .
- (٤٣) جماع العلم ، ص ٦٥ - ٦٦ .
- (٤٤) الرسالة ، ص ٥٣٤ .
- (٤٥) جماع العلم ، ص ٦٦ في الهامش .
- (٤٦) تاريخ المذاهب الاسلامية : ٢/٢٦٢ .
- (٤٧) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٣٣٥ ، ٣٣٨ - ٣٣٩ . انظر أيضا :
الشافعي ، لأبي زهرة ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٥ .
- (٤٨) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٣٣٨ .
- (٤٩) المصدر نفسه ، ص ٣٤٠ .
- (٥٠) تاريخ المذاهب الاسلامية : ٢/٩٦ .
- (٥١) الرسالة ، ص ٤٧٦ .
- (٥٢) المصدر نفسه ، ص ٤٧٧ .
- (٥٣) جماع العلم ، ص ٩٧ .
- (٥٤) الرسالة ، ص ٤٧٨ - ٤٧٩ .
- (٥٥) المصدر نفسه ، ص ٥٠٣ - ٥٠٤ .

- (٥٦) الرسالة ، ص ٥٠٥ .
- (٥٧) المصدر نفسه ، ص ٥٠٧ .
- (٥٨) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .
- (٥٩) المصدر نفسه ، ص ٥٠٨ .
- (٦٠) المصدر نفسه ، ص ٥١٢ في الهامش .
- (٦١) المصدر نفسه ، ص ٥٠٩ - ٥١٠ . راجع أيضا : الام ، الجزء السابع : كتاب ابطال الاستحسان .
- (٦٢) الرسالة ، ص ٥١٠ ، راجع شروطا أخرى ، ص ٥١٠ - ٥١١ .
- (٦٣) المصدر نفسه ، ص ٥١٢ .
- (٦٤) المصدر نفسه ، ص ٥١٣ . وانظر كذلك امثلة وشروحا مشابهة في الصفحة ٥١٤ وما بعدها .
- (٦٥) المصدر نفسه ، ص ٥١٥ - ٥١٦ . مثلا : اباح الله للمسلمين « دماء أهل الكافرين المقاتلين غير المعاهدين وأموالهم » ، لم يحظر « عليهم منها شيئا » ، « فكان ما نلنا من ابدانهم دون الدماء ومن اموالهم دونها كلها » ، اولى ان يكون مباحا « ، فهذا » معنى ما أحل الله وحرم ، لانه داخل في جملته ، فهو بعينه لا قياس على غيره » . (المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها) .
- (٦٦) الرسالة ، ص ٥٦٠ .
- (٦٧) المصدر نفسه ، ص ٥٧٨ .
- (٦٨) المصدر نفسه ، ص ٥٩٩ .
- (٦٩) المصدر نفسه ، ص ٤١ - ٤٢ .
- (٧٠) المصدر نفسه ، ص ٤٤ . انظر أيضا : ص ٥٠ - ٥٣ : « لا يعلم من ايضاح جبل علم الكتاب احد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوه وجماع معانيه وتفرقها . ومن علمه انتفت عنه الشبهة التي دخلت على من جهل لسانها » .
- (٧١) نقلا عن : الامام الشافعي ، عبد الحليم الجندي ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٣٤٦ .
- (٧٢) الرسالة ، ص ٤٦ .
- (٧٣) المصدر نفسه ، ص ٤٨ - ٤٩ . وانظر حاشية المحقق ، حيث يجد في العبارة الاخيرة « معنى سياسيا وقوميا جليلا » .
- (٧٤) آداب الشافعي ومناقبه ، ص ١٥٠ .

- (٧٥) تهذيب الاسماء واللغات ، للنووي : ٦٥/١ . ومن هنا كان يقال عنه :
« أن محمد بن ادریس وحده (أي في عصره) يحتج به ، كما يحتج
بالبطن من العرب » (طبقات الشافعية : ١٦١/٣) .
- (٧٦) راجع خلاصة من قضية الامر والنهي في : المدخل الى علم اصول
الفقه ، ص ١٦٠ وما بعدها . وانظر : كشف الاسرار على اصول
اليزدوي : ١٠٧/١ وما بعدها .
- (٧٧) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ١٧٤ .
- (٧٨) شذرات الذهب : ٩/٢ .
- (٧٩) مفتاح السعادة : ٢٦/٢ .
- (٨٠) انظر اقوالا واخبارا عن الشافعي حول هذه المسألة وحول علم الكلام
بعمامة جمعها عبد الغني الدقر من المصادر القديمة في كتابه : الامام
الشافعي ، فقيه السنة الاكبر ، ص ٢٢٤ - ٢٣٤ .
- (٨١) تاريخ المذاهب الاسلامية : ٢٥٢/٢ .
- (٨٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥٣ .
- (٨٣) احياء علوم الدين ، دار الشعب - القاهرة : ٣٠/١ .
- (٨٤) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٣٧٥ . ويشير الدواليبي الى ان
« دائرة القياس في المذهب الشافعي اوسع منها عند غيره » . والى
انه « ادخل في القياس كثيرا من مسائل الاستحسان والاستصلاح
وسماها قياسا ، خلافا للغزالي الشافعي الذي اعتبرها من المصالح
المرسلة لا من القياس » . (المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها) .
- (٨٥) ولد سنة ١٦٤ هـ . ، وتوفي سنة ٢٤١ هـ . ٨٥٥/٠م . انظر : تاريخ
التشريع الاسلامي في ذيل علم اصول الفقه ، عبد الوهاب خلاف ،
الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٦١ هـ ، ص ٥٣ وما بعدها ، ضحى
الاسلام ، احمد امين ، القاهرة ١٣٥٣ هـ : ١٢٢/٢ وما بعدها .
ابن حنبل ، محمد ابو زهرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٣٣٧ هـ .
المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٣٧٦ - ٣٨٠ . شيخ الامة ، احمد
ابن حنبل ، عبد العزيز سيد الاهل ، دار العلم للملايين ، بيروت
١٩٧٢ .
- (٨٦) يضاف الى ابن حنبل في هذا القرن داوود الاصبهاني ، مؤسس
المذهب الظاهري . وقد ولد سنة ٢٠٢ هـ ، وتوفي سنة ٢٧٠ هـ .
تتلمذ على المذهب الشافعي ، وكان معجبا به ، وكتب في فضائله

كتاباً . وقد نفى الراي والقياس وما يتصل بهما نفياً كلياً ، وأخذ بالنص الظاهر ، وحده ، دون غيره . ويرى الأصهباني أنه « لا علم في الاسلام الا من نص ، وأبطل القياس ولم يأخذ به . ولقد قيل له : كيف تبطل القياس ، وقد أخذ به الشافعي ؟ فقال : أخذت أدلة الشافعي في إبطال الاستحسان فوجدتها تبطل القياس » . (تاريخ المذاهب الاسلامية : ٣٥٥/٢) .

وهذا ما سيعلمه ، بتنظير اكمل ، ابن حزم الاندلسي (٣٨٤ هـ - ٤٥٦ هـ) (انظر المصدر السابق : ٣٦٢/٢ - ٤١٥) .

(٨٧) تاريخ المذاهب الاسلامية : ٣٠٤/٢ .

(٨٨) المصدر نفسه : ٣٠٤/٢ - ٣٠٦ .

(٨٩) المصدر نفسه : ٣٢٤/٢ - ٣٢٥ .

(٩٠) المصدر نفسه : ٣٢٥/٢ .

(٩١) راجع رسالته عن السمع والطاعة للامام الجائر في : المناقب لابن الجوزي ، ص ٧٦ ، وتاريخ المذاهب الاسلامية : ٣٢٧/٢ .

(٩٢) الحارث بن اسد المحاسبي ، متصوف معتدل على مذهب اهل السنة . مات سنة ٢٤٥ هـ وقيل ٢٤٣ هـ .

(٩٣) « المسائل في اعمال القلوب والجوارح ، والمكاسب ، والعقل » بتحقيق عبد القادر احمد عطا ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٢٣٢ .

(٩٤) يعلق محقق الكتاب على هذا الحديث بقوله : « وذلك حفظاً لوحدة الامة ، وصيانة للجماعة ، فذلك أصل من أصول الحكم في الاسلام » . (ص ٢٣٢) .

(٩٥) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

(٩٦) المصدر نفسه ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٩٧) الطبري : ٢١٦/٧ ، والعبارة واردة في كتاب لروان بن محمد بعث به الى الوليد بن يزيد .

(٩٨) راجع نص الكتاب في : الطبري : ٢١٩/٧ - ٢٢٤ .

(٩٩) الطبري : ٤٢٥/٧ - ٤٢٦ .

(١٠٠) المصدر نفسه : ٤٢٦/٧ - ٤٢٨ .

- (١٠١) الطبري : ٥٧١/٧ . انظر أيضا : طبيعة الدعوة العباسية ، لفاروق عمر ، دار الارشاد ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ١١٩ وما بعدها .
- (١٠٢) الطبري : ٥١٩/٧ .
- (١٠٣) راجع أخبار اضطهاده إياهم وسجنهم وقتلهم في الطبري : ٥٣٠/٧ وما بعدها .
- (١٠٤) العقد الفريد : ٣٧٠/٣ .
- (١٠٥) يقول المنصور في كتابه الى محمد النفس الزكية : « ولم يجعل الله النساء كالعمومة والاباء ، ولا كالعصبة والاولياء ، لان الله جعل العم ابا » . (الطبري : ٥٦٨/٧) .
- ويقول النوبختي : « فردهم المهدي عن اثبات الامامة لمحمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم واثبت الامامة بعد النبي وآله للعباس بن عبد المطلب ودعاهم اليها ، وقال : كان العباس عمه ووارثا اولى الناس به » . (ص ٤٢ - ٤٣) .
- (١٠٦) طبيعة الدعوة العباسية ، ص ١١٩ - ١٢٠ .
- (١٠٧) انظر : تاريخ الاسلام ، الجزء الثاني ، حسن ابراهيم حسن ، الطبعة السابعة ، مكتبة النهضة ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٦ . انظر أيضا : النظم الاسلامية للمؤلف نفسه (الطبعة الثالثة) ص ٥٠ - ٥١ . وانظر : العقيدة والشرعية في الاسلام : جولدسيهر (الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٤٨) .

هوامش الفصل الثاني

(القسم الاول)

- (١) اسمه غيلان . توفي ، على الأرجح ، سنة ١١٧ هـ .
- (٢) الموشح ، ص ٢٧ . والقصيدة المشار اليها هي التي يقول فيها :
ان العراق لاهلي لم يكن وطننا والباب دون أبي فسان مسدود
ويروى : مشدود . انظر : ديوان ذي الرمة ، الطعة الثانية ، المكتب
الاسلامي ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٨٥ .
- (٣) العمدة : ٢٠٦/١ .
- (٤) الموشح ، ص ٢٧٠ .
- (٥) المصدر نفسه ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .
- (٦) الموشح ، ص ٢٧٣ .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ ، وانظر ايضا : ص ٢٨٢ .
- (٨) المصدر نفسه ، ص ٢٨٥ .
- (٩) المصدر نفسه ، ص ٢٤٦ .
- (١٠) ولد ابن ابي عتيق في خلافة عثمان على الأرجح ، اي بين سنة ثلاث
وعشرين وخمس وثلاثين للهجرة . وتوفي ، على الأرجح ، حوالي سنة
١١٦ هـ . انظر اخباره في الجزء الاول من الاغاني ص ٩٤ وما بعدها .
وانظر : ابن ابي عتيق ، ناقد الحجاز : اخباره ونقده ، عبد العزيز
عتيق ، منشورات جامعة بيروت العربية ، بيروت ١٩٧٢ .
- (١١) الاغاني : ١٠٨/١ . انظر ايضا : ابن ابي عتيق ، ناقد الحجاز ،
ص ١٩٨ .
- (١٢) المصدر السابق ، ص ١٩٣ - ٢٤٤ .
- (١٣) المصدر نفسه ، ص ٢٤٤ - ٢٦٠ .
- (١٤) المصدر نفسه ، ص ٢٦١ - ٢٨٠ .

- (١٥) الموشح لأبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المربزباني (٣٨٤ هـ) تحقيق البجاوي ، دار نهضة مصر ، ١٦٥ ، ص ١٥٥ . انظر أيضا : تاريخ الادب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة عبد الحليم النجار ، الجزء الاول، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ ، ص ١٤٦ .
- (١٦) الموشح ، ص ١٠٠ .
- (١٧) المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .
- (١٨) الشعر والشعراء : ٢٢٤/١ . وهناك صيغة أخرى لهذا الكلام في : الموشح ، ص ٨٥ ، حيث يقول المربزباني : « طريق الشعر اذا ادخلته في باب الخير لان . الا ترى ان حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والاسلام ، فلما دخل شعره في باب الخير ، لان » . انظر أيضا : تاريخ الادب العربي لبروكلمان : ١٥٣/١ .
- (١٩) الموشح ، ص ٨٥ .
- (٢٠) المصدر نفسه ، ص ٨٥ .
- (٢١) ولد الاصمعي سنة ١٢٣ هـ و توفي سنة ٢١٠ هـ .
- (٢٢) كتاب فحولة الشعراء ، ص ٩ .
- (٢٣) فحولة الشعراء ، ص ٩ . يقول : « اولهم كلهم في الجودة امرؤ القيس ، له الحظوة والسبق ، وكلهم اخذوا من قوله ، واتبعوا مذهبه » . انظر أيضا : ص ١٨ من المصدر نفسه .
- (٢٤) المصدر نفسه ، ص ١٠ .
- (٢٥) الموشح ، ص ١٥ ، ٨٥ .
- (٢٦) الموشح ، ص ٨٥ .
- (٢٧) فحولة الشعراء ، ص ١٢ .
- (٢٨) المصدر نفسه ، ص ١٤ .
- (٢٩) فحولة الشعراء ، ص ١٤ .
- (٣٠) المصدر نفسه ، ص ١٥ .
- (٣١) العمدة : ١٣٢/١ .
- (٣٢) فحولة الشعراء ، ص ٢٠ .
- (٣٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .
- (٣٤) طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٠ . وتروى هذه الكلمة ايضا بالشكل التالي : « الشعر علم قوم لم يكن لهم اعلم منه » (العمدة لابن رشيق ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٢ ، الطبعة الرابعة ، ص ٢٧) .

- (٣٥) البلفة في تاريخ أئمة اللغة ، للفيروزآبادي ، تحقيق محمد المصري ، دمشق ١٩٧٢ ، ص ٨١ .
- (٣٦) طبقات فحول الشعراء ، ص ٣٣ . راجع في هذا الصدد ، وفيما يتعلق بالشعر الجاهلي بعامة : ١ - كارل بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، الجزء الاول ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٦٨ ، ص ٤٤ - ٥٠ . ب - طه حسين : في الادب الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة العاشرة ١٩٦٩ . ج - ناصر الدين الاسد : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة - ١٩٦٦ . د - شوقي ضيف : تاريخ الادب العربي - العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ، (بدون تاريخ) .
- (٣٧) مجالس ثعلب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٦٠ ، الجزء الثاني ، ص ٤١١ - ٤١٢ .
- (٣٨) الزهر في علوم اللغة وانواعها ، لجلال الدين عبد الرحمن بن ابي السيوطي ، دار احياء الكتب العربية ، الجزء الثاني ، ص ٤٧٧ . وابن حذام هو الذي ذكره امرؤ القيس في قوله :
عوجا على الطل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكي ابن حذام .
غير ان مؤرخي الشعر الجاهلي يختلفون في اسمه ، فهو تارة ابن حذام او ابن خدام ، وهو تارة ابن حمام . انظر : مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، حسين عطوان ، دار المعارف بمصر ١٩٧٠ ، ص ٧٣ - ٧٩ .
- (٣٩) الحيوان ، الجاحظ (ابو عثمان عمرو بن بحر) تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٣٨ : ٧٤/١ . وانظر : العمدة : ٨٧/١ .
- (٤٠) الزهر : ٤٧٧/٢ .
- (٤١) انظر في هذا الصدد : تاريخ الادب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة عبد الحليم النجار ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٦٨ ، ٤٤/١ - ٥٠ .
- (٤٢) جمهرة اشعار العرب ، القرشي (ابو زيد محمد بن ابي الخطاب) ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ٢٦ .
- (٤٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

- (٤٤) المصدر نفسه ، ص ٤٠ - ٥٥ .
- (٤٥) جمهرة اشعار العرب ، ص ٤٠ - ٥٥ .
- (٤٦) المصدر نفسه ، ص ٣٧ .
- (٤٧) سندررس راي الجاحظ في هذا الصدد ، في فصل مقبل .
- (٤٨) عيون الاخبار ، ابن قتيبة (ابو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري) ، طبعة دار الكتب بالقاهرة : ١٨٥/٢ .
- (٤٩) المصدر نفسه : ١٨٥/٢ .
- (٥٠) المصدر نفسه : ١٨٥/٢ .
- (٥١) طبقات فحول الشعراء ، ص ١٠ .
- (٥٢) القبلية نمط حياة خاص بالقبيلة . والقبيلة وحدة اجتماعية - سياسية مستقلة تجمع بين افرادها رابطة النسب الابوي . وتعرف القبيلة بأنها الجماعة التي تنتمي الى اب واحد . فاسم القبيلة يؤخذ من اسم الاب . ولكل قبيلة حدودها الارضية ، تقع ضمنها منازلها ومراعيها ومياهها ، كذلك لها اعرافها وتقاليدها المتميزة . (راجع : نهاية الارب في انساب العرب للقلقشندي ، تحقيق الابياري ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٠ - وجمهرة انساب العرب لابن حزم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢ ، ص ٧ وما بعدها . ويستند في نظام النسب الابوي الى الآية : « ادعوهم لابائهم » (الاحزاب : ٥) . وراجع : القاموس المحيط ، مادة قبل . والعصبية القبلية واثرها في الشعر الاموي ، احسان النص ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٤٥ - ٥٦ .
- (٥٣) ايام العرب في الجاهلية ، محمد احمد جاد المولى بك وعلي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه . (دون تاريخ) . راجع خاصة : ص ٤٨ - ٥٠ ، ٥٥ - ٥٨ ، ٦٤ - ٦٩ ، ٧٩ - ٨٤ ، ٨٦ - ٨٩ ، ٩٧ - ٩٨ ، ١٠٠ - ١٠٢ ، ١١٣ - ١١٤ ، ١٢٩ - ١٣١ ، ١٣٥ - ١٣٦ ، ١٤٧ - ١٦٨ ، ١٨٠ - ١٨٣ ، ١٨٨ - ١٩٠ ، ١٩٤ - ١٩٦ ، ٢٠٣ - ٢٠٥ . الخ . فصفحات الكتاب تكاد أن تكون كلها مليئة بالشعر الذي يمكن التمثيل به على هذا الارتباط . ويراجع حول دور الشاعر في التنافس القبلي ، واصطحاب القبيلة شعراءها الى المواسم والاسواق للتفاخر ، ونطق الشاعر باسم قبيلته ، ودفاعه عنها ، وتحريضها وتشجيعها . الخ : العصبية القبلية واثرها في الشعر الاموي ، ص ٧٢ ، ١٦٣ - ١٦٩ . واقرأ في هذا الصدد

اخبارا عمن رفعه الشعر وعمن وضعه في : العمدة : ١/٤٠ - ٥٢ .
 وراجع حول احتماء القبائل بشعرائها ، المصدر نفسه ، ص ٦٥ -
 ٦٧ . ويقول ابن رشيقي : « كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر
 اتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الاطعمة ، واجتمعت النساء يلعبن
 بالزاهر كما يصنعون في الاعراس ، ويتباشر الرجال والولدان لانه
 حماية لاعراضهم ، وذبح من اجسامهم وتخليد لماثرهم واشادة
 بذكراهم . وكانوا لا يهنتون الا بغلام يولد او شاعر ينبغ فيهم ، او
 فرس تنتج » . (ص ٦٥) . وراجع في هذا الصدد ايضا : البيان
 والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق السندوبي ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة
 ١٩٤٧ ، الطبعة الثالثة ، الجزء الثالث ، ص ٣٣٣ - ٣٤٣ .

(٥٤) البيان والتبيين : ١/٢٤٤ .

(٥٥) البيان والتبيين : ٣/٣٣٧ . وهذا نص الكلمة : « ان اصلح الامور
 لمن تكلف علم الطب ان لا يحسن منه شيئا او يكون من الحذاق
 المتطبيين ، فانه اذا احسن منه شيء ولم يبلغ فيه المبالغ ، هلك
 واهلك اهله . وكذلك العلم بصناعة الكلام » .

(٥٦) راجع كلمة الاصمعي السابقة .

(٥٧) ديوانه ، شرح حسن السندوبي ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ،
 (بدون تاريخ) ص ٧٦ .

(٥٨) الحيوان : ١/٣٣ ، ٤٥ .

(٥٩) المصدر نفسه ، ١/٧٤ .

(٦٠) الحيوان : ٤/٣٨٠ - ٣٨١ .

(٦١) البيان والتبيين : ٣/٢٦ .

(٦٢) الحيوان : ١/٧٤ - ٧٥ .

(٦٣) الحيوان : ١/٨٥ .

(٦٤) المصدر نفسه : ١/٨٠ .

(٦٥) المصدر نفسه : ٣/١٣١ - ١٣٢ .

(٦٦) الحيوان : ١/٨٠ .

(٦٧) المصدر نفسه : ٣/١٣٠ وفي رواية : النابتة .

(٦٨) المصدر نفسه : ٣/١٣٢ .

(٦٩) البيان : ١/١٠٨ .

(٧٠) المصدر نفسه : ٢/٧ .

- المصدر نفسه : ٣٦١/١ (٧١)
- المصدر نفسه : ٢٦/٣ (٧٢)
- المصدر نفسه : ١٥٢/١ (٧٣)
- المصدر نفسه : ١٥٢/١ (٧٤)
- البيان : ٣٦١/١ (٧٥)
- المصدر نفسه : ٣٤٧/٣ (٧٦)
- المصدر نفسه : ٢٦/٣ (٧٧)
- المصدر نفسه : ١٧٣/١ - ١٧٤ (٧٨)
- الحيوان : ١٣١/٣ - ١٣٢ (٧٩)
- البيان : ٩١/١ (٨٠)
- الحيوان : ٣١١/٣ (٨١)
- الحيوان : ٣١١/٣ (٨٢)
- البيان : ١٠٧/١ - ١٠٨ (٨٣)
- المصدر نفسه : ١١٨/١ (٨٤)
- الحيوان : ٨٩/١ - ٩٠ (٨٥)
- الحيوان : ٣٩/٣ . انظر أيضا : البيان : ١٥٩١/ (٨٦)
- الحيوان : ٢٨٢/١ (٨٧)

(٨٨) الحيوان : ٨/٦ . ويقول في مكان آخر : « ينبغي للمتكلم ان يعرف اقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين اقدار المستمعين وبين اقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعاني ، ويقس اقدار المعاني على اقدار المقامات ، واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات » . (البيان : ١٥٣/١) ويقول : « سخيظ الالفاظ مشاكل لسخيظ المعاني ، وقد يحتاج الى السخيظ في بعض المواضع » . (البيان : ١٥٨/١) . ويقول : « كلام الناس في طبقات ، كما ان الناس انفسهم في طبقات » . (البيان : ١٥٨/١) .

- الحيوان : ٣٦٦/٣ (٨٩)
- المصدر نفسه : ٣٦٨/٣ (٩٠)
- المصدر نفسه : ٣٦٩/٣ (٩١)
- البيان : ٢٥٣/١ (٩٢)
- البيان : ١٢/٢ - ١٣ (٩٣)

- (٩٤) المصدر نفسه : ٣٦١/١ و ٧/٢ .
- (٩٥) المصدر نفسه : ٢٤/٣ - ٢٥ .
- (٩٦) البيان : ٢٥/٣ .
- (٩٧) المصدر نفسه : ٢/١ و ٨ .
- (٩٨) كان بعض المولدين يفخر بأن شعره هو كذلك بديه . يقول بشار :
فهذا بديه ، لا كتجبير قائل اذا ما اراد القول زوره شهرا .
- (٩٩) الحيوان : ٣٢٧/٥ - ٣٢٨ .
- (١٠٠) الحيوان : ١٩٩/٥ ، والمتح جذب الماء من البئر بالدلو ، اما
الاستنباط فاستخراج الماء بحفر الارض والبحث في اعماقها .
- (١٠١) الحيوان : ٢٠١/٥ - ٢٠٢ .
- (١٠٢) الحيوان : ٢٠٢/٥ .
- (١٠٣) رسالة في النابتة ، لابي عثمان عمرو بن الجاحظ ضمن رسائل
الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الجزء الثاني ،
ص ٧ - ٢٣ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٦٥ . وقد كتب الجاحظ
هذه الرسالة الى قاضي بغداد في خلافة المتوكل ، وهو ابو الوليد
محمد بن احمد بن ابي دؤاد ، وكان المتوكل قد عزله ، سنة ٣٣٩ هـ .
سنة ٢٣٩ هـ .
- (١٠٤) المصدر نفسه ، المقدمة . ص ٥ .
- (١٠٥) المصدر نفسه ، المقدمة ، ص ٥ . انظر ايضا : البيان والتبيين :
٣٥٦/٣ .
- (١٠٦) المصدر نفسه ، ص ٧ .
- (١٠٧) رسالة في النابتة ، ص ٧ . يعطي الجاحظ صورة مخيفة عن كيفية
مقتل عثمان « من خبطهم اياه بالسلاح ، وبمعج بطنه بالحرا ،
وفرى اوداجه بالمشاقص (النصال الطويلة العريضة) ، وشدخ
هامته بالعمد (العصي) ، مع كفه عن البسط ، ونهيه عن الامتناع ،
مع تعريفه لهم قبل ذلك من كم وجه يجوز قتل من شهد الشهادة
وصلى القبلة واكل اللبحة ، ومع ضرب نسائه بحضرته واقحام
الرجال على حرمة ، مع اتقاء نائلة بنت الفرافصة (كان ابوها
نصرانيا : جمهرة ابن حزم ٤٥٦) عنه بيدها ، حتى اظنوا (الاطنان :
سرعة القطع) اصبعين من اصابعها ، وقد كشفت عن قناعها ،
ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك ردعا لهم وكاسرا من عزهم ، مع

وطئهم في اضلاله بعد موته ، والقائهم على المذبلة جسده مجردا بعد سحبه ... بعد السب والتعطيش ، والحصر الشديد ، والمنع من القوت ، مع احتجاجه عليهم وافحامه لهم ، ومع اجتماعهم على ان دم الفاسق حرام كدم المؤمن ، الا من ارتد بعد اسلام او زنى بعد احسان ، او قتل مؤمنا على عمد ، او رجل عدا على الناس بسيفه فكان في امتناعهم منه عطبه ، ومع اجتماعهم على الا يقتل من هذه الامة مول ولا يجهز منها على جريح . ثم مع ذلك كله دمروا (هجموا ودخلوا بدون اذن) عليه وعلى أزواجه وحرمة ، وهو جالس في محرابه ومصحفه يلوح في حجره ، كن يرى ان موحدا يقدم على قتل من كان في مثل صفته وحاله » (المصدر نفسه ، ص ٧ - ٨) .

(١٠٨) المصدر نفسه ، ص ٩ .

(١٠٩) المصدر نفسه ، ص ٩ . ويتمنى الجاحظ لو انهم لم يقتلوه ، فقد « كان لهم في اخذه وفي اقامته الناس والاقتصاص منه ، وفي بيع ما ظهر من رباعه وحدائقه وسائر امواله ، وفي حبسه بما بقي عليه ، وفي طمره حتى لا يحس بذكره ، ما يفنيهم عن قتله » (المصدر نفسه ، ص ٩) .

(١١٠) المصدر نفسه ، ص ٩ - ١٠ .

(١١١) اشارة الى الحديث : « الولد للفراش ، والعاهر للحجر » .

(١١٢) المصدر نفسه ، ص ١٠ - ١٢ .

(١١٣) المصدر نفسه ، ص ١٢ .

(١١٤) المصدر نفسه ، ص ١٢ .

(١١٥) رسالة النابتة ، ص ١٢ .

(١١٦) المصدر نفسه ، ص ١٤ . وهو هنا يشير الى النابتة المبتدعة في عصره الذين ينهون عن سب ولاية السوء والظالمين ويزعمون انه « فتنة وبدعة » مع ان اولئك الولاة الجائرين « كانوا يأخذون السمي بالعمي والولي بالولي والقريب بالقریب ، واخافوا الاولياء وآمنوا الاعداء ، وحكموا بالشفاعة والهوى ، واظهار القدرة والتهاون بالامة ، والقمع للرعية » . ثم يخلص الى القول ان النابتة ، في موقفها هذا ، « اكفر من يزيد وأبيه » (ص ١٤) .

(١١٧) المصدر نفسه ، ص ١٥ .

- (١١٨) المصدر نفسه ، ص ١٦ .
- (١١٩) المصدر نفسه ، ص ١٦ .
- (١٢٠) رسالة في النابتة ، ص ١٧ .
- (١٢١) المصدر نفسه ، ص ١٨ .
- (١٢٢) المصدر نفسه ، ص ١٨ .
- (١٢٣) المصدر نفسه ، ص ١٨ - ١٩ .
- (١٢٤) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .
- (١٢٥) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .
- (١٢٦) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .
- (١٢٧) الموالي هنا تعني غير العرب ، ايا كانوا : فرسا او خلاف ذلك .
وهي تقابل لفظة العجم .
- (١٢٨) ورد في المصدر نفسه ، ص ٢١ . انظر ايضا : فتح الباري :
١٢ : ٤١ .
- (١٢٩) المصدر نفسه ، ص ٢١ .
- (١٣٠) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .
- (١٣١) رسالة في النابتة ، ص ٢١ .
- (١٣٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .
- (١٣٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

هوامش الفصل الأول

(القسم الثاني)

- (١) راجع في هذا الصدد : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، عبد العزيز الدوري ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٥٧ - ٥٩ .
- (٢) راجع في هذا الصدد : تاريخ الاسلام ، الجزء الثاني ، ص ٣٠١-٣١٩ .
- (٣) راجع أخبار هذه الثورة المستمرة في : تاريخ الطبري ، الجزء السابع ، حوادث سنة : ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، الجزء الثامن ، حوادث سنة : ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، الجزء التاسع ، حوادث سنة : ٢١٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ . الكامل ، لابن الاثير ، حوادث سنة : ٢٥٦ .
- (٤) تاريخ الطبري : ٤١٠/٩ . انظر ايضا : تاريخ الاسلام : ٢٠٩/٣-٢١٣ .
- (٥) تاريخ الطبري : ٤١٠/٩ .
- (٦) المصدر نفسه : ٤١١/٩ .
- (٧) التوبة : ١١١ .
- (٨) المصدر السابق : ٤١٥/٩ .
- (٩) تاريخ الطبري : ٤١٤/٩ .
- (١٠) الطبري : ٤١١/٩ . راجع ايضا المصدر نفسه ، ص ٤٨٧ .
- (١١) المصدر نفسه : ٤١٢/٩ .
- (١٢) الطبري : ٤١٩/٩ . ويروى انه قال : « عرضت علي النبوة فابيتها ... لأن لها اعباء خفت الا اطيع حملها » . (المصدر نفسه ، ص ٤٩٩) .
- (١٣) المصدر نفسه : ٤١٩/٩ .
- (١٤) المصدر نفسه : ٤٢٥/٩ - ٤٢٦ ، ٤٣٧ ، ٤٢٠ . انظر ايضا ما رواه الطبري من تمرد قام به الزنج سنة ١٤٥ هـ . المصدر نفسه : ٦٠٩/٧ وما بعدها .
- (١٥) من النعوت التي يطلقها عليه الطبري : الخبيث ، الخائن ، الفاسق ، الفاجر ، صاحب الزنج ... الخ (انظر المصدر نفسه ، ص ٤٨٧ ، ٤٧٧ ، ٤٨١ ، ٦٣٤ ، ٦٤١) .

- (١٦) راجع عرضا وافيا لمختلف الآراء حول هذه البداية في : قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، محمد عبد الفتاح عليان ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة . ١٩٧٠ ، ص ٣٠-٣٦ .
- (١٧) راجع ايضا في المصدر نفسه مختلف الآراء حول هذه النسبة ، وحول التسمية ص ٣٠-٣١ .
- (١٨) اتماظ الحنفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفا ، المقريري (تقي الدين احمد بن علي ، توفي سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) ، القاهرة ١٩٤٨ . ص ١٣٠ .
- (١٩) قرامطة العراق ، ص ٣١ . راجع ايضا نماذج من الصفات القبيحة التي اطلقها المؤرخون على الحركة القرمطية في المصدر نفسه ، ص ٢٨ - ٢٩ .
- (٢٠) هو الاسم الذي يطلق على فلاحي العراق القدماء الذين يتكلمون الآرامية . وقد استمروا ، بعد اسلامهم ، متمسكين بتقاليدهم السابقة للاسلام .
- (٢١) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، شمس الدين المقدسي (توفي ٣٨٨ هـ / ٩٩٧ م) ، طبعة دي غويه ، ليدن ١٩٠٦ ، ص ١١٩ .
- (٢٢) الفرق بين الفرق ، ابو منصور عبد القاهر البغدادي ، القاهرة ١٩١٠ ، ص ١٤٢ .
- (٢٣) الاشارة الى محاسن التجارة ، القاهرة ١٣١٨ هـ . ص ٤٣ .
- (٢٤) قرامطة العراق ، ص ١٩ ، ٦٦ .
- (٢٥) نهاية الارب في فنون الادب ، النويري (احمد بن عبد الوهاب) ، تنللا عن قرامطة العراق ، ص ٢٧ .
- (٢٦) سورة القصص : ٥ .
- (٢٧) قرامطة العراق ، ص ٢٧ .
- (٢٨) المصدر نفسه ، ص ٢٠٠ .
- (٢٩) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ٧٤ - ٧٥ .
- (٣٠) المصدر نفسه ، ص ٢٠٣ . وقد أنشئ هذا النظام سنة ٢٧٦ هـ ، واستمر حتى سنة ٢٨٩ هـ .
- (٣١) النقابات الاسلامية ، ترجمة عبد العزيز الدوري : مجلة الرسالة ، اعداد ٣٥٥ - ٣٥٧ ، سنة ١٩٤٠ . راجع ايضا : قرامطة العراق ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ . مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، عبد العزيز الدوري ، ص ٧٣ - ٧٥ .

هوامش الفصل الثاني

(القسم الثاني)

- (١) هوروزبة بن دازويه . قتل سنة ١٤٢ هـ ، على الأرجح . راجع : من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ٤٦ وما بعدها .
- (٢) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، عبد الرحمن البدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٤٦ - ٤٧ . وانظر الهامش في الصفحتين . وانظر ص ٥١ - ٥٢ . ومن النصوص التي يستند اليها في موقف ابن المقفع من الدين بعامة ، باب بروزيه في « كليله ودمنة » ، حيث جاء قوله : « وجدت الاديان والملل كثيرة : من اقوام ورثوها عن آبائهم ، وآخرين خائفين مكرهين عليها ، وآخرين يبتغون بها الدنيا ومنزلتها ومعيشتها . وكلهم يزعمون انه على صواب وهدى ، وان من خالفه على ضلالة وخطأ . والاختلاف بينهم في أمر الخلق ومبتدا الامر ومنتهاه وما سوى ذلك شديد . وكل على كل مزر ، وله عدو معيب . فرأيت ان اواظب علماء اهل كل ملة ورؤساءهم ، او انظر فيما يصفون ويعرضون ، لعلني اعرف بذلك الحق من الباطل ، واختار الحق منه والزمه على ثقة ويقين ، غير مصدق بما لا اعرف ، ولا تابع ما لا اعقل . ففعلت ذلك وسألت ونظرت ، فلم اجد من اولئك أحدا الا يزيد في مدح دينه ، وذم دين من خالفه . فاستبان لي أنهم بالهوى يحتجون وبه يتكلمون ، لا بالعدل . ولم اجد عند أحد منهم في ذلك صفة تكون عدلا وصدقا يعرفها ذو العقل ويرضى بها » . (المصدر نفسه ، الصفحة ٨٥) . وانظر ايضا طبعة لويس شيخو لكليلا ودمنة ، ص ٣٣ - ٣٤ .
- (٣) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ٤٣ . وانظر هامش الصفحة ذاتها .
- (٤) المصدر نفسه ، ص ٥٢ .

- (٥) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .
- (٦) هو ابو الحسين احمد بن يحيى بن اسحاق الراوندي ، عاش في القرن الثالث الهجري ، ويختلف في تاريخ ولادته وموته . انظر : من تاريخ الالحاد في الاسلام : ابن الراوندي ، لباول كروس ، ص ٧٥ وما بعدها . وانظر بشكل خاص ص ١٧٦ - ١٨٨ .
- (٧) المصدر السابق ، ص ٧٦ - ٧٧ .
- (٨) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ٨٠ .
- (٩) اي في الحج .
- (١٠) الركن والمقام .
- (١١) جبلان صغيران بمكة ، بينهما يسير الحجاج .
- (١٢) جبلان بمكة ، لهما مكان بارز في السيرة النبوية .
- (١٣) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ١٠١ - ١٠٢ .
- (١٤) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ١٠٢ .
- (١٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .
- (١٦) انظر هامش الصفحة ١٠٥ .
- (١٧) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .
- (١٨) اليهود والنصارى .
- (١٩) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ، ويقصد بالمباهة والمكابرة ، الاجماع . راجع حاشية ص ١٠٦ . وهو هنا يطمئن في الاجماع والتواتر . راجع الصفحة ١١٣ ، ١١٩ - ١٢٠ من المصدر نفسه .
- (٢٠) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ١٠٧ .
- (٢١) المصدر نفسه ، ص ١٠٨ .
- (٢٢) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .
- (٢٣) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ١٠٨ .
- (٢٤) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ١٠٣ .
- (٢٥) المصدر نفسه ، ص ١١١ .
- (٢٦) المصدر نفسه ، ص ١٢٣ . وانظر عن مسألة التوقيف والاصطلاح في اللغة عرضا مفصلا لآراء العلماء العرب في : المزهر للسيوطي ، الفصل الاول .
- (٢٧) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ١٣٣ ، نقلا عن : المنتظم في التاريخ لابن الجوزي .

- (٢٨) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ١٤١ - ١٤٢ .
- (٢٩) انظر عن جابر وحياته وآثاره : مختار رسائل جابر بن حيان ، مطبعة الخانجي ، القاهرة ١٩٣٥ ، مناهج البحث عند مفكري الاسلام ، علي سامي النشار ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٣٥٧ - ٣٧٦ .
- جابر بن حيان ، زكي نجيب محمود ، القاهرة ١٩٦١ . ويرجح ان جابر بن حيان مات بعد سنة ١٦٠ هـ .
- (٣٠) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ١٩٢ . مناهج البحث عند مفكري الاسلام ، ص ٣٥٩ .
- (٣١) من تاريخ الالحاد، ومناهج البحث، ص ١٩٢ ، ص ٣٦٠ على التوالي .
- (٣٢) مناهج البحث عند مفكري الاسلام ، ص ٣٦٠ .
- (٣٣) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ١٤٩ . ومما يذكر ان فكرة تكوين انسان بالصناعة شغلت العلماء في عصر النهضة .
- (٣٤) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ١٩٣ .
- (٣٥) المصدر نفسه ، ص ١٩٥ .
- (٣٦) مختار الرسائل ، ص ٤٦٤ .
- (٣٧) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها . انظر ايضا : جابر بن حيان ، لزكي نجيب محمود ، ص ٥٧ . مناهج البحث عند مفكري الاسلام ، ص ٣٦٠ .
- (٣٨) مناهج البحث عند مفكري الاسلام ، ص ٣٦١ .
- (٣٩) المصدر نفسه ، ص ٣٦٢ . انظر ايضا : مختار رسائل جابر : كتاب التصريف ، ص ٤١٥ ، وكتاب القديم ، ص ٥٤٣ .
- (٤٠) مناهج البحث عند مفكري الاسلام ، ص ٣٦٣ .
- (٤١) المصدر نفسه ، ص ٣٦٤ .
- (٤٢) مختار الرسائل : كتاب التصريف ، ص ٤١٨ .
- (٤٣) جابر بن حيان ، ص ٧ .
- (٤٤) مختار الرسائل : كتاب التصريف ، ص ٤٢ ، ٤٢٤ . وانظر : مناهج البحث عند مفكري الاسلام ، ص ٣٦٩ .
- (٤٥) المصدر السابق ، ص ٣٦٨ .
- (٤٦) مناهج البحث عند مفكري الاسلام ، ص ٣٧٠ .
- (٤٧) مناهج البحث عند مفكري الاسلام ، ص ٣٧٠ .
- (٤٨) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها . راجع ايضا كتاب الخواص ،

- ص ٣٣٢ - ٣٣٤ (مختار الرسائل) . يمكن ان يضاف علماء آخرون، وبخاصة الحسن بن الهيثم الذي استخدم المنهج الاستقرائي . لكن ليس غرضنا الاستقصاء، بل التمثيل بنموذج بارز على ما نذهب اليه.
- (٤٩) هو ابو بكر محمد بن زكريا الرازي ، ولد سنة ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م ، وتوفي سنة ٣١١ هـ / ٩٢٣ م . راجع : رسائل فلسفية لأبي بكر محمد ابن زكريا الرازي ، باول كراوس ، القاهرة ١٩٣٩ : من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ١٩٨ موا بعدها .
- (٥٠) رسائل فلسفية : ١٧/١ - ١٨ .
- (٥١) رسائل فلسفية : ٢٩٥/١ .
- (٥٢) المصدر نفسه : ٢٩٥/١ .
- (٥٣) رسائل فلسفية : ٢٩٦/١ .
- (٥٤) المصدر نفسه : ٢٩٦/١ .
- (٥٥) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ٢٠٧ .
- (٥٦) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ٢٠٨ .
- (٥٧) راجع ذلك في : من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ٢٠٩ وما بعدها .
- (٥٨) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ٢١١ - ٢١٢ .
- (٥٩) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .
- (٦٠) المصدر نفسه ، ص ٢١٨ .
- (٦١) المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .
- (٦٢) من تاريخ الالحاد في الاسلام ، ص ٢١٩ . راجع ايضا : تفاصيل نقدية اخرى في المصدر نفسه ، ص ٢٢٠ - ٢٢٢ .
- (٦٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ .
- (٦٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .
- (٦٥) الملل والنحل ، بهامش الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم ، مطبعة المثنى ببغداد : ٥٣/١ .
- (٦٦) المصدر نفسه : ٥٣/١ .
- (٦٧) مقالات الاسلاميين : ١٥٤/٢ . واسم أبي الهذيل محمد ، كان مولى، ويوصف بأنه « شيخ المعتزلة » . توفي سنة ٢٣٥ هـ .
- (٦٨) المصدر السابق : ١٥٤/٢ - ١٥٥ . واسم الجبائي محمد بن عبد الوهاب ، كان مولى . توفي سنة ٣٠٣ هـ .
- (٦٩) الملل والنحل : ٦٥/١ .

- (٧٠) المصدر نفسه : ٧٤/١ ، ٨٣ .
- (٧١) فلسفة المعتزلة ، البير نصر نادر ، مطبعة الرابطة ، بغداد ١٩٥١ : ٣٦/٢ .
- (٧٢) المصدر نفسه ، ص ٣٦ - ٣٧ .
- (٧٣) المصدر نفسه ، ص ٣٨ - ٣٩ .
- (٧٤) هكذا يقول النسفي : بحر الكلام ، ضمن مجموعة الرسائل ، نقلًا عن : علم الكلام وبعض مشكلاته ، ابو الوفا الغنيمي التفتازاني ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٥٧ .
- (٧٥) مقالات الاسلاميين : ١٤٨/٢ .
- (٧٦) الملل والنحل : ٧٢/١ . والملل والنحل للبغدادي (دار المشرق ، بيروت ١٩٧٠) ، ص ٩١ . والنظام هو ابراهيم بن سيار . توفي سنة ٢٣١ هـ .
- (٧٧) مقالات الاسلاميين : ١٩٧/٢ .
- (٧٨) مقالات الاسلاميين : ١٣٧/٢ .
- (٧٩) راجع تفاصيل القول في خلق القرآن واختلافاته ، في المصدر السابق : ٢٣١/٢ - ٢٥١ .
- (٨٠) المغني في ابواب التوحيد والعدل ، تحقيق ابراهيم مدكور ، الجزء الثاني عشر : النظر والمعارف ، ص ٢٣٢ .
- (٨١) المصدر نفسه ، ص ٣٥٩ .
- (٨٢) توفي القاضي عبد الجبار سنة ٤١٥ هـ . وقد سوغنا الاشارة اليه في هذا البحث مع انه عاش في اواخر القرن الرابع واولل الخامس ، لا في القرن الثالث الذي حددنا نهايته نهاية لبحثنا ، لانه يشرح الفكر المعتزلي كما نضج في القرن الثالث ، ويعرض بخاصة آراء الجبائيين : ابي علي (٣٠٣ هـ) وابنه ابي هاشم (٣٢١ هـ) . وهكذا يمكن القول ان القاضي عبد الجبار شارح ومنظم ، وان ما يعرضه هو الفكر المعتزلي في القرن الثالث .

هوامش الفصل الثالث

(القسم الثاني)

- (١) راجع في هذا الصدد : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، هنري كوربان ، الترجمة العربية ، ص ٦٦ - ٧٥ ، ٢٨٢ - ٢٨٨ . راجع أيضا : الصلة بين التصوف والتشيع ، كامل مصطفى الشبيبي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ ، نظرية الامامة لدى الشيعة الاثني عشرية ، احمد محمود صبحي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ . وانظر التصوف ، الثورة الروحية في الاسلام ، لابي العلا عفيفي ، القاهرة ١٩٦٣ .
- (٢) تاريخ الفلسفة الاسلامية ، لكوربان ، ص ٦٨ .
- (٣) انظر هامش الصفحة ٨٥ من : تاريخ الفلسفة الاسلامية لهنري كوربان .
- (٤) الرسالة القشيرية ، تحقيق عبد الحليم محمود بن الشريف ، جزآن ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٦ : ٦١٥/٢ .
- (٥) الرسالة القشيرية : ٦٠١ / ٢ - ٦٠٢ .
- (٦) اللمع ، لابي نصر السراج الطوسي ، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، القاهرة ١٩٦٠ ، من ٤٥٣ .
- (٧) اللمع ، الصفحة ٤٥٣ .
- (٨) شطحات الصوفية ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، الجزء الاول : ابو يزيد البسطامي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٨٦ . وقد توفي البسطامي سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م ، وقيل سنة ٢٣٤ هـ .
- (٩) المصدر نفسه ، ص ١٥٦ . وقد توفي الجنيد سنة ٢٩٧ هـ . / ٩٠٩ م .
- (١٠) اللمع ، ص ٤٦١ . ويقول ايضا هذا المعنى : « تراني عيون الخلق اني مثلهم ، ولو راؤني كيف صفتي في الغيب لماثوا دهشا » .
- (شطحات الصوفية ، ص ٧٨) .
- (١١) اللمع ، ص ٧٢ .
- (١٢) شطحات الصوفية ، ص ٢١ .

- (١٣) اللمع ، ص ٤٧٤ .
- (١٤) شطحات الصوفية ، ص ٢١ .
- (١٥) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
- (١٦) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها ، وانظر : ص ١١١ .
- (١٧) شطحات الصوفية ، ص ١٢٤ . ويقول بهذا المعنى : « كنت أطوف حول البيت أطلبه ، فلما وصلت اليه رايت البيت يطوف حولي » .
- (المصدر نفسه ، ص ٧٧) . راجع ايضا : ص ١٢٥ .
- (١٨) شطحات الصوفية ، ص ١١٢ .
- (١٩) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .
- (٢٠) شطحات الصوفية ، ص ٧٠ .
- (٢١) المصدر نفسه ، ص ٧٥ .
- (٢٢) المصدر نفسه ، ص ٨٦ .
- (٢٣) المصدر نفسه ، ص ١١٠ .
- (٢٤) المصدر نفسه ، ص ١١٧ .
- (٢٥) المصدر نفسه ، ص ١١١ .
- (٢٦) الرسالة القشيرية : ٦٠٣/٢ .
- (٢٧) تذكرة الاولياء : ١٦٠/١ ، نقلا عن : التصوف لأبي العلا عفيفي ، ص ١٨٣ .
- (٢٨) التصوف لعفيفي ، ص ١٨٣ .
- (٢٩) شطحات الصوفية ، ص ٢١ .
- (٣٠) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .
- (٣١) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .
- (٣٢) شطحات الصوفية ، ص ١١٤ .
- (٣٣) يقول : « اشرفت على ميدان الليسية ، فما زلت اطير فيه عشر سنين ، حتى صرت من ليس في ليس بليس ، ثم اشرفت على التضبييع ، وهو ميدان التوحيد ، فلم ازل اطير بليس في التضبييع ، حتى ضعت في الضياع ضياعا ، وضعت فضعت عن التضبييع بليس في ليس في ضياعة التضبييع . ثم اشرفت على التوحيد في غيبوبة الخلق عن العارف ، وغيبوبة العارف عن الخلق » (اللمع ، ص ٤٦٨) . وانظر شرح الجنيد وصاحب اللمع لهذا القول ، في الصفحة نفسها ومابعدھا .
- (٣٤) شطحات الصوفية ، ص ٧٩ .

- (٣٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .
- (٣٦) المصدر نفسه ، ص ٨٠ ، ١١٣ . والكلمتان لأبي يزيد البسطامي .
- (٣٧) راجع حول معنى التجربة الصوفية ، استكمالا واحاطة :
1. P. Nwyia, Exégèse coranique et Langage mystique , Dar El - Machreq, Beyrouth, 1970 .
 2. L. Massignon, La passion d'Al-Hosayn - ibn -Mansour Al-Hallaj, martyr mystique de E'Islam, 2 vol. Geuthner, paris 1922 .
- Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane, 2 e éd. Urin, paris, 1954 .
3. H. Corbin, L'imagination créatrice dans le soufisme d'ibn arabi, Ed. Flammarion, Paris 1958 .

هوامش الفصل الرابع

(القسم الثاني)

- (١) انظر نماذج لشعر الفتوح في : شعر الفتوح الاسلامية في صدر الاسلام، النعمان عبد المتعال القاضي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ .
- (٢) يصفه الاصمعي بانه «من الفحول» وانه «كثير الشعر» ، ويقول عنه صاحب الاغانى : « شاعر فصيح كوفي من شعراء الدولة الاموية » . (انظر : الاغانى (دار الكتب) : ٣٣/٦ - ٣٥ ، ٣٨ - ٤٢ ، ٥٦ ، والموشح : ١٩١) .
- (٣) انظر نماذج من هذا الشعر في : مروج الذهب للمسعودي : الجزء الثاني ، ووقعة صفين لنصر بن مزاحم ، وشرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ، والطبري : أحداث يوم الجمل . وطبقات ابن سعد : ١٥٣/٦ ، ١٥٤ ، والاحبار الطوال للدينوري : ٢٣٧ . ولا نستثنى من ذلك حتى شعر اعشى همدان والكميت ، وشعر ابي العتاهية .
- (٤) لم يتخلص الشعراء العرب من القبائلية حتى في كثير من هذه الثورات والفتن. انظر : وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم : ص ٢٣١ وما بعدها. وانظر : حياة النسر في الكوفة ، ليوسف خليف ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤٥١ - ٤٧٠ .
- (٥) حياة الشعر في الكوفة ، ص ٤٧١ - ٤٩٨ .
- (٦) انظر ترجمته في الاغانى (دار الكتب) : ٤٠٤/٣ - ٤٢٦ . وانظر : البيان والنبين : ٧٤/٣ - ٧٥ . مات في حدود ١٠٠ هـ / ٧١٨ م .
- (٧) البيان والتبيين : ٧٤/٣ .
- (٨) الاغانى : ٤١٤/٢ .

- (٩) عاش بين أوائل الثلث الأخير من القرن الأول ونهاية الثلث الأول من القرن الثاني الهجري . وقد مات في أواخر عهد المنصور . كان أبوه « سنديا اعجميا لا يفصح » . اقرأ أخباره في : الاغانى (ط . ساسي) : ٨٧/١٦ وما بعدها . والشعر والشعراء : ٦٥٢/٢ . الخزائن : ١٦٧/٤ .
- (١٠) الاغانى (ساسي) : ٧٩/١٦ . وقد وهبه ابن سليم غلاما فصيحا سماه عطاء وتكنى به ، وأخذ هذا يروي له شعره .
- (١١) الشعر والشعراء : ٣٦٨ ، الاغانى (ساسي) : ١٠٩/١٥ . الموشح : ١٩١ - ١٩٢ . الاعلاق النفيسة : ٢١٦ . خزائن الادب : ٦٩/١ .
- (١٢) الموشح : ١٩٢ .
- (١٣) المصدر نفسه : ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ . وخالفه في ذلك سيويه . انظر : العربية ، لفك : ٥١ - ٥٢ .
- (١٤) المصدر نفسه : ١٩٢ ، ٢٠٩ .
- (١٥) المصدر نفسه ، ١٩١ - ١٩٢ .
- (١٦) المصدر نفسه : ٩١٧ .
- (١٧) اذا كانت هذه هي الحال مع الكميته في القرن الأول الهجري ، فما هي الحال يا ترى ، مع الشعراء الذين يعيشون في أواخر القرن الرابع عشر ؟
- (١٨) هو مولى ، (شاعر مولد) ولد ونشأ في الكوفة . اتصل بالرسيد والبرامكة ، بعد ان بدأ حياته مع شعراء المجون والزندقة في الكوفة . واتصل كذلك بالمأمون والفضل بن سهل . ومات وهو وال على بريد جرجان . وانظر : تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ٩٦/١٣ .
- والاغانى (ساسي) : ٨٨/٢ . ومعاهد التنصيص للعباسي : ١٠/٢ .
- والعمدة لابن رشيقي : ١٢٧/١ . والشعر والشعراء : ٥٢٨ . ومعجم الشعراء للمرزباني : ٣٧٢ . وانظر ديوانه (ط . دار المعارف بمصر) .
- يقول عنه صاحب الاغانى : « وهو ، فيما زعموا ، أول من قال الشعر المعروف بالبديع وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف » (معاهد التنصيص : ١٠/٢) . ويقول ابن رشيقي : « وهو أول من تكلف البديع من المولدين ، وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ولم يكن في الاشعار المحدثه قبل صريع (صريع الفواني ، لقبه) الا النبذ اليسيرة » . (العمدة : ٨٥/١) . ويقول ابن مهيويه : « أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، جاء بهذا الفن الذي سماه الناس البديع » . (الموازنة للأمدي ، ص ٧ . معاهد التنصيص : ١٠/٢ .

ويقول المرزباني : « وهو اول من طلب البديع واكثر منه وتبعه الشعراء فيه » (معجم الشعراء : ٣٧٢) . ويخالف بعضهم هذه الآراء ، فيقول ابن المعتز ان البديع موجود في القرآن والحديث وكلام الصحابة والاعراب واشعار المتقدمين فلم يسبق مسلم وامثاله اليه « ولكنه كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فاعرب عنه ودل عليه » (كتاب البديع ، ص ١) ، ويقول الآمدي : انه « غير مبتدع لهذا المذهب ولا هو اول فيه ، ولكنه رأى هذه الانواع التي وقع عليها اسم البديع ، وهي الاستعارة والطباق والتجنيس ، منشورة متفرقة في اشعار المتقدمين فقصدها واكثر في شعره منها » (الموازنة ، ص ٦) . وقد ولد مسلم بن الوليد بين سنتي ١٣٠ - ١٤٠ هـ وتوفي سنة ٢٠٨ هـ .

(١٩) الشعر والشعراء : ٧١٢/٢ .

(٢٠) مولى ، اصله من طخارستان ، وهو من سبي المهلب بن ابي صفرة . مات ضربا بالسياط ، بأمر من الخليفة المهدي ، سنة ١٦٧ هـ . او ١٦٨ هـ / ٧٨٥ م . انظر : وفيات الاعيان : ٢٧١/١ وما بعدها . وانظر : طبقات ابن المعتز ، ص ٢١ - ٣١ .

(٢١) الموشح ، ص ٣٩٠

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٣٩٢ .

(٢٣) يقول مثلاً :

يا ابن نهيا ، رأسي علي ثقيل	واحتمال الرأسين امر جليل
فادع غيري الى عبادة ربين	فاني بواحد مشغول
ويقول :	
الأرض مظلمة والنار مشرقة	والنار معبودة مذ كانت النار
ويقول :	
ابليس أفضل من ابيكم آدم	فتنبهوا يا معشر الفجار
النار عنصره وآدم طينه	والطين لا يسمو سمو النار

(٢٤) يقول مثلاً :

وقد ملأت البلاد ما بين فغفور	الى القيروان فاليمن
شعرا تصلي له العوانق والثيب ،	صلاة الفؤاة للوثن .

(٢٥) زهر الآداب (القاهرة ١٩٣٥) : ١١٠/١ .

(٢٦) هو اسماعيل بن القاسم ، وكان مولى ، من الشعراء الذين رموا

بالزندقة . انظر : الاغاني (دار الكتب) : ٣/٤ وما بعدها . طبقات
ابن المعتز ، ص ٢٢٧ - ٢٣٤ . وفيات الاعيان : ٢١٩/١ وما بعدها .
توفي سنة . ٢١ هـ . وقيل ٢١٣ هـ .

(٢٧) الاغاني (دار الكتب) : ٣٩/٤ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ٧٠ .

(٢٩) الاغاني (دار الكتب) : ٧٠/٤ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٩٤ - ٩٥ .

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ١٣ .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ٢ .

(٣٤) الشعر والشعراء ، ص ٤٩٧ .

(٣٥) الموشح للمرزباني ، ص ٢٦٢ .

(٣٦) الاغاني (دار الكتب) : ١٣/٤ .

(٣٧) الشعر والشعراء : ٦٧٦/٢ .

(٣٨) اسمه الحسن بن هانيء . ولد بالاهواز سنة ١٣٩ هـ ، ومات ببغداد

سنة ١٩٥ هـ . وقيل ١٩٩ هـ . انظر : طبقات ابن المعتز ، ص ١٩٣

وما بعدها . والاغاني (دار الثقافة) : ٣٠/٣٠ . والشعر والشعراء :

٦٨٠/٢ وما بعدها . وله ديوان طبع عدة مرات . ونعتمد هنا طبعة

دار صادر بيروت .

(٣٩) نقرا في شعره ، مثلا :

كانت تحل بها هند واسماء
وان تروح عليها الابل والشاء

للك ابكي ، ولا ابكي لمنزلة
حاشا لدرة ان تبني الخيام لها

ولا عيشا ، فعيشهم جديب
واقفا ، ما ضر لو كان جلس ؟

ولا تاخذ عن الاعراب لهوا
قل لمن يبكي على رسم درس

وعجت اسأل عن خمارة البلد

عاج الشقي على رسم يسائله

سر علي اللذة مقصور

احسن من سير على ناقة

(٤٠) نقرا ، مثلا :

في حجره صانها ورباها

كان لها الدهر من اب خلفا

★ ★ ★

عمرت يكاتمك الزمان حديثها
 حتى اذا بلغ السامة باحا
 * * *
 فهي لليوم الذي بزلت
 وهي ترب الدهر في القدم
 * * *
 تخيرت والنجوم وقف
 لم يتمكن بها المدان
 * * *
 ما زال يجلوها تقادما
 حتى غدت روحا بلا جسم
 * * *
 طوى عليها الدهر ايامه
 جاءت كروح لم يقم جوهر
 لطفها ، به ، او يحصه نور .
 * * *
 واذا ترام تفوت لامسها
 مثل الهباء يفوت باللمس
 * * *
 لا تشنها بالتني كرهت
 فهي تآبى دعوة النسب .
 * * *
 قطر بل مربعي ولي بقري
 الكرخ مصيف وامي العنب
 ترضعني درها وتلحفني
 بظلمها ، والهجير يلتهب
 * * *
 انا ابن الخمر ، مالي عن غذاها
 الى وقت المنية من فطام
 اجل عن اللثيم الكاس حتى
 كان الخمر تعصر من عظامي
 * * *
 خليلي بالله لا تحفرا
 لي القبر الا بقطر بل
 خلال المعاصر بين الكروم
 ولا تدنياني من السنبيل
 لعلني اسمع في حفرتي
 * * *
 تجمع عيني وعينها لغة
 اذا اقتضاها طريقي لها عدة
 مخالفا لفظها لمعناها
 عرفت مردودها بفجواها
 ذي لغة تسجد اللغات لها
 الفزها عاشق وعماها

(٤١) نقرأ ، مثلا :

ما زلت استل روح الدن في لطف
 واستقي دمه من جوف مجروح
 حتى انثيت ولي روحان في جسد
 والدن منطرح جسما بلا روح .
 * * *
 لا تلمني على التي فتنتني
 وارثني القبيح غير قبيح
 قهوة تترك الصحيح سقيما
 وتعير السقيم ثوب الصحيح

هاتاً بمثل الراح معرفة بلطافة التأليف والود .
لا ينزل الليل حيث حلت فليل شرابها نهار

★ ★ ★

تترك المرء اذا ما ذاقها ، يرخي الازارا
ويرى الجمعة كالسبت وكالليل النهار .

... كرخية تترك الطويل من العيش قصيرا وتبسط الاملا
تلعب لعب الشراب في قدح القوم اذا ما حباها اتصلا .

قال ابغني المصباح ، قلت له: ائد حبي وحسبك ضوءها مصباحا
فسكبت منها في الزجاجة شربة كانت له حتى الصباح صباحا

فعلت في البيت اذ مزجت مثل فعل الصبح في الظلم
فاهتدى ساري الظلام بها كاهتداء السفر بالعلم .

سفراء تفترس النفوس فلا ترى منها بهن سوى المستنات جراحا
فارسلت من قم الابريق صافية كأنما اخذها بالعين اغفاء .
(٢٢) نقرا ، مثلا :

تلهب الكف من تلهبها وتحسر العين ان تقصاها
كدنا ، على علمنا ، للشك نسأله: اراحنا نارنا ، ام نارنا الراح ؟

★ ★ ★

لها من المزج في كاساتها حدق ترنو الى شربها من بعد اغضاء
عثقت حتى لو اتصلت بلسان ناطق وفهم
لا حثبت في القوم مائلة ثم قصت قصة الامم .

في كؤوس كأنهن نجوم جاريات بروجها ايدينا
طالعات مع السقاة علينا فاذا ما غربن يغربن فينا .

★ ★ ★

صفراء تضحك عند المزج من شغب
كان كاساتنا والليل معتكر
كان اعينها انصاف اجراس
سرج توقد في محراب شماس .

تنزو فواقعها منها، اذا مزجت
نزو الجنادب من مرج وافياء
★ ★ ★

اذا الطاسات كرتها علينا
تسير نجومه عجلا ورشا
اذا لم يجرهن القطب متنا
(٤٣) يقول ، مثلا :
تكون بيننا فلك يدور
مشرقة ، وتارات تفور
وفي دوراتهن لنا نشور

وان قالوا : حرام . قل : حرام
ولكن اللذاذة في الحرام
يا احمد المرتجى في كل نائبة
قم سيدي نعص جبار السماوات
★ ★ ★
حج مثلي زيارة الخمار

نلت لذيل الحرام مثلي
كم لذة قلت : قد وعها
وناله الناس بالاماني
في وسط اللوح حافظان .
★ ★ ★
انفت نفسي العزيرة ان تقنع
الا بكل شيء حرام
★ ★ ★

ايها العاتب في الخمر متى صرت سفيها
لو اطعنا ذا عتاب لاطعنا الله فيها
فاصطبج كاس عقار يا نديمي واسقنيها
انني عند ملام الناس فيها اشتبهها

ان كنتما لا تشربان معي
ما لي وللناس كم يلحونني سفيها
خوف العقاب ، شربتها وحدي
ديني لنفسي ، ودين الناس للناس
★ ★ ★

اصبني منك يا املي بلذب
تنيه على الذنوب به ذنوبي

(٤٤) هو حبيب بن اوس . توفي سنة ٢٣١ هـ وقيل ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٣٢ هـ .
راجع ترجمته واخباره في : طبقات ابن المعتز ، ص ٢٨٧ .
الاعاني : ٣٠٣/١٦ . تاريخ بغداد : ٢٤٨/٨ . وفيات الاعيان : ١١/٢ .

- وله ديوان طبع عدة مرات ، وتعتمد هنا ديوانه بشرح الخطيب
التبريزي ، وطبعة دار المعارف بالقاهرة .
- (٤٥) يقول مثلاً :
والشعر فرج ليست خصيسته طول الليالي الا لمفترعه .
(ديوانه ، بشرح التبريزي : ٢/٣٤٤ .)
اما المعاني فهي ايكار اذا نصت ، ولكن القوافي عون
(الديوان : ٣/٣٣٢) .
- (٤٦) يقول مثلاً ، واصفا شعره :
صعب القوافي الا لفارسه ابي نسج العروض ممتنعه
ساحر نظم سحر البياض من الالوان ، سايبه ، خبه ، خدمه .
(الديوان : ٢/٣٤٤) .
- (٤٧) يصف احدي قصائده ، قائلاً :
انسية وحشية كثرت بها حركات اهل الارض وهي سكون
(الديوان : ٣/٣٣٢) .
- (٤٨) يقول ، مثلاً ، واصفا احدي قصائده :
غريبة تؤنس الاداب وحشتها فما تحل على قلب فترتحل
(الديوان : ٣/٢٠) .
- (٤٩) يقول ، مثلاً :
احداكها صنع الضمير ، يمدد جفر اذا نضب الكلام ، معين
ويسميء بالاحسان ظنا ، لا كمن هو بابنه وبشعره مفتون
(الديوان : ٣/٣٣٢) .
- (٥٠) مختار رسائل جابر بن حيان ، تحقيق باول كراوس ، مكتبة الخانجي ،
القاهرة ١٣٥٤ هـ ، ص ١٤١ .
- (٥١) كتاب التمهيد ، تحقيق الاب رثرد يوسف مكارثي اليسوعي ، المكتبة
الشرقية بيروت ١٩٥٧ ، ص ٢٢٥ - ٢٣٧ .

هوامثن الفصل الاول

(القسم الثالث)

- (١) « القديم هو الذي لا اول لوجوده ولا ابتداء ، ويجب ان يستغني عن موجود يوجده ، ويجب الوجود له من غير علة » (المغني في ابواب التوحيد والعدل ، للقاضي ابي الحسن عبد الجبار ، القاهرة ١٩٦٥ ، الجزء الرابع : رؤية الباري ، ص ٢٥٠) . وفي « كتاب التمهيد » للباقلاني (المكتبة الشرقية ، بيروت ١٩٥٧ ورد مايلي : « فالقديم هو المتقدم في الوجود على غيره . وقد يكون لم يزل وقد يكون مستفتح الوجود . دليل ذلك قولهم « بناء قديم » - يعنون انه الوجود قبل الحادث بعده . وقد يكون المتقدم في وجوده على ما حدث بعده متقدما الى غاية ، وهو المحدث الموقت الوجود . وقد يكون متقدما الى غير غاية وهو القديم جل ذكره وصفاته ذاته . (ص ١٦ - ١٧) . وفي « كشف اصطلاحات الفنون » للتهانوي ، جاء ما خلاصته :
- ١ - القدم عدم المسبوقية بالغير سبقا ذاتيا ، ويسمى قدما ذاتيا ، ومعناه عدم احتياج الشيء في وجوده الى غيره في حال ما ، اصلا .
- ٢ - قد يختص الغير بالعدم ، فيراد حينذاك بالقدم ، عدم المسبوقية بالعدم سبقا زمانيا ، ويسمى قدما زمانيا ، وحاصله وجود الشيء على وجه لا يكون عدمه سابقا عليه بالزمان ، فالقديم بالزمان هو الذي لا اول لزمان وجوده . ويراد بالحديث المسبوقية بالعدم سبقا زمانيا ويسمى حدوثا زمانيا وحاصله وجود الشيء بعد عدمه في زمان مضى . فالحدث الزماني ما يكون عدمه سابقا عليه بالزمان ، وعلى هذا فالزمان ليس بحدث ، اذ لا يتصور حدوثه الا اذا سبقه زمان قارنه عدمه وذلك محال لاستحالة ان يكون وجود الشيء وعدمه مقارنين .

٣ - اذا نظر الى القدم من وجه اضافي ، فيراد به كون ما مضى من زمان وجود الشيء اكثر مما مضى من زمان وجود شيء آخر . فيقال للاول بالنسبة الى الثاني قديم ، وللثاني بالنسبة الى الاول حادث . فالحدوث ، من هذه الناحية ، هو كون ما مضى من زمان وجود الشيء اقل مما مضى من زمان وجود شيء آخر .

٤ - القدم يوصف به ذات الله اتفاقا من الحكماء واهل الملة . واما غير ذات الله ، فلا يوصف بالقدم ، وجوزه الحكماء ، اذ قالوا بقدم العالم .

٥ - التقدم ان اعتبر بين اجزاء الماضي فكل ما كان ابعد من الآن الحاضر فهو المتقدم ، وان اعتبر فيما بعد اجزاء المستقبل فكل ما هو اقرب الى الآن الحاضر فهو المتقدم ، وان اعتبر فيما بين الماضي والمستقبل ، فقد قيل الماضي مقدم على المستقبل وهذا هو الصحيح عند الجمهور ، وهذا بالنظر الى ذاتهما .

ومنهم من عكس الامر نظرا الى عارضهما ، فان كل زمان يكون اولا مستقبلا ثم يصير حالا ، ثم يصير ماضيا ، فكونه مستقبلا يعرض له قبل كونه ماضيا .

٦ - جميع انواع التقدم مشترك في معنى واحد وهو ان المتقدم امرا زائدا ليس للمتأخر . ففي الذاتي كونه محتاجا اليه المتأخر ، وفي الزماني كونه مضى له زمان اكثر لم يمض للمتأخر ، وفي الشرف زيادة كمال ، وفي الرتبي وصول اليه من المبدأ اولا .

٧ - التقدم يطلق على خمسة اشياء ، بالاشتراك اللفظي ، على ما ذهب اليه المحققون ، وبالاشتراك المعنوي على ما ذهب اليه جمع غفير .

١ - التقدم بالزمان (موسى قبل عيسى) .

ب - التقدم بالشرف ، وهو ان يكون للسابق زيادة كمال عن المسبوق (تقدم ابي بكر على عمر) .

ج - التقدم بالرتبة ، بان يكون المتقدم اقرب الى مبدأ معين ، وسماه البعض التقدم بالمكان . والترتب اما عقلي (الاجناس على سبيل التصاعد ، والانواع على سبيل التنازل) واما وضعي وهو ان يمكن وقوع المتقدم في مرتبة المتأخر ، كما في صفوف المسجد .

د - التقدم بالطبع ، وهو ان يكون المتقدم محتاجا اليه المتأخر . التقدم بالذات ، كتقدم الواحد على الاثنين (التهاني : ١٢١١/٥ - ١٢١٥) .

(٢) مثلاً ، هذه الآيات : « كالمرجون القديم » (يس : ٣٩) والقديم هنا بمعنى اليابس ، « تالله انك لفي ضلالك القديم » (يوسف : ٩٥) ، « واذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم » (الاحقاق : ١١) ، « افرايتم ما كنتم تعبدون ، انتم وآباؤكم الاقدمون » (الشعراء : ٧٥ ، ٧٦) .

(٣) « هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهاً فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولو الالباب . » (سورة آل عمران : آية ٧) .

(٤) جامع البيان ، للطبري : ٣٣/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٣٣/١ .

(٦) المصدر نفسه ، وتقول آية : « يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو ، ثقلت في السماوات والارض ، لا تأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك صفي عنها ، قل انما علمها عند الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون » . (سورة الاعراف آية ١٨٧) . « وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه . . . » (النحل : ٦٤) ، « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » . . . (النحل : ٤٤) .

(٧) المصدر نفسه ، ٣٣/١ - ٣٤ .

(٨) المصدر نفسه : ٣٣/١ .

(٩) المصدر نفسه : ٣٤/١ .

(١٠) المصدر نفسه : ٣٥/١ .

(١١) المصدر نفسه ، ٣٤/١ . ويروى هذا الحديث بأشكال اخرى : « من قال في القرآن برأيه ، او بما لا يعلم ، فليتبوا مقعده من النار » . ، « من قال في القرآن بغير علم ، فليتبوا مقعده من النار » .

(١٢) المصدر نفسه ، ٣٥/١ .

(١٣) المصدر نفسه ، ٣٥/١ .

(١٤) « قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغي بغير الحق ، وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون » . (سورة الاعراف ، آية ٣٣) .

(١٥) جامع البيان للطبري : ٣٥/١ .

(٦) من هذه الآيات ، منلا : « كتاب انزلناه اليك مبارك ليتدبروا آياته وليتذكر اولوا الالباب » (سورة ص : ٢٩) . « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلمهم يتقون » . (سورة المزمر : ٢٨) . راجع ايضا تفسير الطبري : ٣٦/١ - ٣٧ .

(١٧) جامع البيان للطبري : ٤١/١ .

(١٨) المصدر نفسه : ٤١/١ .

(١٩) المصدر نفسه : ٤١/١ .

(٢٠) المصدر نفسه : ٧٤/١ .

(٢١) المصدر نفسه : ٧٤/١ - ٧٥ .

(٢٢) راجع هذه المعاني في : كتشاف اصطلاحات الفنون ، ٨٥/١ .

(٢٣) « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض اولئك هم الخاسرون » . (البقرة : ٢٧) .

(٢٤) جامع البيان للطبري : ١٨٣/١ .

(٢٥) راجع في هذا الصدد : تاريخ المذاهب الاسلامية ، محمد ابو زهرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة (بدون تاريخ) ، الجزء الثاني ، ص ٩ - ١١ .

(٢٦) كتاب الموافقات في اصول الشريعة لابي اسحاق الشاطبي ، الطبعة الاولى : ٤١٢/٣ - ٤٢٠ ، ٣٦٦ - ٣٦٨ ، ١٢/٤ (المطبعة الرحمانية بمصر) . وانظر : كتاب الشرح والابانة على اصول السنة والديانة ، لان بطة العكبري (توفي سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) ، نشر هنري لاوست ، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ، دمشق ١٩٥٨ .

(٢٧) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٢٩ . وتعرف السنة بانها « ما صدر عن الرسول ، غير القرآن ، من قول وفعل واقرار » (المصدر نفسه ، ص ٣٢) . انظر ايضا : المصدر السابق ، ٥٨/٤ .

(٢٨) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٣٢ .

(٢٩) « من سن سنة حسنة فله اجرها ، واجر من عمل بها الى يوم القيامة . ومن سن سنة سيئة فله وزرها ، ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » . حديث (كتشاف اصطلاحات الفنون ، للتهانوي : ٧٠٣/٣) .

(٣٠) ارتساد الفحول ، للشوكاني (مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة) ص ٣٣ . وهناك مصادر كثيرة اكتفي بان اذكر منها : السنة ومكانتها

في التشريع الاسلامي ، مصطفى السباعي ، دار العروبة ، القاهرة ، ١٩٦١ . السنة قبل التدوين ، محمد عجاج الخطيب ، القاهرة ، ١٩٦٣ . الاصول العامة للفقهاء المقارن ، لمحمد تقي الحكيم ، (دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٦٣) ص ١٢١ . كشف اصطلاحات الفنون ، للتهانوي ، (مطبعة خياط ، بيروت) الجزء الثالث ، مادة سنة ، ص ٧٠٣ - ٧٠٧ . علوم الحديث ومصطلحه ، لصبحي الصالح (دار العلم للملايين ، الطبعة السادسة ، بيروت ١٩٧١) ص ٣ - ١٠ ، سنن ابن ماجه : ١٦/١ - ١٨ (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ١٣٧٣ هـ) . الاغانى : ١١٤/١ - ١١٩ .

(٣١) الاصول العامة للفقهاء المقارن ، ص ١٢٤ .

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٤ .

(٢٣) من هذه الاحاديث ، تمثيلا لا حصرا : « عليكم بسنتي » (ابن ماجه : ١٦/١) ، « من ترك سنتي لم ينل شفاعتي » (التهانوي : ٧٠٧/٣) . « تركت فيكم امرين لن تضلوا بعدهما ابدا : كتاب الله وسنة نبيه » . وحدث عبدالله بن عمرو ، قال : « كنت اكتب كل شيء اسمعه من رسول الله (ص) اريد حفظه ، فنهتني قريش ، فقالوا : انك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله (ص) ، وهو بشر يتكلم في الغضب والرضا . فامسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك للرسول ، فقال : اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما خرج مني الا حق » . (الاصول العامة للفقهاء المقارن ، ص ١٢٤ - ١٢٥ ، نقلا عن : المدخل للفقهاء الاسلامي ، لمحمد سلام مدكور ، ص ١٨٤ ، نقلا عن ابن عبد البر في جامع وابي داود في سننه ، والحاكم وغيرهم) . « لا الفين احذكم على اريكتيه ياتي به الامر من امري مما امرت به ، او نهيت عنه فيقول : لا ندري ، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » . (المصدر السابق نفسه ، نقلا عن مصطفى الزرقا في كتابه : في الحديث النبوي ، ص ١٦ ، الطبعة الثانية . وقد وردت عدة احاديث بمضمونه في الموافقات : ١٥/٤) . « النظر الى الرجل من اهل السنة يدعو الى السنة وينهي عن البدعة ، عبادة . » (ابن عباس : نقد العلم والعلماء ، لابن الجوزي ، ص ٨) . « اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكف عما كفوا عنه ، واسلك سبيل سلفك الصالح ، فانه يسعك ما وسعهم » . (الاوزاعي ، المصدر السابق ، ص ٨) . « لا يقبل قول الا بعمل ، ولا يستقيم

قول وعمل الانية، ولا يستقيم قول وعمل ونية الا بموافقة السنة » (سفيان الثوري ، المصدر السابق ، ص ٩) .

(٣٤) مثل : « اطيعوا الله واطيعوا الرسول » (النساء : ٥٨) . « وما اتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » (الحشر : ٧) . « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى » . (النجم : ٣ - ٤) . « من يطع الرسول فقد اطاع الله » . (النساء : ٨٠) .

(٣٥) « اجمع المسلمون على ان ما صدر عن رسول الله من قول او فعل او تقرير ، وكان مقصودا به التشريع والاقتداء ، ونقل الينا بسند صحيح يفيد القطع او الظن الراجح بصدقه ، يكون حجة على المسلمين » (علم اصول الفقه ، ص ٣٩ ، نقلا عن الاصول العامة للفقه المقارن ، ص ١٢٧) .
 وورد في المصدر السابق ، ص ١٢٧ نقلا عن سلم الوصول ، ص ٢٦١ : « ... فان المسلمين في جميع العصور استدلوا على الاحكام الشرعية بما صح من احاديث الرسول (ص) ولم يتخلفوا في وجوب العمل بما ورد في السنة » .

(٣٦) راجع : الاصول العامة للفقه المقارن ، ص ١٢٦ وما بعدها .
 (٣٧) راجع في هذا الصدد : علوم الحديث ومصطلحه ، ص ٢٩١ - ٣٠٧ .
 (٣٨) المصدر السابق ، ص ٢٩٤ . وهناك روايات تؤكد انفراد السنة ببعض الاحكام الشرعية : « يرى عبد الرحمن بن يزيد رجلا محرما في موسم الحج قد ارتدى ثوبا مخيطا ، فيرشده الى نزع ثيابه والاخذ بسنة النبي في لباس الاحرام ، فيقول الرجل لعبد الرحمن : اثنتي بآية من كتاب الله تنزع ثيابي . فلا يرى عبد الرحمن خيرا من ان يقرأ عليه الآية : وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » (سورة الحشر نقلا عن المصدر نفسه ص ٢٩٣ . وقارن بجامع بيان العلم ، لابن عبد البر : ٢- ١٨٨) « ويصلي طاووس (من اكابر التابعين واشهر رواة الحديث ، توفي سنة ١٠٦ هـ) بعد العصر ركعتين ، فيقول له ابن عباس : اتركهما . فيجيبه طاووس بان الرسول نهى عنهما مخافة ان تتخذا سنة ، ولا خير في هاتين الركعتين ان صليتا بغير نية الاستمرار . ولكن ابن عباس يصير على نهى الرسول عن الصلاة مطلقا بعد العصر ، ويؤكد لطاووس ان ليس له الخيار ، فيما جاء به رسول الله ، مستندا الى الآية :

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم

الخيرة من امرهم » . (الموافقات : ٢٥٤ - ٢٥٥ ، نقلا عن المصدر السابق ص ٢٩٣) . ويورد صبحي الصالح في المصدر السابق امثلة كثيرة على شمول السنة كل آفاق التشريع ، في العبادات والمعاملات والحلال والحرام ، وعلى استقلال السنة بالتشريع ولو كان اصلها في الكتاب . ويختم بكلمة للامام الشافعي جاء فيها ان الله من على خلقه «بتعليمهم الكتاب والحكمة ، فلم يجز ، والله اعلم ، ان يقال : الحكمة هنا الا سنة رسول الله ، وذلك انها مقرونة مع الكتاب ، وان الله افترض طاعة رسوله وحتم على الناس اتباع امره ، فلا يجوز ان يقال القول : فرض ، الا لكتاب الله وسنة رسوله ، لما وصفنا من ان الله جعل الايمان برسوله مقرونا بالايمان به » . (الرسالة ، ص ٧٨ ، نقلا عن المصدر نفسه ص ٣٠٣) والشافعي يشير هنا الى الآية : « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » . (آل عمران : ١٦٤) .

(٣٩) علوم الحديث ومصطلحه ، ص ٣٠٧ .

(٤٠) تشدد الامام ابو حنيفة في قبول الاحاديث ، وبخاصة خبر الاحاد - واشترط على هذا « الا يعارض الاصول المجتمعة بعد استقراء موارد الشرع ، والا يعارض عموميات القرآن وظواهره ، ولا يخالف السنة المشهورة ، سواء اكانت قولية ام فعلية ولا يخالف العمل المتوارث بين الصحابة والتابعين دون تخصيص بلد ، والا يعول الراوي على خطه ما لم يذكر مرويه ، والا يعمل الراوي بخلاف حديثه ، والا يترك احد المختلفين في الحكم من الصحابة الاحتجاج بالخبر الذي رواه احدهم ، والا يكون الخبر منفردا بزيادة ، سواء اكانت في المتن ام في السند ، والا يكون مما تعم به البلوى » . (علوم الحديث ومصطلحه ، ص ٣٠٨ . انظر ايضا : اصول السرخسي : ١/٣٦٤) .

اما الشافعي فيقول : « وهل لاحد مع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة ؟ » (الميزان للشعراني ، ٦٥ ، وانظر : علوم الحديث ومصطلحه ، ص ٣٠٨) . وكان مالك بن انس فقيه الحديث ، وكان « يرى ان خبر الاحاد قطعي يوجب العلم والعمل معا » . (الاحكام للامدي : ١/١٠٨ . وانظر : علوم الحديث ومصطلحه ، ص ٣٠٩) . اما احمد بن حنبل فكان اذا « وجد النص افتى بموجبه ، ولم يلتفت

الى ما خالفه ولا من خالفه كائنا من كان » . (اعلام الموقعين ، لابن القيم : ٣٢/١ وانظر : علوم الحديث ومصطلحه ص ٣٠٩ .
ويقول ابن حزم : « ولو ان امرا قال : لا تأخذ الا ما وجدنا في القرآن لكان كافرا باجماع الامة » . (الاحكام في اصول الاحكام ، لابن حزم : ٨٠/٢ ويقول : « ان خبر الواحد العدل عن مثله الى رسول الله صلى عليه وسلم يوجب العلم والعمل معا » . (المصدر نفسه : ١١٩/١ ، وانظر علوم الحديث ومصطلحه ص ٣١١) وخلاصة هذا كله ان السنة مقدمة على القياس والنظر . انظر ايضا : اصول التشريع الاسلامي ، لعلي حسب الله ، الطبعة الرابعة (دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٣٥ - ٧٨) .

(٤١) كشف اصطلاحات الفنون : ٧٠٦/٣ .
(٤٢) صحيح البخاري ، الاعتصام رقم ٦ . انظر ايضا : علوم الحديث ومصطلحه ، ص ٧ . وكانت المدينة تسمى « دار السنة » ، اشارة الى انها كانت اكثر المدن حرصا على السنة النبوية .

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٧ .
(٤٤) سنن ابن ماجه : ١٧/١ ، رقم ٤٥ . وفي معناه ، اورد ابن الجوزي (نقد العلم والعلماء ، ص ١٢ ، الحديث التالي : « اياكم ومحدثات الامور ، فان كل محدث بدعة ، وكل بدعة ضلالة » .

(٤٥) سنن ابي داود : ٢٨٠/٤ ، رقم ٤٦٠٦ .
(٤٦) مثلا : « اتبعوا السواد الاعظم ، فانه من شد ، شد في النار » . (نقلا عن التهانوي ، ص ٧٠٦) . « من احب منكم ان ينال بعبودية الجنة ، فليلزم الجماعة ، فان الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين ابعد » . « يد الله مع الجماعة ، فاذا شد الشاذ منهم ، اختطفته الشياطين كما يختطف الدب الشاة من الغنم » . « اثنان خير من واحد ، وثلاثة خير من اثنين ، واربعة خير من ثلاثة ، فعليكم بالجماعة ، فان الله عز وجل لم يجمع امتي الا على الهدى » . (نقلا عن : نقد العلم والعلماء ، لابن الجوزي ص ٦ - ٧) .

(٤٧) سنن الترمذي : ٥١/١ والاغاني : ١٤٤/٢١ انظر ايضا : علوم الحديث ومصطلحه ، ص ٧ .

(٤٨) تفسير الطبري : ٣٣٥/٢ . ويفسر الطبري الآية : « كان الناس امة

- واحدة» (البقرة / ٢١٣) بقوله : « كانوا امة واحدة على دين واحد وملة واحدة » . (المصدر نفسه : ٣٣٦/٢) .
- (٤٩) النساء : ٥٩ .
- (٥٠) الطبري : ١٤٧/٥ - ١٥٠ .
- (٥١) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
- (٥٢) معارج الوصول ، ابن تيمية ، القاهرة ١٣٨٧ هـ . ص ١٧
- (٥٣) المصدر نفسه ، ص ١٧ .
- (٥٤) المصدر نفسه ، ص ١٥ .
- (٥٥) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .
- (٥٦) التقليد ، لغة ، جعل القلادة في العنق .
- (٥٧) التهانوي : ١١٧٨/٥ . وقد يعرف التقليد بأنه اعتقاد جازم غير ثابت . وغير الثابت هو ما يزول بتشكيك المشكك . وجميع التحديدات الواردة هنا مستقاة من المصدر نفسه .
- (٥٨) جاء في الحديث : « اصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » . (اورده المصدر نفسه) .
- (٥٩) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٤٩ . انظر ايضا : كشف الاسرار لعبد العزيز البخاري ، شرح اصول البزدوي (شركة الصحافة العثمانية ، استنبول ١٣٠٨ هـ .) : ٢٢٦/٣ .
- (٦٠) المصدر نفسه ، ص ٥٠ .
- (٦١) المصدر نفسه ، ص ٥١ .
- (٦٢) المصدر نفسه ، ص ٥٢ .
- (٦٣) المصدر السابق ، ص ٥٢ .
- (٦٤) المصدر نفسه ، ص ٥٣ - ٥٤ .
- (٦٥) المصدر نفسه ، ص ٥٥ .
- (٦٦) المصدر نفسه ، ص ٥٥ . ويقول عمر في كتابه هذا : « الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . اعرف الاشباه والامثال ، وقس الامور عند ذلك ... » (انظر : المستصفى للغزالي ، المطبعة الاميركية ، الطبعة الاولى : ١ / ١٠٠ ، ٢٤٤/٢ - ٢٤٩/١ ، ٢٥١ - ٢٥٦ . وانظر نص الكتاب في اعلام الموقعين : ١/٩٩ - ١٠٠ .
- (٦٧) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٥٥ .

- (٦٨) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٦٩ .
- (٦٩) اعلام الموقعين ، لابن قيم الجوزية (مطبعة النيل بمصر ، دون تاريخ) :
٢٤٢/١ .
- (٧٠) المصدر السابق ، ص ٧٠ - ٧١ .
- (٧١) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٧١ .
- (٧٢) المصدر نفسه ، ص ٨٧ .
- (٧٣) اعلام الموقعين : ٧٢/١ .
- (٧٤) المصدر نفسه : ٧٢/١ - ٧٣ .
- (٧٥) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٩١ - ٩٢ .
- (٧٦) انظر : المصدر السابق ، ص ١٢٧ وما بعدها . وانظر : الانصاف في التنبيه على الاسباب التي اوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم ، لابي محمد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي الاندلسي (توفي سنة ٥٢١ هـ . ١١٢٧ م ، القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) .
- (٧٧) تاريخ المذاهب الاسلامية ، محمد ابو زهرة ، (دار الفكر العربي بمصر دون تاريخ) : ١١٠/١ - ١١١ .
- (٧٨) المصدر نفسه ، ص ١١١ .
- (٧٩) المصدر نفسه ، ص ١١٣ .
- (٨٠) انظر : المصدر السابق ، ص ١٢٧ وما بعدها . وانظر : الانصاف في التنبيه على الاسباب التي اوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم .
- (٨١) يعرف الخاص ، اصطلاحا ، بانه « كل لفظ وضع لمعنى واحد على الانفراد » وهو لفة ، « عبارة عما يوجب الانفراد ويقطع الشركة » ويعرف العام بانه « كل لفظ ينتظم جمعا ، سواء اكان باللفظ او بالمعنى » (المدخل الى علم اصول الفقه ص ١٤٣ - ١٤٤) .
- (٨٢) راجع امثلة على الاحكام الشرعية التي بنيت على المعنى بالعبارة ، والمعنى بالاشارة في : المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ١٣٥ .
- (٨٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .
- (٨٤) المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ .
- (٨٥) انظر : فقه الاسلام ، حسن احمد الخطيب ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٧٣ وما بعدها . وانظر : المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٢٥٦ وما

- بعدها . وفي تاريخ التشريع الاسلامي ، للخضري ، الطبعة الرابعة ١٣٥٣ هـ . ص ١٩٧ وما بعدها ، اشارة الى ان القائلين بهذا الرأي كانوا من المعتزلة . وانظر : الموافقات للشاطبي (المطبعة السلفية ١٣٤١ هـ) : ٨/٤ ، ٦ ، ١٠ .
- (٨٦) في معظم الكتب الفقهية ردود على هذه الحجج . ولعل من افضلها وضوحا ما جاء فيه : المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٢٥٩ - ٢٦٢ .
- (٨٧) راجع تعريف التواتر والشهرة والخبر الواحد في المصدر السابق ، ص ٢٦٥ وما بعدها .
- (٨٨) كشف الاسرار على اصول البزدوي (استنبول ١٣٠٨ هـ) : ٣٦٢/٢ . ويعرف الكتاب المتواتر بانه « ما رواه قوم لا يتوهم تواطؤهم على الكذب » و « تدوم رواية الحديث من قبل مثل هذا القوم في جميع الظروف ، فيكون آخره كأوله ، وأوله كآخره ، وأوسطه كطرفيه » (ص ٣٦١) . انظر ايضا : المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٢٦٥ .
- (٨٩) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٢٦٦ .
- (٩٠) المدخل الى علم اصول الفقه ، الصفحة ٢٦٦ ، وانظر : كشف الاسرار : ٣٧٠/٢ - ٣٧١ .
- (٩١) الحقوق المدنية في البلاد السورية ، مصطفى الزرقا (الطبعة الثالثة ، دمشق ١٣٦٧ هـ) : ١٩/١ .
- (٩٢) علم اصول الفقه : عبد الوهاب خلاف ، الحلقة الثانية ، الطبعة الاولى ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ٣٦٥ هـ . ص ٣٥ - ٣٦ .
- (٩٣) المصدر نفسه ، ص ٣٦ .
- (٩٤) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٢٨٩ .
- (٩٥) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٢٩١ .
- (٩٦) المصدر نفسه ، ص ٢٩١ .
- (٩٧) المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ .
- (٩٨) الحقوق المدنية في البلاد السورية : ٢٧/١ . وقد اخذ بالاستحسان المذهب الحنفي والمذهب المالكي .
- (٩٩) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .
- (١٠٠) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٣٠٠ .
- (١٠١) المصدر نفسه ، ص ٣٠١ .
- (١٠٢) راجع في هذا الصدد : اعلام الموقعين ، لابن قيم الجوزية (ادارة

- الطباعة المنيرية بمصر) : ١/٣ ، مالك ، لمحمد ابي زهرة (مطبعة
الاعتماد ، القاهرة ١٣٦٥ هـ .) ص ٣٣٨ - ٣٣٩ . ومن امثلة القواعد
العامة : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » . « لا ضرر ولا ضرار » .
راجع ايضا : المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٣٠٢ وما بعدها .
- (١٠٣) الحقوق المدنية في البلاد السورية : ٣٦/١ .
- (١٠٤) المستصفي (الطبعة الاولى ، المطبعة المصرية ، القاهرة ١٣٢٢) :
٢٨٨/١ - ٢٨٨ .
- (١٠٥) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٣١٤ .
- (١٠٦) المصدر نفسه ، ص ٣١٤ - ٣١٥ .
- (١٠٧) المصدر نفسه ، ص ٣١٦ .
- (١٠٨) راجع تعريفاتها في المصدر السابق ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .
- (١٠٩) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٤٤٧ .
- (١١٠) الموافقات في اصول الشريعة ، للشاطبي (المطبعة الرحمانية بالقاهرة)
١٣/٢ .
- (١١١) المصدر نفسه ، ص ٣٥ .
- (١١٢) المصدر نفسه ، ص ١٣ - ١٤ .
- (١١٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦ . راجع ايضا بعض القواعد الخاصة ، الى
جانب هذه القواعد الاصولية العامة ، في : المدخل الى علم اصول
الفقه ، ص ٤٤٧ - ٤٤٩ .
- (١١٤) نقلا عن : علم اصول الفقه ، لعبد الوهاب خلاف ، الحلقة الثانية ،
مطبعة نهضة مصر ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٣٦٥ هـ . ص ١٦ -
١٧ .
- (١١٥) مالك ، لمحمد ابي زهرة (مطبعة الاعتماد ، القاهرة ١٣٦٥ هـ .) ص
٣٠٢ .
- (١١٨) المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ - ٣٤٠ .
- (١١٩) المصدر نفسه ، ص ٣٤٢ .
- (١٢٠) تاريخ المذاهب الاسلامية : ٦٩/٢ .
- (١٢١) المدخل الى علم اصول الفقه ، ص ٣٦٦ . راجع ايضا : المصدر
السابق ، الفصل الخاص بابي حنيفة ، خصوصا ص ١٦٠ - ١٦٥ .
- (١٢٢) « قال بعضهم : رايت رسول الله (ص) في المنام ، فقلت : يا رسول
الله اشفع لي . فقال قد شفعت لك . فقلت : متى ؟ فقال : اليوم

- الذي احييت فيه سنة من سنتي قد اميتت » (التحبير في التذكير ،
القشيري ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٩٣ . وفي هذا الخبر ما يشير الى
الحديث : « من احب سنتي فقد احبني ، ومن احبني كان معي في
الجنة » (المصدر نفسه ، الصفحة نفسها) .
- (١٢٣) التهانوي : ١٢٧٦/٥ و ١٣٣/١ - ١٣٥ .
- (١٢٤) سورة هود : ٤٤ . المصدر السابق ١٣٠/١ .
- (١٢٥) المصدر السابق : ١٣٣/١ .
- (١٢٦) انظر : التهانوي : ٣٣/١ - ١٣٥ .
- (١٢٧) المصدر السابق نفسه .
- (١٢٨) سورة البقرة : ٢١٧ .
- (١٢٩) تفسير الطبري : ٣٤٦/٢ - ٣٥٥ .
- (١٣٠) سورة البقرة : ٢١٧ .
- (١٣١) سورة الانعام : ١٥٣ .
- (١٣٢) تفسير الطبري : ٨٧/٨ - ٨٨ .
- (١٣٣) سورة الانعام : ١٥٩ .
- (١٣٤) الطبري : ١٠٥/٨ .
- (١٣٥) سورة آل عمران : ١٠٣ - ١٠٦ .
- (١٣٦) درء تعارض العقل والنقل ، ص ٤٨ .
- (١٣٧) طبعت هذه الرسالة ضمن مجموع « شذرات البلاتين من طيبات
كلمات سلفنا الصالحين » (طبعة السنة المحمدية ، القاهرة ١٩٥٦) .
راجع ايضا : درء تعارض العقل والنقل ، ص ١٨ .
- (١٣٨) ديوان الشافعي (ابو عبدالله محمد بن ادريس : ١٥٠ هـ - ٢٠٤
هـ .) جمع محمد عفيف الزعبي ، دار النور ، بيروت ، ١٩٧١ ،
ص ٨٨ .
- (١٣٩) المصدر نفسه ، ص ٦٩ ، ٧٢ .
- (١٤٠) البداية والنهاية ، لابن كثير الحافظ : ٢٥٤/١٠ .
- وجاء في « كشاف اصطلاحات الفنون » ان الاصل ما يتبنى عليه
غيره . وهو ، فقهاء ، الدليل - اي الكتاب والسنة :
- (١٤١) الاحقاف : ٩ .
- (١٤٢) تفسير الطبري : ٥/١٦ .
- (١٤٣) المصدر نفسه : ٦/١٦ . ويستشهد الطبري ببیت لعنه بن زيد :

- فلا انا بدع من حوادث تعترى رجالا عرت من بعد بؤسي واسعد ،
اي ما كنت اول الناس في تحمل هذه الحوادث .
- (١٤٤) تفسير الطبري : ٥٠/١ .
- (١٤٥) المصدر نفسه : ٤٩/٢ .
- (١٤٦) يقول النابغة الذبياني :
ثأت بسعاد منك نوى شطون فبانث والفؤاد بها رهين
(١٤٧) « قيل للشيطان رجيم لان الله جل ثناؤه طرده من سماواته ورجمه
بالشهب الثواقب » (الطبري : ٥٠/١) .
- (١٤٨) المصدر نفسه : ٢٢٧/١ .
- (١٤٩) التحبير في التذكير ، القشيري ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٩٢ .
- (١٥٠) المصدر نفسه ، ص ٩٢ .
- (١٥١) هو ابو عثمان الحيري ، اصله من الري . مات سنة ٢٩٨ هـ . يعد
من شيوخ الملامتية الكبار . (راجع هامش ص ٩٢ ، من المصدر
السابق) .
- (١٥٢) المصدر السابق ، ص ٩٣ .
- (١٥٣) التحبير في التذكير ، ص ٩٣ .
- (١٥٤) المصدر السابق ، ص ٩٤ .
- (١٥٥) راجع الطبري : ٥٠٨/١ .

هوامش الفصل الثاني

(القسم الثالث)

- (١) الاصل ، لغة ، هو ما يفتقر اليه ولا يفتقر هو الى غيره . وهو ، شرعا ، ما يبنى عليه غيره ولا يبنى هو على غيره . والاصل ، اذن ، هو ما يثبت حكمه بنفسه ويبنى عليه غيره . وفي هذا الصدد يقول ابن المقفع : « اعرف الاصول والفصول (أي الفروع) فان كثيرا من الناس يطلبون الفصول مع اضاعه الاصول ، فلا يكون دركهم دركا ، ومن احرز الاصول اكتفى بها عن الفصول ، وان اصاب الفصل بعد احراز الاصل ، فهو افضل » . (الدرة اليتيمة ، ضمن رسائل البلغاء ، جمعها وقدم لها محمد كرد علي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩١٣ ، ص ٥٧) .
- (٢) سورة البقرة : ٣١ .
- (٣) البلاغة وعلم النفس ، لامين الخولي : مجلة كلية الاداب بجامعة القاهرة ، العدد ٤ ، سنة ١٩٣٦ .
- (٤) جامع البيان في تاويل آي القرآن ، لابن جرير الطبري ، طبعة بولاق ١٩٠٥ : ١٧٠/١ .
- (٥) المزهري ، للسيوطي (طبعة جاد المولى) بمصر : ٣٠/١ . وابن جني وقبله المعتزلة يخالفون هذا الرأي ، ويقولون ان اللغة اصطلاح وهي من وضع الانسان . انظر : الخصائص ، لابن جني ، القاهرة ١٩٣٣ : ٩/١ ، ١٤ ، ٢٤ ، ٢٧ .
- (٦) يقول ابن الانباري : « ويشترط ان يكون ناقل اللغة عدلا ، رجلا كان او امرأة ، حرا كان او عبدا . كما يشترط في نقل الحديث ، لان بها معرفة تفسيره وتأوله فاشترط في نقلها ما اشترط في نقله ... فان كان ناقل اللغة فاسقا لم يقبل منه » . (المزهري : ١٣٨/١) .
- (٧) يروي السيوطي : « بينا عبدالله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن بما لا علم له به ، فقاما اليه فقالا : انا

نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقة من كلام العرب فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين . فقال ابن عباس : سلاني عما بدا لكما . فقال نافع : أخبرني عن قول الله تعالى : « من اليمين وعن الشمال عزين » ، قال : العزون ، حلق الرفاق . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاؤوا يهرعون اليه حتى يكونوا حول منبره عزينا (الاتقان في علوم القرآن ، القاهرة ١٩٠٠ : ١٢١/١) . والآية هي ٣٧ من سورة المعارج . والعزين اسم للجماعة التي يتأسى بعضها ببعض . راجع معجم الفاظ القرآن الكريم ، القاهرة ١٩٧٠ : ٢١٦/١ . ويقول ابن عباس عن تفسير القرآن بالشعر : إذا سألتهم عن شيء من غريب القرآن ، فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب » . « الشعر ديوان العرب ، فاذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا الى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه » (الاتقان : ٢٠٦/٣) .

- (٨) مفتاح السعادة ، لطاش كبرى زاده : ٤٢٧/١ .
- (٩) السيرة ، لابن هشام ، طبعة الحلبي : ٢٧٠/١ .
- (١٠) المصدر نفسه : ٣٤٢/١ .
- (١١) المصدر نفسه ، ٤٣٥/٢ .
- (١٢) المصدر نفسه : الصفحة نفسها . انظر ايضا : اعجاز القرآن للباقلاني ، ص ٢٧ .

- (١٣) الخطابي ، ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ، دار المعارف بمصر ، ص ٦٥ .
- (١٤) سورة الجن : ٢٠١ ، المصدر نفسه ، ص ٦٥ .
- (١٥) اعجاز القرآن ، للباقلاني ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ ، ص ٢٨ وانظر ايضا ص ٢٤ - ٢٨ . وشبيه بهذا قول ابن قتيبة : « وأنتم يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الاساليب وما خص الله به لفتها دون جميع اللغات » . (مخطوط المشكل ، لابن قتيبة ورقة ٥ ، نقلا عن : منهج الزمخشري في تفسير القرآن ، مصطفى الصاوي الجويني ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩ ، ص ٢٠١) .

- (١٦) المصدر نفسه ، صفة ٢٥ و ٢٩ .
- (١٧) مجاز القرآن ، لابي عبيدة معمر بن المثنى ، تحقيق محمد فؤاد

- سركين ، مطبعة الخانجي ، القاهرة ١٩٥٥ ، الجزء الاول ، ص ١٧ - ١٨ . وينقل السيوطي هذا الكلام ويضيف : « ثم ذكر ابو عبيدة البالغاء وهي الاكارع ، وذكر القمنجر الذي يصلح القسي ، وذكر الدست ... » ثم قال : « وذلك كله من لغات العرب وان وافقه في لفظه ومعناه شيء من غير لغاتهم » . (المزهري : ١/٦٦) . انظر ايضا حول المبالغة في انكار وقوع العجمة او المغرب في القرآن : الرسالة للشافعي ، ص ٤٠ - ٥٠ . المغرب للجواليقي ، ص ٤ . فتح الباري : ٨/١٩٠ . ويرى ابراهيم انيس ان القائلين بوجود الفاظ غير عربية في القرآن ، يعتمدون على ابن عباس ومجاهد وعكرمة الذين قالوا ان هذه الالفاظ من غير لسان العرب (اي سجل ، مشكاة ، استبرق ، الطور ... وامثالها) ويرى اصحاب هذا الرأي ان ابن عباس وصاحبيه اعلم بالتأويل من ابي عبيدة . (من اسرار اللغة ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٢٦) .
- (١٨) تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة (توفي سنة ٢٧٦ هـ) ، تحقيق السيد احمد صقر ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٠ .
- (١٩) من الامثلة في الشعر الجاهلي نذكر تمثيلا لا حصرا :
 ١ - وكان الخمر العتيق من الاسفنت ممزوجة بماء زلال .
 ب - عليه ديابوز تسربل تحته ارندج اسكاف يخالط عظمما .
 فالاسفنت الخمر ، وهي غير عربية . والديابوز ثوب ينسج على نيرين ، اما الارندج فالجلد الاسود . والكلمتان غير عربيتين .
 اما في العصر العباسي ، فالامثلة اكثر من ان تحصى ، لا فيما يتعلق بالحياة المادية وحسب ، وانما فيما يتعلق ايضا بالحياة الفكرية .
- (٢٠) يسمى هذا الادخال اقتراسا ، في الابحاث اللغوية الحديثة . راجع : من اسرار اللغة ، ص ١٠٩ وما بعدها .
- (٢١) المصدر السابق ، ص ١٢٥ - ١٣١ .
- (٢٢) تبني الفيروزابادي معظم هذه الالفاظ واثبتها في قاموسه ، لكن عمله هذا اعتبر نقصا وعيبا .
- (٢٣) من اسرار اللغة ، ص ١٢٦ - ١٢٧ . والامثلة على هذه الحالات الست هي على التوالي : منجنيق ، جص ، طاجن ، ترجس ، مهندز ، (مهندس) ، ساذج . فجميع هذه الكلمات من اصل غير عربي .

(٢٤) المصدر السابق ، ص ١٢٧ . راجع للاطلاع على المعرب والدخيل في اللغة العربية : « المعرب من الكلام الاعجمي » لابي منصور الجواليقي (توفي سنة ٥٤٠ هـ .) و « شفاء الغليل في كلام العرب من الدخيل » للشهاب الخفاجي .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ١٢٩ . ويمثل على انعدام هذه الدراية ، بان الجواليقي مثلا كان ينسب كثيرا من الكلمات الاجنبية الى الفارسية وهي ليست منها . ويعطي امثلة من الفاظ اعتبرت من اصل فارسي وهي في الواقع من اصل يوناني : ابليس ، اخطبوط ، ازميل ، اسطول ، اسطورة ، افريز ، اقليم ، اسفنج ، برج ، بقدونس ، بطاقة ، درهم ، دكان ، زبرجد ، طاجن ، طاووس ، فانوس ، قانون ، قرطاس ، قصدير ، قرنفل ، قلم ، قلنسوة ، قميص ، منديل ، ناموس ، نافورة ، ياقوت (ص ١٣٠ - ١٣١) .

(٢٦) من اسرار اللغة ، ص ٢٤ .

(٢٧) نزهة الالبا ، ص ١٣٤ .

(٢٨) الاشارة هنا الى كتب محمد بن الحسن ، صاحب ابي حنيفة .

(٢٩) الخصائص : ١ - ١٦٣ .

(٣٠) الاقتراح في اصول النحو للسيوطي (طبعة حيد آباد الدكن ، سنة ١٣١٠ هـ) ، ص ٣ .

(٣١) من اسرار اللغة ، ص ١٨ . وراجع حول موضوع القياس في اللغة : اللغة والنحويين القديم والحديث ، لعباس حسن ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦ ص ١٣ - ٥٩ .

(٣٢) من اسرار اللغة ، ص ١٩ .

(٣٣) اوردها المصدر السابق ، ص ١٩ . ونزهة الالبا ، ص ٣٨٩ .

(٣٤) اي لهجات : طبقات الزبيدي ، ص ٣٤ ، واورد الكلمة المصدر السابق ص ٢٠ .

(٣٥) المصدر السابق ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٣٦) هناك انواع ثلاثة اخرى : مطرد في القياس والسماع ، مطرد في السماع لا القياس ، شاذ في القياس وفي السماع . ص ٢٢ ، المصدر السابق .

(٣٧) من اسرار اللغة ص ٣٤ - ٤٦ .

(٣٨) البيان والتبيين : ٣ - ٢٩٧ .

(٣٩) من ابرز الامثلة على ذلك ما يرويه المبرد في الكامل : ١ - ٢٩٧ من ان

الحجاج عاتب سعيد بن جبير اثر ثورة عليه مع ابن الاشعث ، فدار بينهما الحوار التالي :

— اما قدمت الكوفة وليس يؤم بها الا عربي ، فجعلتك اماما ؟

— بلى .

— افما وليتك القضاء فضج اهل الكوفة وقالوا لا يصلح القضاء الا لعربي ، فاستقضيت ابا بردة بن ابي موسى الاشعري ، وامرته الا يقطع امرا دونك ؟

— بلى .

— اوما جعلتك من سماري وكلهم من رؤس العرب ؟

— بلى .

— فما اخرجك علي ؟

(٤٠) نشا الانان وعاشا في البصرة . توفي الاصمعي سنة ٢١٦ هـ . او ٢١٤ هـ . او ٢١٥ هـ . وتوفي ابو عبيدة سنة ٢١٠ هـ . او ٢٠٩ هـ .

(٤١) نزهة الالبا للانباري ، ص ١٤٧ . انظر ايضا : رواية اللغة ، لعبد الحميد الشلقاني (دار المعارف بمصر ، ١٩٧١) ، ص ١٠٤ وما بعدها .

(٤٢) معجم الادباء : ١١ - ٣١٥ .

(٤٣) تاريخ بغداد : ١٠ - ٤١٤ . ويعلق الشلقاني على هذا الخبر بقوله ان ابا نواس « كان تلميذا لابي عبيدة . . وربما صدر ذلك لاتفاقهما على كراهية العرب » . (رواية اللغة ، ص ١٠٦) .

(٤٤) الجهمرة ، لابن دريد : ٣ - ٤٢٤ . وابو زيد هو ابو زيد الانصاري ، وكان يوصف بانه « اوثق » الرواة ، توفي سنة ٢١٥ هـ .

(٤٥) رواية اللغة ، ص ١٠٧ .

(٤٦) الخصائص ، لابن جني (طبعة دار الكتب ١٩٥٢ - ١٩٥٦) : ١ - ٣٦٧ .

(٤٧) الامالي ، للقالبي (طبعة دار الكتب ، ١٩٦٢) : ١ - ٩٦ . وينقل المرزباني بهذا المعنى ، عن الاصمعي قوله : « عدي بن زيد وابو دؤاد الايادي لا تروى العرب اشعارهما لان الفاظهما ليست بنجدية » . (الموشح ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٣ هـ) . ص ٧٣ .

(٤٨) الطور : ٢٤ .

(٤٩) البقرة : ٢٣٥ .

(٥٠) رواية اللغة ، ص ١٣٨ .

(٥١) الخصائص : ٣ - ٢٩٨ .

- (٥٢) الاغاني (طبعة دار الكتب) : ٣ - ١٤٥ - ١٤٦ .
- (٥٣) الاغاني : ١٦٣/٣ .
- (٥٤) الموشح ، ص ٣٨٥ .
- (٥٥) من اسرار اللغة ، ابراهيم انيس ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الرابعة القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٢٦ - ٢٧ .
- (٥٦) يروى عن سبب تأليف ابي عبيدة لمجاز القرآن ، انه قدم على الفضل بن الربيع في بغداد سنة ١٨٨ هـ . ويصف ياقوت (معجم الادباء : ١٩/١٥٨ - ١٥٩) هذا القدوم بقوله : « ثم دخل رجل في زي الكتاب له هيئة ، فاجلسه الى جانبي وقال له : اتعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا ابو عبيدة علامة اهل البصرة اقدمناه لنستفيد من علمه ، فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا ، وقال لي : اني كنت اليك مشتاقا ، وقد سألت عن مسألة ، افتأذن لي ان اعرفك ايلها ؟ فقلت : هات . قال : قال الله عز وجل : « طلعها كانه رؤوس الشياطين » ، وانما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف ، فقلت : انما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم . اما سمعت قول امرئ القيس :
- ايقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة رزق كانياب اغوال ؟
- وهم لم يروا الفول قط ، ولكنهم لما كان امر الفول يهولهم اوعدوا به . فاستحسن الفضل ذلك ، واستحسنه السائل ، وعزمت من ذلك اليوم ان اضع كتابا في القرآن في مثل هذا واشباهه وما يحتاج اليه من علمه ، فلما رجعت الى البصرة عملت كتابي الذي سميته المجاز . (راجع ايضا : رواية اللغة ، ص ١٣٩) .
- (٥٧) رواية اللغة ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .
- (٥٨) مجاز القرآن ، تحقيق الدكتور محمد فؤاد سركين ، مطبعة الخانجي القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٨ .
- (٥٩) معجم الادباء : ١٥٩/١٩ .
- (٦٠) خلاصة تذهيب الكمال ، ص ٢٠٧ . نقلا عن رواية اللغة ، ص ١٤١ .
- والبيت لساعدة بن جؤية .
- (٦١) طبقات الزبيدي ، ص ١٩٤ . نقلا عن المصدر نفسه ، ص ١٤١ .
- (٦٢) رواية اللغة ، ص ١٤٢ .
- (٦٣) معجم الادباء : ١٥٩/١٩ .
- (٦٤) طبقات الزبيدي ، ص ٧٤ - ٧٥ .

- (٦٥) رواية اللغة ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .
- (٦٦) نقلا عن المصدر السابق ، ص ١٥٨ .
- (٦٧) توفي سنة ٢٠٧ هـ . ، وأملى كتابه بين سنة ٢٠٢ - ٢٠٤ هـ . راجع : معاني القرآن ، تحقيق احمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٥٥ .
- (٦٨) على العكس من ابي عبيدة ومن نحا نحوه ، فقد كانوا يختارون القاعدة النحوية اي العقل دون النقل . ويخطئون العرب احيانا في لغتهم . وكان الفراء يقول عنهم ، ويقصد ابا عبيدة بشكل خاص انهم « بعض من لا يعرف العربية » . انظر : رواية اللغة ، ص ١٨٦ .
- (٦٩) نزهة الالباء ، ص ٦٧ .
- (٧٠) المصدر السابق ، ص ٨٧ - ٩١ . تاريخ بغداد : ٤٠٣/١١ . معجم الادباء : ١٦٨/١٣ ، ١٧٤ .
- (٧١) نزهة الالباء ، ص ١٢٦ ، ١٣٠ . تاريخ بغداد : ١٥٠/١٤ .
- (٧٢) نزهة الالباء ، ص ٢٣٨ .
- (٧٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .
- (٧٤) حلية الاولياء ، لابي نعيم الاصفهاني ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٣٢ : ١٥١/٢ .
- (٧٥) اخبار النحويين البصريين ، للسيرافي ، مطبعة الحلبي - القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣١ .
- (٧٦) نزهة الالباء ، ص ١٣٩ ، ومعجم الادباء : ١٥٩/١٩ . وطبقات الزبيدي ص ١١٨ . انظر ايضا : رواية اللغة ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .
- (٧٧) الاغاني : ١٨-٧٢ .
- (٧٨) من اسرار اللغة ، ابراهيم انيس ، (الطبعة الرابعة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٨ - ٩) .
- راجع ايضا : رواية اللغة ، هامش ص ١ . ٢ .
- (٧٩) يروى عنه انه قال : « لقد احسن هذا المولد حتى هممت ان آمن صبياننا بروايته » . (العمدة ، لابن رشيق ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ص ٧٣) .
- (٨٠) هو احمد بن يحيى المعروف بشعلب . تراس المذهب الكوفي ببغداد وسماه القفطي « امام الكوفيين في النحو واللغة » . ولد سنة ٢٠٠ هـ . وتوفي سنة ٢٩١ هـ .

- (٨١) رواية اللغة ، ص ٢٨٦ .
- (٨٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ .
- (٨٣) الفاضل ، للمبرد ، طبعة دار الكتب بالقاهرة ، سنة ١٩٥٦ ، المقدمة ، ص ٨ .
- (٨٤) اسمه الكامل ابو بكر محمد بن الحسن الازدي البصري .
- (٨٥) رواية اللغة ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .
- (٨٦) الخصائص : ٣٥٦/١ . ولسان العرب : ١٥٥/١٠ (طبعة صادر)
 مادة روح . وهناك امثلة كثيرة على غلبة الطبع مما يخالف القياس .
 فالقرآن لم يلتزم احيانا بنصب اسم ان ولا رفع خبرها ولا تماثل
 المعطف والمعطوف عليه ، وذكر المؤنث وانث المذكر . ونذكر هذه
 الامثلة على التوالي : « ان هذان الساحران » (سورة طه : ٦٣) ،
 « والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة » (النساء : ١٦٢) ، « ان الذين
 آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى » (المائدة : ٦٩) ، « فلما
 رأى الشمس بازغة قال هذا ربي » (الانعام : ٧٨) ، « ان رحمة الله
 قريب من المحسنين » (الاعراف : ٥٦) وهو يريد بالرحمة المطر .
 « لعل الساعة قريب » (الشورى : ١٧) (انظر الخصائص : ٤١٢/٢) .
 ولم يشك البصريون في فصاحة هذه الآيات وامثالها ، وانما قالوا
 عنها شاذة وتأولوها لكي تنسجم مع القاعدة (انظر اللغة والنحو بين
 القديم والحديث ، ص ٩١ - ٩٤ . انظر : من اسرار اللغة ، لابراهيم
 انيس ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٥) .
 ويقول الاصمعي عن ابي عمرو : سمعت رجلا من اليمن يقول : فلان
 لغوب جاءته كتابي فاحتقرها . فقلت له : اتقول جاءته كتابي ؟ قال :
 نعم . اليس بصحيفة ؟ (الخصائص : ٤١٦/٢) .
 ويقول السيوطي (الاقتراح ، ص ٢٨) ان الاعرابي اذا قويت فصاحته
 وسمت طبيعته ارتجل ما لم يسبق اليه وقيل عن رؤية وابيه انهما
 كانا يرتجلان الفاظا لم يسمعاها ولم يسبقا اليها . انظر ايضا : رواية
 اللغة ، ص ٣١٧ . ويقرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة : « ان العرب
 الذين يوثق بعريتهم ويستشهد بكلامهم ، هم عرب الامصار الى
 نهاية القرن الثاني ، واهل البدو من جزيرة العرب الى آخر القرن
 الرابع » (مجلة المجمع : ٢٠٢/١ ، وجلسات الانعقاد الاول ،
 ص ٣٠٣ ، ٢٩٤) .

- (٨٧) رواية اللغة ، ص ٣١٨ .
- (٨٨) فقه اللغة لاحمد بن فارس ، ص ٣٣٣ .
- (٨٩) المزهر : ١١٥/١
- (٩٠) اجاز الكوفيون القياس على المثال الواحد المسموع « وهم يعتبرون اللفظ الشاذ فيقفون عليه ، ويبنون على الشعر الكلام من غير نظر الى مقاصد العرب ولا اعتبار بما كثر او قل » . (محاضر المجمع اللغوي بالقاهرة ، دور الانعقاد الاول ، ص ٣٦٣) وهذا هو رأي ابي اسحاق الشاطبي (المواهب الفتحية : ٤٣/١) وكان ابو زيد الانصاري استاذ سيبويه ، يجعل الفصيح والشاذ سواء . (القياس في اللغة ، ص ٤١ ، نقلًا عن : اللغة والنحو بين القديم والحديث ، لعباس حسن ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦ ، ص ٤٥) ويستند ذلك الى آراء العلماء في لغة القرآن . راجع تفصيلا عنها في المصدر السابق ، ص ٩٥ - ٩٨ .
- (٩١) في الاخبار ان عبدالله بن ابي اسحاق الحضرمي هو اول من بدا القياس اللغوي ، ويصفه الجمحي بقوله : هو « اول من بعج النحو وقد القياس والعلل » (طبقات فحول الشعراء ، دار المعارف بمصر ، ص ١٤) .
- (٩٢) رواية اللغة ، ص ٢٨٩ .
- (٩٣) الخصائص : ٣٥٧/١ . وبهذا المعنى يجيز هذه العبارة : درهمت الخبازي اى صارت كالدرهم فاشتق من الدرهم وهو اسم اعجمي (المصدر نفسه ص ٣٥٨) .
- (٩٤) هو محمد بن الحسن بن يعقوب . كان ، فيما يقال ، احفظ الناس لنحو الكوفيين واعرفهم بالقراءات . وله في التفسير ومعاني القرآن كتاب سماه « الانوار » قال عنه ياقوت : « ما رايت مثله » . وكان الى ذلك من علماء اللغة والشعر . واردف ياقوت عنه انه لم يكن له عيب الا انه قرأ بحروف تخالف الاجماع واستخرج لها وجوها من اللغة والمعنى . (معجم الادباء : ١٨/١٥٠ انباه الرواة : ٣/١٠٠ ، الفهرست ، ص ٤٩) . ويقول عنه ابو طاهر بن هاشم : « وقد نبغ نابغ في عصرنا هذا فزعم ان كل ما صح عنده وجه في العربية كحرف من القرآن يوافق خط المصحف فقرأته جائزة في الصلاة وغيرها . فابتدع بقليله ذلك ، بدعة ضل بها قصد السبيل واورط نفسه في مزلة عظمت بها جنايته على الاسلام واهله . وحاول الحاق كتاب

الله من الباطل ما لا يأتيه من بين يديه ولا خلفه، اذ جعل لاهل الالحاد في دين الله ، بسية رأيه ، طريقا من بين يدي اهل الحق بتخير القراءات من جهة البحث والاستخراج بالآراء دون الاعتصام والتمسك بالانز المفترض » . (معجم الادباء : ١٨ / ١٥١) . راجع ايضا : رواية اللغة ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ وهامشيها .

(٩٥) الخصائص : ٢٧٦/١ - ٢٧٧ .

(٩٦) المصدر نفسه ، ص ٣٥٧ .

(٩٧) المصدر نفسه ، ٣٢٣/١ .

(٩٨) المصدر نفسه ، ٤٢/٢ - ٤٣ .

(٩٩) الاقتراح ، ص ١٠٢ . ورد في كتاب همع الهوامع للسيوطي في باب « ان واخواتها » ما يلي : « وسمع من العرب نصب الجزاين بعدها ، فقل مؤول ، وعليه الجمهور (جمهور النحاة من البصريين) . وقيل : سائغ في الجميع ، وانه لغة ، وعليه ابو عبيد القاسم بن سلام ، وابن الطراوة ، وابن السيد ، وقيل : خاص بليت ، وعليه الفراء . ومن الوارد في ذلك : ١ - ان حراسنا اسدا . ٢ - ان العجوز حية - جروزا . ٣ - ال ليتني حجرا بواد . ٤ - يا ليت ايام الصبار واجعا . ٥ - لعل زيدا اخانا . ٦ - كأن اذنيه اذا تشوفا قادمة ، او قلما محرفا » .

ويعلق عباس حسن على هذا بقوله : « فهذه امثلة ستة لم تكف عند البصريين للقياس عليها لقلّة عددها في تقديرهم ، بل انهم لا يرضون بال عشرة او بما جاوزها قليلا كالذي منعه من قياسية جمع «مفعول» على «مفاعيل» ، وكصوغ «فعيلة» على «فعيلي» في النسب . وكثير من المصادر والجموع والمشتقات ، بحجة ان المسموع قليل ، لا ينهض مسوغا للقياس ... وهذا تضيق واعنات لا سند له » . (اللغة والنحو بين القديم والحديث ، ص ٤٦ - ٤٧) .

(١٠٠) يقول السيوطي (الاقتراح ، ص ١٠٠) : « اتفقوا على ان البصريين اصح قياسا ، لانهم لا يلتفتون الى كل مسموع ، ولا يقيسون على الشاذ » . ويقول احمد امين ، مقارنا بين الاتجاه الكوفي والاتجاه البصري ان البصريين كانوا « اكثر حرية واقوى عقلا ، وان طريقتهم اكثر تنظيما ، واقوى سلطانا على اللغة ، وان الكوفيين اقل حرية واشد احترامما لما ورد عن العرب ، ولو موضوعا . فالبصريون

- يريدون ان ينشئوا لغة يسودها النظام والمنطق ، والكوفيون يريدون ان يضعوا قواعد للموجود حتى الشاذ من غير ان يهتموا شيئا حتى الموضوع » . (ضحى الاسلام ، احمد امين : ٢٩٦/٢) .
- (١٠١) راجع تلخيصا وافيا لهذه المسألة في الزهر للسيوطي (الجزء الاول) ، وكتاب الخصائص لابن جني ، ص ٣٩ .
- (١٠٢) من هؤلاء ابو الحسن الاشعري (٢٦٠ - ٣٢٤ هـ . ٨٧٤ / - ٩٣٦ م) وابن فورك (توفي سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م) . ويحتج القائلون بالتوقيف بالاضافة الى احتجاجهم بالادلة النقلية ، بادلة عقلية اوجزها محمد مصطفى رضوان في دليلين نقلهما بنصهما : « الاول ان الاصطلاح انما يكون بان يعرف كل واحد من الخلق صاحبه ما في ضميره ، وذلك لا يعرف الا بطريق كالاتفاق والكتابة ، وكيفما كان ، فان هذا الطريق ان كان الاصطلاح لزم عنه الدور او التسلسل ، واذن فلا بد من التوقيف وهو المطلوب . والثاني ان اللغة لو كانت بالواضحة لجوز العقل اختلافها ، وانها على غير ما كانت عليه ، لان اللغات قد تبدلت وحينئذ لا يوثق بها » (العلامة اللغوي ابن فارس الرازي ، لمحمد مصطفى رضوان ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ ، ص ٢١٢) . راجع التفسيرات المختلفة للآية : « وعلم آدم الاسماء كلها » في الزهر للسيوطي : ١٧/١ .
- (١٠٣) الصاحبى (فقه اللغة) لاحمد بن فارس ، القاهرة سنة ٩١٠ ، ص ٦ .
- (١٠٤) المصدر نفسه ، ص ١٠ .
- (١٠٤) المصدر نفسه ، ص ١٠ .
- (١٠٥) المصدر نفسه ، ص ١٠ .
- (١٠٦) الخصائص : ٤٠/١ .
- (١٠٧) المصدر نفسه ، ٤١/١ .
- (١٠٨) المصدر نفسه ، ٤٧/١ .
- (١٠٩) المصدر نفسه ، ٢٩/٢ .
- (١١٠) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
- (١١١) الزهر في علوم اللغة وانواعها ، للسيوطي ، القاهرة ١٩٢٥ : ١١/١ - ١٢ .
- (١١٢) راجع في هذا الصدد : دلالة الالفاظ ، لابراهيم انيس ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٤ . راجع ايضا : العلامة اللغوي ابن فارس الرازي ، لمحمد مصطفى رضوان ، ص ٢٠٨ - ٢٥٥ .

هوامش الفصل الثالث

(القسم الثالث)

- (١) هو محمد بن يزيد المبرد ، ولد بالبصرة سنة ٢١٠ هـ ، وتوفي سنة ٢٨٥ هـ .
- (٢) طبقات ابن المعتز ، ص ١٩٧ .
- (٣) معجم الادباء : ١٢١/١٩ .
- (٤) المثل السائر : ١٣/٢ .
- (٥) سر الفصاحة ، ص ٣٢٩ .
- (٦) الكامل : ٢٩/١ . انظر ايضا : ٣/٢ .
- (٧) الكامل : ١/٢ .
- (٨) الكامل : ٣٥٩/١ .
- (٩) اخبار ابي تمام ، ص ٩٧ .
- (١٠) المصدر نفسه ، ص ٢٠٤ .
- (١١) المصدر نفسه ، ص ٩٧ .
- (١٢) هو ابو محمد عبدالله بن محمد . توفي سنة ٢٣٨ هـ . انظر : بغية الوعاة : ٦١/١٢ .
- (١٣) اخبار ابي تمام ، ص ٢٤٥ .
- (١٤) توفي سنة ٢٤٩ هـ . وكان يصف ابا تمام بأنه «مثقّف القوافي، ورائض صعبها وغدير روضتها» (اخبار ابي تمام ، ص ٢٧٦) .
- (١٥) اخبار ابي تمام ، ص ٢٧٨ ، وابو الشيص هو محمد بن عبدالله بن رزين قتله غلام له سنة ١٩٦ هـ .
- (١٦) اسمه احمد . كان اسود ، وكان شاعرا مجيدا . انظر : الموشح ، ص ٥٣١ وانظر : تاريخ بغداد : ٢٤٩/٨ .
- (١٧) كان يسكن بنادية البصرة . مدح الواثق والمتوكل . وهو من احفاد جرير الشاعر . مات سنة ٢٣٩ هـ/ ٨٥٣ م .

- (١٨) اخبار ابي تمام ، ص ٥٩ - ٦٠ .
- (١٩) المصدر نفسه ، ص ٩٣ - ٩٦ ، والقول الاخير تعليق على قصيدة ابي تمام في صلب الافشين .
- (٢٠) هو علي بن العباس . توفي سنة ٢٨٣ هـ .
- (٢١) اخبار ابي تمام ، ص ٦٧ .
- (٢٢) هو عبدالله بن المعتز بن المتوكل . قتل سنة ٢٩٦ هـ . وهو في التاسعة والاربعين .
- (٢٣) طبقات السعراء ، لابن المعتز ، ص ٢٨٦ .
- (٢٤) توفي سنة ٢٤٧ وقيل سنة ٢٤٣ .
- (٢٥) اخبار ابي تمام ، ص ١٠٤ .
- (٢٦) الاغاني : ٣٨٤/١٦ .
- (٢٧) كان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات ، وقد ولي ديوان الرسائل . توفي حوالي سنة ٢٥٠ هـ/٨٦٥ م .
- (٢٨) زهر الاداب : ٨٥٥/٣ .
- (٢٩) اخبار ابي تمام ، ص ١١٤ . وهذا الرأي قاله الحسن بن وهب ، في قصيدة ابي تمام البائية التي يمدح بها المعتصم .
- (٣٠) توفي نحو سنة .
- (٣١) الرسالة الموضحة للحاتمي ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .
- (٣٢) هو ابو محمد عبدالله بن مسلم ، توفي سنة ٢٧٦ هـ .
- (٣٣) طبعة دار الثقافة ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٠ - ١١ .
- (٣٤) اخبار ابي تمام ، لابي بكر محمد بن يحيى الصولي (توفي سنة ٣٣٦ هـ .) تحقيق خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الاسلام الهندي ، المكتب التجاري ، بيروت (بدون تاريخ) .
- (٣٥) اخبار ابي تمام ، ص ٣ . والى هذا الافتراق « العجيب » يشير صاحب الاغاني . قائلا : « وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضل على كل سالف وخالف ، واقوام يتعمدون الرديء من شعره ، فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعملون القحة والمكابرة في ذلك ... وهذا مما يتكسب به كثير من اهل هذا الدهر ، ويجعلونه وما جرى

مجراه من ثلب الناس وطلب معايبهم سببا للترفع وطلب الرياسة «
(الاغاني : ١٥ / ١٠٠) .

ويقول المسعودي : « والناس في ابي تمام في طرفي نقيض : متعصب
(٣٦) » وعجبت من افتراق آراء الناس فيه ، حتى ترى اكثرهم
والمقدم في علم الشعر وتمييز الكلام منهم ، والكامل من اهل النظم
والنثر فيهم ، يوفيه حقه في المدح ، ويعطيه موضعه من الرتبة ، ثم
يكبر باحسانه في عينه ويقوى بابداعه في نفسه حتى يلحقه بعضهم بمن
يتقدمه ، ويفرط بعض فيجعله نسيج وحده وسابقا لا مساوي له .
وترى بعد ذلك قوما يعيونه ويطعنون في كثير من شعره ، ويسندون
ذلك الى بعض العلماء ، ويقولونه بالتقليد والادعاء ، اذ لم يصح فيه
دليل ، ولا اجابتهم اليه حجة . ورأيت مع ذلك الصنفين جميعا وما
يتضمن احد منهم القيام بشعره ، والتبيين لمراده ، بل لا يجسر على
انشاد قصيدة واحدة له اذ كانت تهجم - لا بد - به على خبر لم
يروه ، ومثل لم يسمعه ، ومعنى لم يعرف مثله » . (المصدر
السابق ، ص ٣ - ٤) . انظر ايضا : ص ١٢ ، من المصدر نفسه .

(٣٧) اخبار ابي تمام ، ص ٥ - ٦ .

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ٦ - ٧ .

(٣٩) هو ابو العباس احمد بن يحيى الشيباني (ولد سنة ٢٠٠ هـ . وتوفي
سنة ٢٩١ هـ .) .

(٤٠) المصدر نفسه ، ص ٩ .

(٤١) المصدر نفسه ، ص ٩ .

(٤٢) » فلا تنكر ان يقع ذلك منهم . لان اشعار الاوائل قد ذلت لهم ،
وكثرت لها روايتهم ووجدوا ائمة قد ماشوها لهم ، وراضوا معانيها ،
فهم يقرأونها سالكين سبيل غيرهم في تفاسيرها ، واستجادة جيدها
وعيب رديتها . والفاظ القدماء وان تفاضلت فانها تتشابه ، وبعضها
أخذ برقاب بعض ، فيستدلون بما عرفوه منها على ما انكروه ، ويقوون
على صعبها بما ذلوه . ولم يجدوا في شعر المحدثين منذ عهد بشار ائمة
كائمتهم ، ولا رواية كرواتهم الذين تجتمع فيهم شرائطهم ، ولم
يعرفوا ما كان يضبطه ويقوم به ، وقصروا فيه فجعلوه فعادوه
وفر العالم منهم من قوله ، اذا سئل ان يقرأ عليه شعر بشار وابي
نواس ومسلم وابي تمام وغيرهم : « لا احسن » ، الى الطعن ،

وخاصة على ابي تمام ، لانه اقربهم مهذا واصعبهم شعرا . وكيف لا يفر الى هذا من يقول : اقراوا علي شعر الاوائل ، حتى اذا سئل عن شيء من اشعار هؤلاء جهله . والى اي شيء يلجأ الا الى الطعن على ما لم يعرفه ؟ ولو انصف لتعلم هذا من اهله كما تعلم غيره ، فكان متقدما في علمه ، اذ كان التعلم غير محظور على احد ، ولا مخصوص به احد (المصدر نفسه ، ص ١٤ - ١٥) .

(٤٣) اخبار ابي تمام ، ص ١٥ - ١٦ .

(٤٤) « . . . فاما الصنف الثاني ممن يعيب ابا تمام ، فمن يجعل ذلك سببا لنباهة واستجلابا لمعرفة ، اذا كان ساقطا خاملا ، فالف في الطعن عليه كتباً ، واستغوى عليه قوما ، ليعرف بخلاف الناس ، وليجري له ذكر في النقص ، اذ لم يقع له حظ في الزيادة ، ومكسب بالخطأ اذ حرمة من جهة الصواب . وقد قيل خالف تذكر » (المصدر نفسه ، ص ٢٨) .

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ٣٧ . راجع ايضا ص ٣٠ - ٤١ ، وص ٤٦ ، حيث يقول عن هؤلاء ان قولهم لا يضر ابا تمام كما انه « لا يضر البحر ان يقذف فيه حجر ، ولا ينقص البدر ان ينبحه الكلب » .

(٤٦) « ليت ابا تمام مني يعيب من يجل في علم الشعر قدره ، او يحسن به علمه » . المصدر نفسه ، ص ٣٨ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٣٨ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

(٤٩) يرى الصولي ان الحكم في الاخذ ، عند « العلماء بالشعر » ، هو ان الشاعر « متى اخذ معنى زاد عليه ، ووشحه ببديعه ، وتمم معناه ، كان احق به » . وهذا ما كان يفعله ابو تمام في المعاني التي لا يبتكرها ، بل يأخذها . (اخبار ابي تمام ، ص ٥٣) .

(٥٠) « اعلم ان الفاظ المحدثين مذ عهد بشار الى وقتنا هذا كالمنتقلة الى معان ابدع ، والفاظ اقرب وكلام ارق ، وان كان السبق للاوائل بحق الاختراع والابتداء ، والطبع والاكتفاء ، وانه لم تر اعيينهم ما رآه المحدثون فشبهوه عيانا كما لم ير المحدثون ما وصفوه هم مشاهدة وعانوه مدة دهرهم من ذكر الصحارى والبر والوحش والابل والابخية . فهم في هذه ابدا دون القدماء ، كما ان القدماء فيما لم يروه ابدا دونهم .

« ... ولان المتأخرين انما يجرون بريح المتقدمين ويصبون على قوالهم ... وينتجعون كلامهم ، وقلما اخذ احد منهم معنى من متقدم الا اجاده . وقد وجدنا في شعر هؤلاء معاني لم يتكلم القدماء بها ، ومعاني اومأوا اليها فاني بها هؤلاء واحسنوا فيها ، وشعرهم مع ذلك اشبه بالزمان ، والناس له اكثر استعمالا في مجالسهم وكتبهم وتمثلهم ومطالبهم .

« ... وقد اكثر الناس في ذكر الشيب من قدماء الجاهلية والاسلام ، فاجمع الحذاق بعلم الشعر وتمييز الفاظه ، انه لم يقل فيه احسن من قول منصور النمري ، ووقع الاجماع عليه ، فما ضره تأخره ، اذ وقع الاجود له » . (اخبار ابي تمام ، ص ١٦ - ١٧ و ص ٢٧) .

(٥١) اخبار ابي تمام ، ص ٣٨ . ويقدم الصولي لهذا الرأي بقوله : « ومن العلوم خاص وعام ، ومصون ومبدول ، فلا ينبغي لمن عرف عامه ان يجهل خاصه ، ولا لمن شرع في مبدوله ان ينكر مصونه ، وانما اجريت هذا لئلا يجسر على الحكم على الشعراء وتمييز الفاظهم والحكم بالجيد والرديء لهم ، من لم يكن اعلم الناس بالكلام ... الخ » (الصفحة نفسها) .

(٥٢) « ... كان الشعراء قبل ابي تمام يبدعون في البيت والبيتين من القصيدة فيعتد بذلك لهم من اجل الاحسان ، وابو تمام اخذ نفسه وسام طبعه ان يبدع في اكثر شعره » . (المصدر السابق ص ٣٨) . « ... وهو رأس في الشعر مبتدئ لمذهب سلكه كل محسن بعده ، فلم يبلغه فيه ، حتى قيل : مذهب الطائي ، وكل حاذق بعده ينسب اليه ، ويقفي اثره » . (المصدر نفسه ، ص ٣٧) .

« ... وليس احد من الشعراء يعمل المعاني ويخترعها ، ويتكىء على نفسه فيها ، اكثر من ابي تمام » (المصدر نفسه ، ص ٥٣) .

(٥٣) اخبار ابي تمام ، ص ٧٢ .

(٥٤) المصدر نفسه ، ص ٧٣ . راجع الامثلة التي اختارها الصولي من شعر الشعراء وقارن فيما بينها ليدل على رأيه ، ويوضح تآثر البحري بأبي تمام ص ٧٣ وما بعدها .

(٥٥) اخبار ابي تمام ، ص ٧٤ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ٧٦ . ويقول في مكان آخر (ص ١٧٥) : « كان يعطي الشعراء في زمانه ويشفع لهم . وكل محسن فهو غلام له ، وتابع اثره » .

- (٥٧) يقصد ، على الأرجح ، ابا الضياء بشر بن تميم الذي ألف كتابا في أخذ البحري من ابي تمام . راجع الموازنة ، ص ٢٢ (طبعة الجوائب ، الاستانة ، ١٦٨٧ هـ . وطبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٦١ : ٥٢/١)
- (٥٨) المصدر نفسه ، ص ٧٩ - ٨٠
- (٥٩) عمارة بن عقيل بن جرير بن عطية بن الخطفي ويكنى ابا عقيل . شاعر كان يسكن بادية البصرة ، ويزور الخلفاء في الدولة العباسية . وكان النحويون بالبصرة يأخذون عنه اللغة . (الاغانى : ١٨٣/٢٠ - ١٨٨) .
- (٦٠) اخبار ابي تمام ، ص ٩٦ .
- (٦١) المصدر نفسه ، ص ٩٦ - ٩٧ . وفي رواية أن المبرد قال : « ما يهضم هذا الرجل (يعني ابا تمام) حقه الا أحد رجلين : اما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام ، واما عالم لم يتبحر شعره ولم يسمعه » . (المصدر نفسه ، ص ٢٠٤) .
- (٦٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .
- (٦٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .
- (٦٤) المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .
- (٦٥) المصدر نفسه ، ص ١٠١ .
- (٦٦) المصدر نفسه ، ص ١٢٧ .
- (٦٧) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .
- (٦٨) يصف الصولي الذين يطعنون على ابي تمام ، في مكان آخر من كتابه ، بانهم « بمنزلة من يهذي » . (المصدر نفسه ، ص ١٧٥) .
- (٦٩) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .
- (٧٠) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .
- (٧١) المصدر نفسه ، ص ١٣٦ . راجع ايضا ص ١٣٠ وما بعدها .
- (٧٢) تعليقا على ما روي عن ابن الاعرابي من انه قرأ عليه احد المعجبين بشعر ابي تمام ارجوزة على انها لشاعر من هذيل ، وهي في الحقيقة له ، فقال ابن الاعرابي : « اكتب لي هذه ، فكتبتها له . ثم قلت : احسنة هي ؟ قال : ما سمعت باحسن منها . قلت : انها لابى تمام . فقال : خرق خرق ! » . (المصدر نفسه ، ص ١٧٦) .
- (٧٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٧ . راجع الامثلة التي يبني عليها الصولي احكامه وآراءه في هذا الصدد ، ص ١٧٨ - ١٨١ .
- (٧٤) الآمدي (أبو القاسم حسن بن بشر ، توفي سنة ٣٧٠ هـ .) ، الموازنة بين شعر ابي تمام والبحري ، تحقيق السيد احمد صقر ، جزآن ،

دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١ ، (الجزء الاول) ، وسنة ١٩٦٥ (الجزء الثاني) .

(٧٥) المصدر السابق : ٦/١ ، وهؤلاء ، وهم اكثر من شاهده الامدي وراه من رواة اشعار المتأخرين « يزعمون أن شعر ابي تمام ... لا يتعلق بجيده جيد امثاله ، ورديه مطروح مرذول ، فلهذا كان مختلفا لا يشابه ، وان شعر الوليد بن عبيد الله البحتري ، صحيح السبك حسن الديباجة ، وليس فيه سفساف ولا ردى ولا مطروح ، ولهذا صار مستويا يشبه بعضه بعضا » . (٥/١) .

(٧٦) الموازنة : ٦/١

(٧٧) المصدر نفسه : ٦/١

(٧٨) المصدر نفسه : ٦/١

(٧٩) مروان بن ابي حفصة .

(٨٠) السيد الحميري ،

(٨١) مسلم بن الوليد ،

(٨٢) الموازنة : ٦/١ - ٧ .

(٨٣) الموازنة : ٧/١

(٨٤) المصدر السابق : ٨/١ . ويدافع الامدي عن تقليد البحتري لابي تمام واخذه عنه ، فيقول : « اذا كان ذلك انما يوجد في المتوسط من شعره ، فقد قام الدليل على انه لم يعتمد اخذه ، وانه انما كان يطرق سمعه ، فيلتبس بخاطره ، فيورده » . اما « محاسن البحتري ، ومختار شعره والبارع من معانيه والفاخر من كلامه ، فانكم لا تجدون فيه على غزره وكثرته حرفا واحدا مما اخذه عن ابي تمام » . (المصدر نفسه : ٥٣/١) .

(٨٥) روى الصولي (اخبار ابي تمام ، ص ٦٦ - ٦٨) ان البحتري قال : « كان اول امري في الشعر ونباهتي فيه ، اني صرت الى ابي تمام وهو بحمص ، فعرضت عليه شعري ، وكان يجلس فلا يبقى شاعر الا قصده وعرض عليه شعره فلما سمع شعري آقبل علي وترك سائر الناس . فلما تفرقوا ، قال : انت اشعر من انشدني ، فكيف حالك ؟ فشكوت خلة ، فكتب لي الى اهل معرفة النعمان وشهد لي بالحق ، وقال : امتدحهم . فصرت اليهم ، فاكرموني بكتابه ووظفوا لي اربعة آلاف درهم ، فكانت اول ما اصبته » .

ويتابع الصولي : « حدثني ابو عبدالله العباس بن عبد الرحيم

الألوسي ، قال حدثني جماعة من اهل معرفة النعمان ، قال : ورد علينا كتاب ابي تمام للبحثري - يصل كتابي على يدي الوليد بن عباد ، وهو على بذاذته (سوء حاله) شاعر ، فاکرموه . وسمعت ابا محمد عبدالله بن الحسين يقول للبحثري ، وقد اجتمعا في داره بالخلد ، وعنده محمد بن يزيد النحوي ، وذكروا معنى تعاورة البحثري وابو تمام : انت في هذا اشعر من ابي تمام فقال : كلا والله ذاك الرئيس الاستاذ ، والله ما اكلت الخبز الا به . فقال له محمد بن يزيد : يا ابا الحسن ، تأبى الا شرفا من جميع جوانبك .

ويتابع الصولي : « حدثني ابو عبدالله الحسين بن علي ، قال قلت للبحثري ايما اشعر ، انت او ابو تمام ؟ فقال : جيده خير من جيدي ، ورديئي خير من رديئه . قال ابو بكر : وقد صدق البحثري في هذا . جيد ابي تمام لا يتعلق به احد في زمانه ، وربما اختل لفظه قليلا لا معناه والبحثري لا يختل . (انظر ايضا : الاغاني ١٨/١٦٨) .

ثم يقول الصولي : « حدثني ابو الحسن الكاتب ، قال : كان ابراهيم بن الفرج البندنجي الشاعر يجيئنا كثيرا ، وكان اعلم الناس بالشعر ، ويجيئنا البحثري وعلي بن العباس الرومي ، وكانوا اذا ذكروا ابا تمام ، عظموه ، ورفعوا مقداره في الشعر حتى يقدموه على اكثر الشعراء ، وكل يقر باستاذيته وانه منه تعلم . وقال : هؤلاء اعلم اهل زمانهم بالشعر ، واشعر من بقي » .

(٨٦) الموازنة : ٩/١ - ١٠ و ١٢ و ٥٢ .

(٨٧) المصدر نفسه : ١٠/١ . وجاء في طبقات الشعراء لابن سلام قوله عن كثير : « وكان لكثير في التشبيب نصيب وافر ، وجميل مقدم عليه ، وعلى اصحاب النسيب جميعا في النسيب . وله في فنون الشعر ما ليس لجميل . وكان جميل صادق الصبابة ، وكان كثير يتقول ، ولم يكن عاشقا » . (طبقات فحول الشعراء ط . دار المعارف بمصر ، ص ٤٦١) .

(٨٨) الموازنة : ١٠/١ - ١١ .

(٨٩) المصدر نفسه : ١٢/١ .

(٩٠) الموازنة : ١٤/١ : « فابو تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه اولا واماما متبوعا ، وشهر به حتى قيل : هذا مذهب ابي تمام وطريقة ابي تمام . وسلك الناس نهجه ، واقتفوا اثره ، وهذه فضيلة عري عن مثلها البحثري » .

(٩١) الموازنة : ١٤/١ : « ليس الامر في اختراعه لهذا المذهب على ما وصفتم ، ولا هو بأول فيه ، ولا سابق اليه ، بل سلك في ذلك سبيل مسلم واحتلدى حذوه وافرط واسرف وزال عن النهج المعروف والسنتن المألوف ، وعلى ان مسلما ايضا غير مبتدع لهذا المذهب ولا هو اول فيه ، ولكنه رأى هذه الانواع التي وقع عليها اسم البديع ، وهي : الاستعارة ، والطباق والتجنيس ، منثورة متفرقة في اشعار المتقدمين فقصدها واكثر في شعره منها . وهي في كتاب الله ، عز وجل ، ايضا موجودة » .

(٩٢) المصدر نفسه : ١٧/١ - ١٨ .

(٩٣) الموازنة : ١٨/١ . وفيما يلي نص كلام ابن المعتز في كتابه البديع (طبعة كراتشكوفسكي ، ص ٢١-٢٢) : « قدمنا في ابواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة واحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة والاعراب وغيرهم واشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، ليعلم ان بشارا ومسلما وابا نواس ومن تقليلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ، ولكنه كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم ، حتى سمي بهذا الاسم ، فاعرب عنه ودل عليه . ثم ان حبيب بن اوس الطائي من بعدهم ، شغف به حتى غلب عليه ، وتفرع فيه واكثر منه ، فاحسن في بعض ذلك واساء في بعض ، وتلك عقبى الافراط ، وثمره الاسراف . وانما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة ، وربما قرئت من شعر احدهم قصائد من غير ان يوجد فيها بيت بديع . وكان يستحسن ذلك منهم اذا اتى نادرا ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل . وقد كان بعض العلماء يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبد القدوس في الامثال ويقول لو ان صالحا نثر امثاله في شعره وجعل بينها فصولا من كلامه ، لسبق اهل زمانه ، وغلب على مد ميدانه . وهذا اعدل كلام سمعته في هذا المعنى » .

(٩٤) الموازنة : ٢٨/١ - ١٩ .

(٩٥) الموازنة : ٩/١ . « انما اعرض عن شعر ابي تمام من لم يفهمه ، لدى معانيه ، وقصور علمه عنه ، وفهمته العلماء واهل النفاذ في علم الشعر ، واذا عرفت هذه الطبقة فضله ، لم يضره طعن من طعن بعدها عليه » .

- (٩٦) المصدر نفسه : ١٩/١ ، ويقال ان دعبل الف كتابا في الشعراء لم يدخل فيه ابا تمام . (المصدر نفسه ، الصفحة نفسها) .
- (٩٧) المصدر نفسه : ١٩/١ .
- (٩٨) المصدر نفسه : ١٩/١ . ولم يرد اي نص ، بهذا المعنى ، لشعلب .
- (٩٩) المصدر نفسه : ٢١/١ . راجع ما ورد سابقا مما يناقض ذلك : ص ٤٦٣ - ٤٦٤ .

(١٠٠) الموازنة : ٢٢/١ : « اما احتجاجكم بدعبل فغير مقبول ولا معول عليه ، لان دعبلا كان يشنأ ابا تمام ويحسده ، وذلك مشهور معلوم منه ، فلا يقبل قول شاعر في شاعر . واما ابن الاعرابي فكان شديد التعصب عليه ، لغرابية مذهبه ولانه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه ، فكان اذا سئل عن شيء منها يأنف ان يقول : لا ادري ، فيعدل الى الطعن عليه . والدليل على ذلك انه انشد يوما ابياتا من شعره وهو لا يعرف قائلها ، فاستحسنها وامر بكتبتها ، فلما عرف انه قائلها ، قال : خر قوه ! »

(١٠١) المصدر نفسه : ٢٣/١ . « ... فقال الاصمعي : لمن تنشدني ؟ فقال لبعض الاعراب . قال : والله هذا هو الديباج الخسرواني . قال : فانهما ليلتهما ، فقال : لا جرم والله ان اثر الصنعة والتكلف بين عليهما » .

(١٠٢) الموازنة : ٢٢/١ - ٢٣ .

(١٠٣) المصدر نفسه : ٢٣/١ - ٢٤ . « ... لان الذي يورده الاعرابي ، وهو محتد على غير مثال ، احلى في النفوس ، واشهى الى الاسماع ، واحق بالرواية والاستجادة مما يورده المحتدي على الامثلة » . ولذلك فان عمل ابن الاعرابي من انه استحسن شعر ابي تمام ، ثم امر بتخريفه لما عرف انه قائله ، « غير منكر » ولا يدخله « في التعصب ولا الظلم » .

« ... فالاصمعي في هذا غير ظالم ، لان اسحاق ، مع علمه بالشعر وكثرة روايته ، لا ينكر له ان يورد مثل هذا ، لانه يقوم في النفس انه قد احتذاه على مثال ، واخذه عن متقدم ، وانما يستطرف مثله من الاعرابي الذي لا يعول الا على طبعه وسليقته » .

(١٠٤) الموازنة : ٢٤/١ ، ٢٦ - « اقررتم لابي تمام بالعلم والشعر والرواية ، ولا محالة ان العلم في شعره اظهر منه في شعر البحتري ، والشاعر العالم افضل من الشاعر غير العالم » ...

» ... فقد عرفناكم ان ابا تمام اتى في شعره بمعان فلسفية والفاظ عربية ، فاذا سمع بعض شعره الاعرابي لم يفهمه ، واذا فسر له فهمه واستحسنه » .

(١٠٥) من الواضح ان اصحاب ابي تمام لا يقصدون ذلك . وانما يقصدون ان الشاعر الذي تكون له الموهبة والطبع ، في الاصل ، ثم يتوفر له العلم ، افضل من الشاعر الذي تكون له الموهبة والطبع ، ولا يكون له العلم .. فاصحاب البحري يقولون حجة اصحاب ابي تمام ما لا تقوله .

(١٠٦) المصدر نفسه : ٢٤ / ١ .

(١٠٧) الموازنة : ٢٤ / ١ .

(١٠٨) المصدر نفسه : ٢٦ / ١ .

(١٠٩) المصدر نفسه : ٢٤ / ١ .

(١١٠) المصدر نفسه : ٢٤ / ١ .

(١١١) » ... فلسنا ندفع ان يكون صاحبنا قد اوهم في بعض شعره، وعدلنا عن الوجه الاوضح في كثير من معانيه . وغير منكر لفكر نتج من المحاسن ما نتج وولد من البدائع مثل ما ولد ، ان يلحقه الكلال في الاوقات ، والزلل في الاحيان ، بل من الواجب لمن احسن احسانه ان يسامح في سهوه ، ويتجاوز له عن زلله » . (المصدر نفسه : ٣٥ / ١ - ٣٦) .

(١١٢) الموازنة : ٥١ / ١

(١١٣) المصدر نفسه : ٢٦ / ١ - » ... وابو تمام لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة ابيات يكون فيها مخطئا او محيلا او عن الغرض عادلا ، او مستعيرا استعارة قبيحة ، او مفسدا للمعنى الذي يقصده بطلب الطباق والتجنيس ، او مبهما بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم ، ولا يوجد له مخرج ، مما لو عددها لكان كثيرا فاحشا » . (المصدر نفسه : ٥٠ / ١) .

(١١٤) المصدر نفسه : ٥٢ / ١ .

(١١٥) المصدر نفسه : ٥٢ / ١ .

(١١٦) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

(١١٧) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

(١١٨) المصدر نفسه ، ص ٥٦ . ويمثل الامدي على الناحية الاولى بيت ابي تمام في وصف الخمر :

إذا اليد نالتها بوتر توقرت على ضفنها ، ثم استفادت من الرجل وهو المعنى نفسه في بيت « لديك الجن » :

تظل بايديها تتعتع روحها وتأخذ من أقدامنا الراح ثارها

لكنه يستدرك فيقول : « ليس ينبغي أن نقطع على أيهما أخذ من صاحبه لأنهما كانا في عصر واحد » . والبيتان مأخوذان من مسلم بن الوليد : قتلت وعاجلها المدير فلم تقدر فاذا به قد صيرته قتيلا ويمثل على الناحية الثانية بهذين البيتين . يقول البعيث الحنفي : وأنا لنعطى المشرفة حقها فقطع في إيماننا وتقطع ويقول أبو تمام :

فما كنت إلا السيف لاقى ضربة فقطعها ثم انشئ فقطعها

(١١٩) الموازنة ، ص ٦٠ - ٦١ .

(١٢٠) ديوان أبي تمام بشرح التبريزي : ١٥٥/٢ : « كلى : جمع كلية ، واستعارها للأفاق ، لأن من أطلع على كلية الشيء فقد خبر أمره ، إذ كانت الكلية لا تكون إلا في الباطن » .

(١٢١) المصدر نفسه ، ص ٦٤ .

(١٢٢) المصدر نفسه ، ص ٦٥ . ويمثل الأمدي على ذلك بقول أبي نواس في وصف الخمر :

فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة من كف لؤلؤة ممشوقة القدر وقد أخذه أبو تمام « فقال واساء » :

أو درة بيضاء بكر أطبقت حبلا على ياقوتة حمراء ويعلق الأمدي بقوله : « أطبقت حبلا » كلام مستكره قبيح جدا . (١٢٣) المصدر نفسه ، ص ١١٠ وما بعدها . ويمثل الأمدي على « السرقة الصحيح » بقول أبي تمام :

لا تشجين لها ، فان بكاءها ضحك ، وان بكاءك استغرام وقد أخذه من قول نبهان العيشمي :

واني ان بكيت بكيت حقا وانك في بكائك تكدينا ويسرد الأمدي أمثلة كثيرة من هذا النوع ص ١١٠ - ١٢٠ .

- (١٢٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .
 (١٢٥) المصدر نفسه ، ص ١٢١ .
 (١٢٦) المصدر نفسه ، ص ١٢١ - ١٢٩ .
 (١٢٧) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .
 (١٢٨) المصدر نفسه ، ص ١٢٢ . راجع بقية الحالات المماثلة في المصدر نفسه ، ص ١٢٢ - ١٢٩ .

(١٢٩) مثل قول أبي تمام :
 تعود بسط الكف حتى لو أنه دعاها لقبض لم تجبه انامله
 وهو مأخوذ من قول مسلم بن الوليد :
 لا يستطيع يزيد من طبيعته عن المروءة والمعروف احجاما
 (١٣٠) المصدر نفسه ، ص ٨٠ - ٨١ .

(٣١) مثل قول أبي تمام في رثاء ابنين صغيرين :
 لهفي على تلك المخايل فيهما لو امهلت حتى تكون شمائل
 ان الهلال اذا رايت نموه ايقنت أن سيكون بدر كاملا
 وهو مأخوذ من قول الفرزدق يرثي امرأة كانت حاملا :
 وجفن سلاح قد رزئت فلم انج عليه ولم ابعث عليه البواكيا
 وفي بطنه من دارم ذو حفيظة لو ان المنايا امهلت لياليا

(١٣٢) الموازنة ، ص ٨٩ ، مثل قول أبي تمام :
 قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعيم
 وهو مأخوذ من قول أبي العتاهية :
 كم نعمة لا تستقل بشكرها في طي احتساء المكاره كانه
 راجع المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

(١٣٣) المصدر نفسه ، ص ٩٠ ، مثل قول أبي تمام :
 كأن الغمام الفرغين تحتها حبيبا ، فما ترقى لهن مدامع
 وهو مأخوذ من قول شاعر مجهول في السحاب :
 كأن صبيين باتا طول ليلهما يستمطران على غدارنه المقللا
 (١٣٤) المصدر نفسه ، ص ٩٩ . مثل قول أبي تمام :

كنت ارعى الحدود حتى اذا ما فارقوني امسيت ارعى النجوما
 وهو مأخوذ من قول تميم بن مقبل :
 قد كنت راعي ابحار منعمة فالיום اصبحت ارعى جلة شرفا
 اي يرعى عجائز .

- (١٣٥) راجع ايضا : الوساطة ، ص ٢٢٤ .
- (١٣٦) المصدر نفسه ، ص ١١٣ ، مثل قول ابي تمام :
- اظله البين حتى انه رجل لو مات من شغله بالبين ما علما
وقد اخذه من قول ابي الشيص :
- فكم من ميتة قدمت فيه ولكن كان ذاك وما شعرت
ومع ذلك فان « بيت ابي تمام اجود » .
- راجع ايضا المصدر نفسه ، ص ٦٧ . وراجع ما جاء في هامشها رقم
٤ . راجع ايضا : الاغاني : ١٥/١٠١ ، واخبار ابي تمام ، ص ٦٣ ،
١٦٥ ، « يقال ان رجلا سال دعبلا (الخزامي) عن شاهد يؤيد ما
كان يدعيه من ان ابا تمام كان يتبع معانيه فيأخذها ، فانشده هذا
الشعر ، وان الرجل قال له : لئن كان اخذ هذا المعنى وتبعته فما
احسنت ، وان كان اخذه منك ، لقد اجاده فصار اولى به منك ،
فغضب دعبل . والشعر المشار اليه في هذا الخبر هو بيتا ابي تمام :
- فلقيت بين يديك حلو عطائه ولقيت بين يدي مر سؤاله
واذا امرؤ اسدى اليك صنعة من جاهه ، فكانها من ماله
وقد زعم دعبل ان ابا تمام اخدهما من قوله :
- ان امرا اسدى الي بشافع يرجى لدي الشكر مني لاحق
شفيحك فاشكر في الحوائج ، انه يصونك من مكروها وهو يخلق
(١٣٧) الموازنة ، ص ٦٦ . وديوان ابي تمام ص ٨٩ ، وديوانه بشرح
التبريري : ٣٧٨/١ .
- (١٣٨) ديوان ابي نواس ، ص ٦٦ .
- (١٣٩) الوساطة للجرجاني ٢٧٠ ، الصناعتين ٢٢٥ ، والدخيرة : ٢٤٢/١ .
- (١٤٠) ديوانه ، ص ٤٣ .
- (١٤١) ديوانه ، ص ١٠٦ . والغاية : كل شيء اظل الانسان كالسحابة
والغبار والظل .
- (١٤٢) ديوانه ، ص ٦٩ . وتتأيا : تتعمد وتقصد . والجزر تعني قتلي
الممدوح .
- (١٤٣) ديوانه ، ص ١٠ .
- (١٤٤) ديوانه ، ص ٢٤٨ .
- (١٤٥) يعلق الامدي على بيتي ابي تمام بقوله : « فأتى في المعنى زيادة ، وهي
قوله : « الا انها لم تقا تل » ، وجاء به في بيتين . واخطأ ايضا في
المعنى بقوله : « في الدماء نواهل » ، والنهل : هو الشرب الاول ،

والعلل : الشرب الثاني ، والعقبان لا تشرب الدماء ، وانما تاكل اللحم .

وفي « الشعر والشعراء » يقول ابن قتيبة (١٢١/١) ان العلماء اخذوا على النابغة انه « جعل الطير تعلم الغالب من المغلوب قبل التقاء الجمعين ، والطير قد تتبع العساكر للقتلى ، ولكنها لا تعلم ايها يغلب » .

وفي الدخيرة لابن بسام : ٣٤٢/١ - ٣٤٣ ان ابن شهيد يرى ان هؤلاء الشعراء جميعا قصروا « عن النابغة ، لانه زاد في المعنى ودل على ان الطير انما اكلت اعداء الممدوح ، وكلامهم كله مشترك يحتمل ان يكون ضد ما نواه الشاعر ، وان كان ابو تمام قد زاد في المعنى » . ويقول الصولي في اخبار ابي تمام (ص ١٦٥) : « ولا اعلم احدا قال في هذا المعنى احسن مما قاله النابغة ، وهو اولى بالمعنى وان كان قد سبق اليه ، لانه جاء به احسن » .

ويرى القاضي الجرجاني في الوساطة (ص ٢٧١) ان الانوفه الاودي « قد فضل الجماعة بامور : منها السبق وهي الفضيلة العظمى ، والآخر قوله : « رأي عين » فخير عن قربها لانها اذا بعدت تخيلت ولم تر ، وانما يكون قربها متوقعا للفريسة ، وهذا يؤيد المعنى . ثم قال : « ثقة ان ستمار » فجعلها واثقة بالميرة ، ولم يجمع هذه الاوصاف غيره . واما ابو نواس فانه نقل اللفظ ولم يزد فيفضل » .

(١٤٦) ديوانه ، ص ٥٥ .

(١٤٧) ديوانه ، ص ٢٣٢ . ووردت : ثناها ، بدلا من : دعاها . ولم تطعه ، بدلا من : لم تجبه .

(١٤٨) ديوانه ، ص ٤٧٨ ، وفيه السحاب ، بدلا من الغمام .

(١٤٩) الطراب ، جمع طرب وهو المشوق .

(١٥٠) ديوانه ، ص ٢٢٧ .

(١٥١) الموازنة : ١٣٤/١ .

(١٥٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٤ .

(١٥٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .

(١٥٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .

(١٥٥) المصدر نفسه ، ص ١٣٥ ، مع ذلك يشير الامدي (الصفحة نفسها) الى انه كان لابي تمام معجبون متعصبون له افراطوا في تفضيله ،

وقدموه على من هو فوقه من اجل جوده ، وسامحوه في رديئه ،
وتجاوزوا له خطاه ، وتناولوا له التناول البعيد فيه . مما يعني ان
ابا تمام اثار حركة واسعة من النقد « الجديد » الذي يرافق شعره
« الجديد » .

(١٥٦) الموازنة / ١٣٥/١ - ٢٩٠ .

(١٥٧) ديوانه ، ص ١٦٧ ، ويشرح التبريزي : ٢٢٦/٢ ، « ... الصلا
واحد الصلوتين وهما عظيمان يكتنفان الذنب . وصخرة جلس : اي
صلبة ثقيلة » .

(١٥٨) الموازنة : ١٣٧/١ .

(١٥٩) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .

(١٦٠) ديوانه ، ص ٣٩ ، وفي شرح التبريزي : ٨٨/٢ .

(١٦١) الموازنة : ١٣٨/١ .

(١٦٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٩ - ١٤٢ .

(١٦٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٢ . وديوان البحثري ص ٦٤ . ويستدرك
الأمدي بعد ان يلوم البحثري على متابعتة ابا تمام ، فيقول ان
للبحثري وصفا جيدا للحلم هو قوله متبعا للمذهب الصحيح
المعروف :

خفت الى السؤدد المجفو نهضته ولو يوازن رضوى حلمه رجحا

(١٦٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٢ .

(١٦٥) الموازنة : ١٤٢/١ .

(١٦٦) المصدر نفسه ، ص ١٥١ .

(١٦٦) المصدر نفسه : ١٤٣/١ .

(١٦٧) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ - ١٥١ .

(١٦٨) المصدر نفسه ، ص ١٦٦ .

(١٦٩) المصدر نفسه ، ص ١٦٦ ، وص ٢٠٠ . يقول : « والناس كلهم على
اختيار العاجل وايثاره وتقديمه على الآجل ... والعاجل ابدا هو
المطلوب والمرغوب فيه » ، معلقا على قول ابي تمام :

لو كان في عاجل من آجل بدل لكان في وعده من رفته بدل .

(١٧٠) المصدر نفسه ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، وص ٢٤٢ حيث يقول :
« الاستعارة لا تستعمل الا فيما يليق بالمعاني ، ولا تكون المعاني به

متضادة متنافية . ولهذا حدود اذا خرجت عنها صارت الى الخطأ
والفساد » .

(١٧١) المصدر نفسه ، ص ١٩١ .

(١٧٢) راجع المصدر نفسه ص ١٩٤ وما بعدها .

(١٧٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٩ . ويمثل على ذلك بقول امرئ القيس :

وان شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول
وقول ذي الرمة :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد او يشفي نجي البلال
وقول الفرزدق :

فقلت لها ان البكاء لراحة به يشتفي من ظن ان لا تلاقي

ويعقب قائلا : « فلو كان اقتصر (ابو تمام) على هذا المعنى الذي

جرت العادة به في وصف الدمع ، لكان المذهب الصحيح المستقيم .

ولكنه استعمل الاغراب فخرج الى ما لا يعرف في كلام العرب ، ولا

مذاهب سائر الامم » . و « ما لا يعرف » يدعوه الامدي « المحال »

(المصدر نفسه ، ص ٢١٨) .

(١٧٤) اشارة الى هذه الابيات :

فضربت الشتاء في اخدميه	ضربة غادرته عودا ركوبا
يا دهر قوم من اخدميك فقد	اضججت هذا الانام من خرقك
تروح علينا كل يوم وتفتدي	خطوب كان الدهر منهن يصرع
الا لا يمد الدهر كفا بسيء	الى مجتدي نصر فيقطع من الزند

(١٧٥) اشارة الى قوله :

والدهر الام من شرقت بلؤمه الا اذا اشرقت به بكريم

(١٧٦) اشارة الى قوله :

تحملت ما لو حمل الدهر شطره لفكر دهر ابي عبايه اثقل

(١٧٧) اشارة الى قوله :

فما ذكر الدهر العيوس بانه له ابن كيوم السبت الا تبسما

(١٧٨) اشارة الى قوله :

حتى اذا اسود الزمان توضحوا فيه ، فغودر ، وهو منهم ابلق

(١٧٩) اشارة الى قوله :

وكم احزرت منكم على قبح قدها صروف النوى من مرهف حسن القد

(١٨٠) اشارة الى قوله :

ولاجتذبت فرش من الامن تحتكم هي المثل في كين بها ، والارائك

- (١٨١) اشارة الى قوله :
اذا الفيت غادى نسجه ، خلت انه مضت حقبة حرس له ، وهو حائك
- (١٨٢) اشارة الى قوله :
انزلته الايام عن ظهرها من بعد اثبات رجله في الركاب
- (١٨٣) عوارك ، اي في الحيض ، اشارة الى قوله :
اذا للبستم عار دهر كأنما لياليه من بين الليالي عوارك
- (١٨٤) اشارة الى قوله :
كأنني حين جردت الرجاء له غضا، صببت به ماء على الزمن
- (١٨٥) المصدر نفسه ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .
- (١٨٦) المصدر نفسه ، ص ٢٥٠ .
- (١٨٧) المصدر نفسه ، ص ٤٠٠ .
- (١٨٨) المصدر نفسه ، ص ٤٠٠ - ٤٠١ . راجع ايضا ص ٤٠٤ و ٤٠٥ .
- (١٨٩) المصدر نفسه ، ص ٣٩٧ .
- (١٩٠) المصدر نفسه ، ص ٤٠١ - ٤٠٢ .
- (١٩١) المصدر نفسه ، ص ٤٠٢ .

مراجع البحث ومصادره^(١)

الكتب العربية القديمة :

- القرآن الكريم
- علي بن ابي طالب (- ٤٠ هـ) :
- نهج البلاغة ، شرح الشيخ محمد عبده ، القاهرة (بدون تاريخ) .
- جابر بن حيان (- ١٥٠ هـ) :
- مختار الرسائل ، تحقيق بول كراوس ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٣٥ .
- ابو يوسف (يعقوب بن ابراهيم - ١٨٢ هـ) :
- الخراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .
- الرضا (الامام علي بن موسى بن جعفر الصادق - ٢٠٣ هـ) :
- صحيفة الرضا ، لاهور - الهند ، ١٣٠٢ هـ .
- الشافعي (محمد بن ادريس - ٢٠٤ هـ) :
- جماع العلم ، تحقيق احمد محمد شاكر ، مطبعة المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٤٠ .
- الرسالة ، تحقيق احمد محمد شاكر ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٤٠ .
- الام (١ - ٧) ، سلسلة كتاب الشعب ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٦٨ .

(١) اقصد بالبحث مادة الكتابين الاول والثاني من « الثابت والمتحول » .
وقد اوردت المراجع القديمة بحسب تسلسل تاريخ وفاة المؤلفين ،
وآثرت ، اختصارا الا اثبت المجموعات الشعرية ولا دواوين الشعراء ،
وان اقتصر من الكتب التي اشرت اليها في هوامش البحث على أكثرها
اهمية .

- أبو عبيدة (معمر بن المثنى - ٢١٠ هـ) :
 - مجاز القرآن ، تحقيق محمد فؤاد سركين ، مطبعة الخانجي ،
 القاهرة ١٩٥٥ .
- أبن هشام (أبو محمد عبد الملك - ٢١٣ او ٢١٨ هـ) :
 - السيرة النبوية ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ،
 القاهرة ١٩٣٧ .
- الاخفش (أبو الحسن سعيد بن مسعدة - ٢١٥ هـ) :
 - كتاب القوافي ، تحقيق عزة حسن ، دمشق ١٩٧٠ .
 الاصمعي (عبد الملك بن قريب - ٢١٤ او ٢١٧ هـ) :
 - كتاب فحولة الشعراء ، تحقيق ش. توري ، دار الكتاب الجديد ،
 بيروت ، ١٩٧١ .
- أبن سعد (أبو عبد الله محمد - ٢٣٠ هـ) :
 - كتاب الطبقات الكبير ، طبعة ليدن ١٩١٧ - ١٩٢٨ ، وطبعة
 صادر ، بيروت ١٩٥٧ .
- الجمحي (محمد بن سلام - ٢٣٢ هـ) :
 - طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، طبعة
 دار المعارف بمصر ، (بدون تاريخ) ، وطبعة دار النهضة
 العربية ، بيروت ١٩٦٨ .
- أبن حنبل (أبو عبد الله أحمد - ٢٤١ هـ) :
 - المسند ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٩٥٣ .
 المحاسبي (الحارث بن اسد - ٢٤٣ او ٢٤٥ هـ) :
 - العقل وفهم القرآن ، تحقيق حسين القوتلي ، دار الفكر ،
 بيروت ١٩٧١ .
- المسائل في اعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل ، عالم
 الكتب ، القاهرة ١٩٦٩ .
- الكندي (أبو يوسف يعقوب - ٢٥٢ هـ) :
 - رسائل الكندي ، تحقيق عبد الهادي أبو ريذة ، القاهرة
 ١٩٥٠ .
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر - ٢٥٥ هـ) :
 - البيان والتبيين (١ - ٤) ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة
 الخانجي ، القاهرة ١٩٦١ .

- الحيوان (١ - ٧) ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٣٨ - ١٩٤٥ .
- رسائل الجاحظ (١ - ٢) ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٥ .
- البخاري (ابو عبد الله محمد بن اسماعيل - ٢٥٦ هـ) :
- الجامع الصحيح ، القاهرة ١٣٢٧ هـ . وطبعة دار الشعب ، ضمن سلسلة كتاب الشعب (٩ اجزاء) ، دون تاريخ .
- مسلم (ابو الحسين بن اسماعيل - ٢٦١ هـ) :
- الصحيح ، القاهرة ١٣٣٤ هـ .
- ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم - ٢٧٦ هـ) :
- الامامة والسياسة (١ - ٢) ، الطبعة الثانية ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ١٩٥٧ .
- الشعر والشعراء (١ - ٢) ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٩ .
- عيون الاخير (١ - ٤) ، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ١٩٦٣ .
- تأويل مشكل القرآن ، تحقيق السيد احمد صقر ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٤ .
- البلاذري (ابو جعفر احمد - ٢٧٩ هـ) :
- فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ .
- الدينوري (ابو حنيفة احمد بن داود - ٢٨٣ هـ) :
- الاخبار الطوال ، وزارة الثقافة بمصر ، ١٩٦٠ .
- اليقوبى (احمد بن ابي يعقوب - ٢٨٤ هـ) :
- التاريخ ، النجف ١٣٥٨ هـ .

- الحكيم الترمذي (ابو عبدالله محمد بن علي بن الحسن - ٢٨٥ او ٣٢٠ هـ) :
- كتاب ختم الاولياء ، تحقيق عثمان اسماعيل يحيى ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٥ .
- المبرد (ابو العباس محمد بن يزيد - ٢٨٦ هـ) :
- الكامل (١ - ٤) ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٦ .
- الفاضل ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ .
- الاشئانداني (ابو عثمان سعيد بن هارون - ٢٨٨ هـ) :

- - معاني الشعر ، تحقيق عز الدين التنوخي ، دمشق ١٩٦٩ .
- ثعلب (ابو العباس احمد بن يحيى - ٢٩١ هـ) :
- - قواعد الشعر ، تحقيق رمضان عبد التواب ، القاهرة ١٩٦٦ .
- - مجالس ثعلب (١ - ٢) ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٦٠ .
- ابن الجراح (ابو عبد الله محمد بن داود - ٢٩٦ هـ) :
- - الورقة ، تحقيق عبد الوهاب عزام وعبد الستار فراج :
- الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، (بدون تاريخ) .
- ابن المعتز (ابو العباس عبد الله - ٢٩٦ هـ) :
- - طبقات الشعراء ، تحقيق عبد الستار فراج ، القاهرة ١٩٥٦ .
- - البديع ، تحقيق ا. كراشكوفسكي ، لندن ١٩٣٥ .
- النوبختي (ابو محمد الحسن بن موسى - اواخر القرن الثالث الهجري) :
- - فرق الشيعة ، تحقيق هـ. ريتز ، اسطنبول ١٩٣١ .
- - الحلاج (الحسين بن منصور - ٣٠٩ هـ) :
- - الطواسين ، تحقيق لويس ماسينيون ، باريس ١٩١٣ .
- - الطبري (ابو جعفر محمد بن جرير - ٣١٠ هـ) :
- - تاريخ الامم والملوك (١ - ١٠) ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٧ - ١٩٦٩ .
- - جامع البيان عن تاويل آي القرآن (١ - ٣٠) ، الطبعة الثانية ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٥٤ .
- - الرازي (ابو بكر محمد بن زكريا - ٣١١ هـ) :
- - رسائل فلسفية ، تحقيق بول كراوس ، القاهرة ١٩٣٩ .
- ابن طباطبا (محمد بن احمد العلوي - ٣٢٣ هـ) :
- - عيار الشعر ، تحقيق الحاجري وسلام ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ابن ابي عون (- ٣٢٣ هـ) :
- - كتاب التشبيهات ، تحقيق محمد عبد المعيد خان ، كمبردج ١٩٥٠ .
- ابن عبد ربه (ابو عمر احمد - ٣٢٨ هـ) :
- - العقد الفريد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٠ .
- ابن زينب (محمد بن ابراهيم ، الكاتب النعماني - ٣٢٩ هـ) :
- - الفية ، طبعة قم ، بايران ، ١٣٤٧ هـ .

- أبو الحسن الأشعري (علي بن اسماعيل - ٣٢٤ أو ٣٣٠ هـ) :
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (١ - ٢) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٠ .
 - الابانة في اصول الديانة ، ادارة الطباعة المنيرية (بدون تاريخ) .
 - اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ، تحقيق الاب ريتشارد مكارثي اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٣ .
 - الكليني (محمد بن يعقوب - ٣٢٩ هـ) :
 - اصول الكافي ، طهران ١٢٧٨ هـ .
 - الجهشياري (أبو عبدالله محمد بن عبدوس - ٣٣١ هـ) :
 - الوزراء والكتاب ، تحقيق السقا والاباري وشلبي ، القاهرة ١٩٣٨ .
 - الماتريدي (أبو منصور محمد - ٣٣٣ هـ) :
 - كتاب التوحيد ، تحقيق فتح الله خليف ، دار المشرق ، بيروت ١٩٧٠ .
 - مهمل بن يموت بن المزرع (- ٣٣٤ هـ) :
 - سرقات أبي نواس ، تحقيق محمد مصطفى هدارة ، القاهرة ١٩٥٧ .
 - الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى - ٣٣٥ هـ) :
 - اخبار أبي تمام ، القاهرة ١٩٣٧ .
 - الاوراق (اخبار الشعراء ، أشعار اولاد الخلفاء) مطبعة الصاوي ، القاهرة ١٩٣٤ ، و ١٩٣٦ .
 - ادب الكتاب ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤١ هـ .
 - قدامة بن جعفر (- ٣٢٦ أو ٣٣٧ هـ) :
 - نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، الخانجي - المثني - القاهرة ١٩٦٣ .
 - نقد النثر ، تحقيق طه حسين والعبادي ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٣٣ .
 - الفارابي (أبو نصر - ٣٣٩ هـ) :
 - احصاء العلوم ، تحقيق عثمان امين ، القاهرة ١٩٤٩ .
 - كتاب الحروف ، تحقيق محسن مهدي ، دار المشرق ، بيروت ١٩٧٠ .

- كتاب الشعر ، تحقيق محسن مهدي ، (مجلة شعر ، عدد ١٣ ، بيروت ١٩٥٩) .
- رسالة في قوانين صناعة الشعراء ، تحقيق عبد الرحمن بدوي (ضمن كتاب فن الشعر ، ص ١٤٩ - ١٥٨) القاهرة ١٩٥٣ .
- المسعودي (ابو الحسن علي بن الحسين - ٣٤٦ هـ .) :
- التنبية والاشراف ، ليدن ١٨٩٣ .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المكتب التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٥٨ .
- النفري (محمد بن عبد الجبار - ٣٥٤ هـ .) :
- المواقف والمخاطبات ، القاهرة ١٩٣٤ .
- القالي (ابو علي اسماعيل - ٣٥٦ هـ .) :
- الامالي والنوادر ، دار الكتب ، القاهرة .
- ابو الفرج الاصبهاني (علي بن الحسين - ٣٥٦ هـ .) :
- الاغانى ، طبعات : دار الكتب وساسي (القاهرة) ، دار الثقافة بيروت .
- السيرافي (ابو سعيد الحسن بن عبد الله - ٣٦٨ هـ .) :
- اخبار النحويين البصريين ، تحقيق فريتس كرنكو ، ١٩٣٦ .
- الامدي (ابو القاسم الحسن بن بشر - ٣٧٠ هـ .) :
- الموازنة بين شعر ابي تمام والبحثري ، تحقيق السيد صقر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦١ - ١٩٦٥ .
- الملطي (ابو الحسين محمد بن احمد - ٣٧٧ هـ .) :
- التنبية والرد على اهل الاهواء والبدع ، القاهرة ١٩٤٩ .
- السراج (ابو نصر الطوسي - ٣٧٨ هـ .) :
- اللمع ، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٠ .
- الكلاباذي (ابو بكر محمد بن اسحاق - ٣٨٠ هـ .) :
- التعرف لمذهب اهل التصوف ، القاهرة ١٩٣٣ .
- ابو بكر الخوارزمي (محمد بن العباس - ٣٨٣ هـ .) :
- الرسائل ، القاهرة ١٣١٢ هـ .
- القاضي التنوخي (ابو علي الحسن بن علي - ٣٨٤ هـ .) :
- نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة (١ - ٢) ، تحقيق عبود الشالجي ، بيروت ، ١٩٧١ .

- المرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران - ٣٨٤ هـ) :
 - الموشح ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر ،
 القاهرة ١٩٦٥ .
 - معجم الشعراء ، القاهرة ١٣٥٤ هـ .
 الشاذلي (أبو الحسن علي بن محمد - ٣٨٨ هـ) :
 - الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف ، بغداد
 ١٩٦٦ .
 ابن النديم (أبو الفرج محمد بن اسحاق - ٣٨٥ هـ) :
 - الفهرست ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٩٤٨ .
 الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى - ٣٨٦ هـ) :
 - النكت في اعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن
 تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف
 بمصر (بدون تاريخ) .
 الحاتمي (محمد بن الحسن - ٣٨٨ هـ) :
 - الرسالة الحاتمية ، تحقيق فؤاد أفرام البستاني ، بيروت
 ١٩٣١ .
 - الرسالة الموضحة ، تحقيق محمد يوسف نجم ، دار صادر ،
 بيروت ١٩٦٥ .
 الخطابي (أبو سليمان حمد بن محمد - ٣٨٨ هـ) :
 - معالم السنن (شرح سنن أبي داود) ، تحقيق محمد راغب
 الطباخ ، حلب ١٩٣٢ - ١٩٣٤ .
 - بيان اعجاز القرآن ، ضمن : ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ،
 دار المعارف بمصر ، سلسلة : ذخائر العرب (بدون تاريخ) .
 أبو طالب المكي (محمد بن علي - ٣٨٠ أو ٣٩٠ هـ) :
 - قوت القلوب ، القاهرة ١٩٣٣ .
 الخالديان (أبو بكر محمد - ٣٨٠ هـ . أبو عثمان سعيد - ٣٩١ هـ) :
 - الاشباه والنظائر (١ - ٢) ، تحقيق السيد محمد يوسف ،
 القاهرة ١٩٥٨ - ١٩٦٥ .
 ابن جني (أبو الفتح عثمان - ٣٩٢ هـ) :
 - الخصائص ، دار الكتب ، القاهرة .
 الجرجاني (القاضي علي بن عبد العزيز - ٣٩٢ هـ) :

- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق ابي الفضل والبجاوي ، القاهرة ١٩٥١ .
- ابو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل — ٣٩٥ هـ) :
- كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر ، تحقيق البجاوي وابي الفضل ابراهيم ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٧١ .
- المجريطي (مسلمة بن قاسم الاندلسي — ٣٩٥ هـ) :
- غاية الحكيم ، تحقيق هلموت ريتز ، المانيا ١٩٣٣ .
- ابن فارس (ابو الحسين احمد — ٣٩٥ هـ) :
- الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تحقيق مصطفى الشويمي ، مؤسسة بدران ، بيروت ١٩٦٤ .
- سعد بن عبد الله الاشعري (القرن الرابع الهجري) :
- المقالات والفرق ، طهران ١٩٦٣ .
- احمد بن ابراهيم النيسابوري (القرن الرابع الهجري) :
- استتار الامام ، مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية ، مجلد ٤ ، جزء ٢ ، كانون الاول ١٩٣٦ .
- الباقلائي (ابو بكر محمد بن الطيب — ٤٠٣ هـ) :
- كتاب التمهيد ، تحقيق الاب ريتشرد يوسف مكارثي اليسوعي ، المكتبة الشرقية ، بيروت ١٩٥٧ .
- اعجاز القرآن ، تحقيق السيد احمد صقر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٣ .
- المرزوقي (ابو علي احمد بن محمد — ٤٢١ هـ) :
- شرح ديوان الحماسة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥١ .
- البغدادلي (ابو منصور عبد القاهر — ٤٣٩ هـ) :
- الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ، لجنة نشر الثقافة الاسلامية ، القاهرة ١٩٤٨ .
- الملل والنحل ، تحقيق البير نصري نادر ، دار المشرق ، بيروت ١٩٧٠ .
- الشعالبي (ابو منصور عبد الملك بن محمد — ٤٣٠ هـ) :
- خاص الخاص ، بيروت ١٩٦٦ .
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٥ .

- ابو نعيم الاصفهاني (احمد بن عبد الله - ٤٣٠ هـ) :
- حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ، القاهرة ١٩٣٢ .
 - الحصري (ابو اسحاق ابراهيم بن علي - ٤٣٥ هـ) :
 - زهر الاداب وثمر الالباب ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٥٣ .
 - البيروني (ابو الريحان محمد بن احمد - ٤٤٠ هـ) :
 - الآثار الباقية عن الامم الخالية ، طبعة ليبزغ ، ١٩٢٣ .
 - ابن حزم (ابو محمد علي بن سعيد - ٤٥٦ هـ) :
 - الفصل في الملل والاهواء والنحل (١ - ٥) ، مكتبة المثنى ، بغداد ، (بدون تاريخ) .
 - الديلمى (ابوالحسن علي بن محمد - مات في اوائل القرن الخامس الهجري):
 - عطف الالف المألوف على اللام المعطوف ، تحقيق ج.ك. فاديه ،
 - المجمع العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٦٢ .
 - السلمي (ابو عبد الرحمن محمد - ٤١٢ هـ) :
 - طبقات الصوفية ، جامعة الازهر ، القاهرة ١٩٥٣ .
 - الملامية (ضمن كتاب : الملامية والصوفية واهل الفتوة
 - لابي العلا عفيفي ، القاهرة ١٩٤٥) .
 - الشيخ المفيد (محمد بن النعمان - ٤١٣ هـ) :
 - اوائل المقالات ، تبريز ١٣٦٤ هـ .
 - الفصول العشرة في الغيبة ، النجف ١٩٥١ .
 - عبد الجبار (القاضي ابو الحسن - ٤١٥ هـ) :
 - المغني في ابواب التوحيد والعدل ، الجزء الثاني عشر : النظر
 - والمعارف ، تحقيق ابراهيم مذكور ، المؤسسة المصرية العامة ،
 - القاهرة (بدون تاريخ) .
 - ابن سينا (ابو علي الحسين بن عبد الله - ٤٢٨ هـ) :
 - الشعر ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، الدار المصرية ، القاهرة
 - ١٩٦٦ .
 - الشريف المرتضى (علي بن الحسين الموسوي - ٤٣٦ هـ) :
 - الامالي ، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٤ .
 - طيف الخيال ، تحقيق حسن الصيرفي ، القاهرة ١٩٦٢ .
 - الطوسي (ابو جعفر محمد بن الحسن - ٤٦٠ هـ) :
 - الغيبة ، تبريز (ايران ١٣٢٣ هـ) .

- الخطيب البغدادي (ابو منصور عبد القاهر - ٤٦٣ هـ) :
- تاريخ بغداد ، القاهرة ١٩٣١ .
 - ابن رشيقي (ابو علي الحسن - ٤٥٦ او ٤٦٣ هـ) :
 - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (١ - ٢) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الرابعة ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٢ .
 - القشيري (ابو القاسم عبد الكريم - ٤٦٥ هـ) :
 - الرسالة القشيرية (١ - ٢) ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٦ .
 - التحرير في التذكير ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ .
 - كتاب المراج ، القاهرة ١٩٦٤ .
 - ابن سنان الخفاجي (ابو محمد عبد الله بن محمد - ٤٦٦ هـ) :
 - سر الفصاحة ، تحقيق عبد المتعال الصعيدي ، القاهرة ١٩٥٣ .
 - الاسفراييني (ابو المظفر عماد الدين - ٤٧١ هـ) :
 - التبصير في الدين ، مطبعة الانوار ، القاهرة ١٩٤٠ .
 - الجرجاني (ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن - ٤٧١ هـ) :
 - اسرار البلاغة ، تحقيق هـ. ريتز ، اسطنبول ١٩٥٤ .
 - دلائل الاعجاز ، طبعة السعادة بمصر ، (دون تاريخ) .
 - الجويني (امام الحرمين ، ابو المعالي عبد الملك - ٤٧٨ هـ) :
 - الشامل في اصول الدين ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٦٩ .
 - الغزالي (محمد بن محمد - ٥٠٥ هـ) :
 - احياء علوم الدين (١ - ١٦) ، سلسلة كتاب الشعب ، دار الشعب ، القاهرة (بدون تاريخ) .
 - فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ، تحقيق سليمان دنيا ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦١ .
 - روضة الطالبين وعمدة السالكين ، المكتب التجاري ، بيروت (بدون تاريخ) .
 - الاقتصاد في الاعتقاد ، دار الامانة ، بيروت ١٩٦٩ .
 - مشكاة الانوار ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦٤ .
 - فضائح الباطنية ، تحقيق جولد تسيهر ، لندن ١٩١٦ .
 - المقدسي (مطهر بن طاهر - ٥٠٧ هـ) :

- البدء والتاريخ (١ - ٦) ، باريس ١٨٩٩ .
- الزمخشري (أبو القاسم جاد الله محمود - ٥٣٨ هـ .) :
- الكشف ، القاهرة ١٣٤٣ هـ .
- الكلاعي (أبو القاسم محمد - ٥٤٣ هـ .) :
- احكام صنعة الكلام ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٦ .
- الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم - ٥٤٨ هـ .) :
- الملل والنحل (بهامش الفصل لابن حزم) ، مكتبة المثنى ببغداد ، (دون تاريخ) .
- ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن - ٥٧١ هـ .) :
- تبين كذب المفتري فيما نسب الى ابي الحسن الاشعري ، دمشق ١٣٤٧ هـ .
- ابن الجوزي (جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن - ٥٩٧ هـ .) :
- نقد العلم والعلماء او تلبيس ابليس ، ادارة الطباعة المنيرية ، القاهرة (بدون تاريخ) .
- صفة الصفوة ، حيدر آباد ١٣٥٥ هـ .
- الرازي (فخر الدين - ٦٠٦ هـ .) :
- الاربعين في اصول الدين ، حيدر آباد ١٣٥٣ هـ .
- محصل افكار المتقدمين والمتأخرين من الفلاسفة والمتكلمين المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٢٣ هـ .
- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، القاهرة ١٣٥٦ هـ .
- البوني (احمد بن علي المغربي - ٦٢٢ هـ .) :
- شمس المعارف الكبرى ، القاهرة ١٣١٨ هـ .
- ابن الاثير (عز الدين ابو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم - ٦٣٠ هـ .) :
- الكامل في التاريخ (١ - ٩) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٧ .
- ابن الاثير (ضياء الدين ابو الفتح نصرالله بن ابي الكرم محمد - ٦٣٧ هـ .) :
- المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر (١ - ٤) ، تحقيق احمد الحوفي وبدوي طبانه ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٩ .
- ابن عربي (محيي الدين محمد بن علي - ٦٣٨ هـ .) :
- انشاء الدوائر ، لندن ١٣٣٦ هـ .

- التدبيرات الالهية في اصلاح الملكة الانسانية ، الهند ١٣١٥ هـ .
- الرسائل ، حيدر آباد ، ١٩٤٨ .
- عقلة المستوفز ، لندن ١٣٣٦ هـ .
- عنقاء مغرب في ختم الاولياء وشمس المغرب ، القاهرة ١٩٥٤ .
- الفتوحات المكية (١ - ٤) ، مطبعة صادر ، بيروت (بدون تاريخ) .
- فصوص الحكم ، تحقيق ابي العلا عفيفي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٤٦ .
- ابن ابي الحديد (عز الدين عبد الحميد - ٦٥٥ هـ) :
- شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ١٩٥٩ .
- الكنجي (ابو عبدالله محمد بن يوسف - ٦٥٨ هـ) :
- البيان في اخبار صاحب الزمان ، تبريز ١٣٢٤ هـ .
- رضي الدين بن طائوس (ابو القاسم علي بن موسى - ٦٦٤ هـ) :
- الزام النواصب ، بامامة علي بن ابي طالب ، لاهور - الهند ، ١٣٠٢ هـ .
- الملاحم والفتن في ظهور الغائب المنتظر ، النجف ١٩٦٣ .
- ابن خلكان (ابو العباس شمس الدين احمد - ٦٨١ هـ) :
- وفيات الاميان (١ - ٦) ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت (بدون تاريخ) .
- ابن منظور (جمال الدين محمد - ٧١١ هـ) :
- اخبار ابي نواس ، الجزء الاول ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ١٩٢٤ .
- اخبار ابي نواس ، الجزء الثاني ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٥٢ .
- لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٥ .
- ابن تيمية (ابو العباس تقي الدين احمد - ٧٢٨ هـ) :
- منهاج السنة النبوية (١ - ٢) ، تحقيق محمد رشاد سالم ، مكتبة خياط ، بيروت (بدون تاريخ) .
- معارج الوصول ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٨٧ هـ .
- الرسالة التدمرية ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٨٧ هـ .

- العبودية ، المكتب الاسلامي ، دمشق ١٩٦٢ .
- درء تعارض العقل والنقل ، تحقيق محمد رشاد سالم ، الجزء الاول ، القسم الاول ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٧١ .
- النويري (شهاب الدين احمد - ٧٣٢ هـ) :
- نهاية الارب في فنون الادب ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٢٩ .
- الذهبي (شمس الدين محمد بن احمد - ٧٤٨ هـ) :
- تذكرة الحفاظ ، حيدر آباد ١٩٥٥ .
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- دول الاسلام ، حيدر آباد ١٣٦٤ هـ .
- سير الاعلام النبلاء ، القاهرة ١٩٦٢ .
- ابن نباتة (محمد بن محمد - ٧٦٨ هـ) :
- شرح العيون : شرح رسالة ابن زيدون ، القاهرة ١٣٢١ هـ .
- ابن كثير (عماد الدين ابو الفداء اسماعيل - ٧٧٤ هـ) :
- البداية والنهاية ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٣٥٨ هـ .
- الواسطي (عبد الرحمن بن عبد المحسن - ٧٧٤ هـ) :
- تزيان المحبين في طبقات فرقة المشايخ والعارفين ، القاهرة ١٣٠٥ هـ .
- عبد الكريم الجيلي (- ٨٠٥ هـ) :
- الانسان الكامل في معرفة الاواخر والاوائل ، القاهرة ١٢٩٣ هـ .
- ابن خلدون (ابو يزيد عبد الرحمن - ٨٠٨ هـ) :
- المقدمة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت (بدون تاريخ) .
- الفيروزابادي (مجد الدين محمد بن يعقوب - ٨١٧ هـ) :
- البلغة في تاريخ ائمة اللغة ، تحقيق محمد المصري ، دمشق ١٩٧٢ .
- ابن المرتضى (احمد بن يحيى - ٨٤٠ هـ) :
- طبقات المعتزلة ، بيروت ١٩٦١ .
- المقريزي (تقي الدين احمد بن علي - ٨٤٥ هـ) :
- الخطط والآثار ، القاهرة ١٢٧٠ هـ .
- النزاع والتخاصم بين أمية وهاشم ، القاهرة ١٩٣٧ .
- ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين احمد - ٨٥٢ هـ) :
- الاصابة في تمييز الصحابة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٣٩ .

- لسان الميزان ، حيدر آباد ١٣٣١ هـ .
- تهذيب التهذيب ، مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند ١٣٢٥ هـ .
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن — ٩١١ هـ) :
- الاتقان في علوم القرآن ، القاهرة ١٩٤١ .
- المزهر في علوم اللغة ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- تاريخ الخلفاء ، دمشق ١٣٥١ هـ .
- الوسائل الى مسامرة الاولائل ، بغداد ١٩٥٠ .
- الاقتراح في اصول النحو ، حيدر آباد ١٣١٠ هـ .
- الشعراني (ابو المواهب عبد الوهاب بن احمد — ٩٧٣ هـ) :
- الطبقات الكبرى ، مكتبة محمد علي صبيح بالقاهرة (بدون تاريخ) .
- لواقح الانوار في طبقات الاخيار ، بولاق (مصر) ١٢٧٦ هـ .
- حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله — ١٠٦٧ هـ) :
- كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، اسطنبول ١٣٦٢ هـ .
- الخفاجي (شهاب الدين احمد بن محمد — ١٠٦٩ هـ) :
- شفاء الغليل فيما في العربية من الدخيل ، القاهرة ١٩٥٢ .
- البغدادي (عبد القادر بن عمر — ١٠٩٣ هـ) :
- خزائن الادب ولب لباب لسان العرب (١ — ٤) ، مكتبة المشني ببغداد (دون تاريخ) .
- المجلسي (محمد باقر بن محمد تقي — ١١١٠ هـ) :
- بحار الانوار ، الجامع لدرر اخبار الائمة الاطهار ، طهران ١٨٨٤ — ١٨٨٥ .
- التهانوي (محمد علي بن علي — بعد ١١٥٨ هـ) :
- كشف اصطلاحات الفنون (١ — ٦) ، مطبعة خياط ، بيروت (بدون تاريخ) .

٢ - الكتب العربية الحديثة (١) :

ابو ريذة ، محمد عبد الهادي :

- ابراهيم بن سيار النظام ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ،
القاهرة ، ١٩٤٦ .

ابو زهرة ، محمد :

- تاريخ المذاهب الاسلامية (١ - ٣) ، دار الفكر العربي ،
القاهرة (بدون تاريخ) .

- مالك ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ١٣٦٥ هـ .

- الشافعي ، مطبعة العلوم ، القاهرة ١٣٦٤ هـ .

- ابن حنبل ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٣٣٧ هـ .

الاسد ، ناصر الدين :

- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، دار المعارف
بمصر ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٦ .

- القيان والفناء في العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ،
القاهرة ، ١٩٦٨ .

امين ، احمد :

- فجر الاسلام ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة
١٩٤٥ .

- ضحى الاسلام (١ - ٣) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ،
القاهرة ١٩٥٢ ، ١٩٣٨ ، ١٩٤٩ (على التوالي) .

انيس ، ابراهيم :

- موسيقى الشعر ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٣ ، القاهرة
١٩٦٥ .

(١) بحسب التسلسل الابجدي لأسماء المؤلفين .

— من اسرار اللغة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٤ ، القاهرة
١٩٧٢ .

بدوي ، عبد الرحمن :
— شهيدة العشق الالهى ، رابعة العدوية ، مكتبة النهضة المصرية ،
القاهرة ، ١٩٤٨ .
— من تاريخ الالحاد في الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة
١٩٤٥ .
— شطحات الصوفية ، الجزء الاول ، ابو يزيد البسطامي ، مكتبة
النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٩ .
— الاصول اليونانية للنظريات السياسية في الاسلام ، مكتبة
النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٤ .
— افلوطين عند العرب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ .
— الافلاطونية المحدثة عند العرب ، مكتبة النهضة المصرية ،
القاهرة ١٩٥٥ .

بكار ، يوسف حسين :
— اتجاهات الفول في القرن الثاني الهجري ، دار المعارف بمصر ،
القاهرة ١٩٧١ .
بليع ، عبد الحكيم :

— ادب المعتزلة ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، القاهرة ١٩٠٩ .
البهبهتي ، نجيب محمد :
— تاريخ الشعر العربي ، مكتبة الخانجي — دار الكتاب العربي ،
ط ٣ ، القاهرة ١٩٦٧ .
— ابو تمام الطائي ، حياته وحياته شعره ، دار الكتب المصرية ،
القاهرة ١٩٤٥ .

جبور ، جبرائيل :
— حب عمر بن ابي ربيعة وشعره ، دار العلم للملايين ، بيروت
١٩٧١ .
— عمر بن ابي ربيعة ، ج ١ ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٥ .

- عمر بن أبي ربيعة ، ج ٢ ، المطبعة الاميركانية ، بيروت ١٩٣٩ .
- الجبوري ، يحيى :
- الاسلام والشعر ، مكتبة النهضة ، بغداد ١٩٦٤ .
- شعر المخضرمين واثار الاسلام فيه ، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٦٤ .
- الجندي ، درويش :
- الرمزية في الادب العربي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٨ .
- الحاجري ، طه :
- الجاحظ حياته وآثاره ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦١ .
- حسب الله ، علي :
- اصول التشريع الاسلامي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧١ .
- حجاب ، محمد نبيه :
- مظاهر الشعبوية في الادب العربي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦١ .
- حسن ، عباس :
- اللغة والنحو بين القديم والحديث ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٦ .
- حسن ، ناجي :
- ثورة زيد بن علي ، مكتبة النهضة — بغداد ، ١٩٦٦ .
- حسين ، طه :
- في الادب الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، ط ١٠ ، القاهرة ١٩٦٩ .
- حسين ، عبد الحميد :
- الاصول الفنية للادب ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٤ .
- حلمي ، محمد مصطفى :
- الحياة الروحية في الاسلام ، منشورات الجمعية الفلسفية ، القاهرة ١٩٤٦ .

الحوفي ، احمد محمد :

- الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، مكتبة نهضة مصر ، ط ٤ ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- المرأة في الشعر الجاهلي ، دار الفكر العربي ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ادب السياسة في العصر الاموي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٠ .

الخطيب ، محمد عجاج :

- السنة قبل التدوين ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٦٣ .

خلاف ، عبد الوهاب :

- علم اصول الفقه ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ١٣٦٥ هـ .
- خليف ، يوسف :
- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٩ .
- ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧٠ .
- حياة الشعر في الكوفة ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ .

الدهش ، محمد محمود :

- ابو العتاهية ، حياته وشعره ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ .

الدواليبي ، معروف :

- المدخل الى علم اصول الفقه ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٦٥ .

الدوري ، عبد العزيز :

- مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٩ .

الرئيس ، محمد ضياء الدين :
- النظريات السياسية الاسلامية ، دار المعارف بمصر ، القاهرة
١٩٦٧ .

رضوان ، محمد مصطفى :
- العلامة اللغوي ابن فارس الرازي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة
١٩٧١ .
الريداوي ، محمود :
- الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام - ١ - دار الفكر ، بيروت
١٩٦٧

الزرقا ، مصطفى :
- الحقوق المدنية في البلاد السورية ، الطبعة الثالثة ، دمشق
١٣٦٧ هـ .
زكي ، احمد كمال :
- الحياة الادبية في البصرة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧١ .

السباعي ، مصطفى :
- السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ، دار العربية ، القاهرة
١٣٨ هـ .
سيد الاهل ، عبد العزيز :
- شيخ الامة احمد بن حنبل ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٢ .
سلوم ، داود :
- النقد العربي القديم ، مكتبة الاندلس ، بغداد ١٩٧٠ .
سلام ، محمد زغلول :
- اثر القرآن في تطور النقد العربي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة
١٩٦١ .

الشايب ، احمد :
- تاريخ الشعر السياسي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٤ ،

- القاهرة ١٩٦٦ .
- اصول النقد الادبي ، مكتبة النهضة المصرية ط ٧ ، القاهرة
١٩٦٤ .
- شحاته ، عبدالله محمود :
- تاريخ القرآن والتفسير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة
١٩٧٢ .
- شلحت ، فيكتور :
- النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ ، دار المعارف بمصر ، القاهرة
١٩٦٣ .
- سريف ، محمد بديع :
- الصراع بين الموالي والعرب ، دار الكتاب العربي ، القاهرة
١٩٥٤ .
- الشلقاني ، عبد الحميد :
- رواية اللغة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- الشيبي ، كامل مصطفى :
- الصلة بين التصوف والتشيع ، دار المعارف بمصر ، القاهرة
١٩٦٩ .
- شعيب ، محمد عبد الرحمن :
- المتنبي بين ناقدبه ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٤ .
- الصالح ، صبحي :
- علوم الحديث ومصطلحه ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧١ .
- مباحث في علوم القرآن ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٩٣ .
- صبحي ، احمد محمود :
- الفلسفة الاخلاقية في الفكر الاسلامي ، دار المعارف بمصر ،
القاهرة ١٩٦٩ .
- نظرية الامامة لدى الشيعة الاثني عشرية ، دار المعارف بمصر ،
القاهرة ١٩٦٩ .

ضيف ، شوقي :

- العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، ط ٤ (بدون تاريخ) .
- العصر الاسلامي ، دار المعارف بمصر ، ط ٤ (بدون تاريخ) .
- الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف بمصر ، ط ٦ ، القاهرة ١٩٧١ .
- البلاغة تطور وتاريخ ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٥ .
- العصر العباسي الاول ، دار المعارف بمصر ، ط ٣ (بدون تاريخ) .
- التطور والتجديد في الشعر الاموي ، دار المعارف بمصر ، ط ٣ ، (بدون تاريخ) .

طبانة ، بدوي :

- السرققات الادبية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٩ .

العبادي ، عبد الحميد :

- الاسلام والمشكلة العنصرية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٩ .
- عباس ، احسان :
- شعر الخوارج ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٢٣ .
- تاريخ النقد الادبي عند العرب ، دار الامانة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧١ .

عبد الرحمن ، عائشة :

- الاعجاز البياني للقرآن ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧١ .
- عبد السميع ، لطفي :
- الشعر واللغة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٩ .
- التركيب اللغوي للادب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٠ .

عبد الرزاق ، مصطفى :

- تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٦٦ .
- عبد العال ، محمد جابر :
- حركات الشيعة المتطرفين ، مكتبة السنة المحمدية ، القاهرة ١٩٥٤ .

- عبد القادر ، علي حسن :
- نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ، دار الكتب الحديثة ،
القاهرة ١٩٦٥ .
- عبد الواحد ، مصطفى :
- دراسة الحب في الادب العربي (١ - ٢) ، دار المعارف بمصر ،
القاهرة ١٩٧٢ .
- عتيق ، عبد العزيز :
- ابن ابي عتيق ناقد الحجاز ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٢ .
- العقاد ، عباس محمود :
- ابو نواس ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٧ .
- العلي ، صالح احمد :
- التنظيمات الاجتماعية الاقتصادية في البصرة ، دار الطليعة ،
بيروت ١٩٦٩ .
- عطوان ، حسين :
- الشعراء الصعاليك في العصر الاموي ، دار المعارف بمصر ،
القاهرة ١٩٧٠ .
- الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الاول ، دار الطليعة ،
بيروت ١٩٧٢ .
- مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، دار المعارف بمصر
القاهرة ١٩٧٠ .
- عمارة ، محمد :
- المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية ، المؤسسة العربية للدراسات
والنشر بيروت ١٩٧٢ .
- عمر فاروق :
- طبعة الدعوة العباسية ، دار الارشاد ، بيروت ١٩٧٠ .
- عياد ، محمد :
- موسيقى الشعر العربي ، دار المعرفة ، القاهرة ١٩٦٨ .
- فياض ، عبدالله :
- تاريخ الامامية واسلافهم من الشيعة ، مطبعة اسعد ، بغداد
١٩٧٠ .

فيصل ، شكري :

- تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٩ .
- المجتمعات الاسلامية في القرن الاول، دار العلم للملايين، ١٩٦٦ .

قاسم ، عون الشريف :

- شعر البصرة في العصر الاموي ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٢ .
- القاضي ، النعمان عبد المتعال :
- شعر الفتوح الاسلامية ، الددار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ .
- الفرق الاسلامية في الشعر الاموي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

القلماي ، سهر :

- ادب الخوارج في العصر الاموي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٥ .
- القيسي ، نوري :
- الطبيعة في الشعر الجاهلي ، دار الارشاد ، بيروت ١٩٧٠ .

المجدوب ، عبدالله الطيب :

- المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعاتها (١ - ٢) ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ .
- محمود ، عبد القادر :

- الفلسفة الصوفية في الاسلام ، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٧ .
- مذكور ، ابراهيم :
- في الفلسفة الاسلامية ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٨ .

المخزومي ، مهدي :

- الخليل بن احمد الفراهيدي ، مطبعة الزهراء ، بغداد ١٩٦٠ .
- مندور ، محمد :
- النقد المنهجي عند العرب ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة (بدون تاريخ) .

- مكرم ، عبد العال سالم :
- القرآن الكريم واثره في الدراسات النحوية ، دار المعارف بمصر ،
القاهرة ، ١٩٦٨ .
- موسى ، احمد ابراهيم :
- الصبغ البديعي في اللغة العربية ، دار الكاتب العربي ، القاهرة
١٩٦٩ .
- موسى ، محمد يوسف :
- بين الدين والفلسفة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٩ .
- القرآن والفلسفة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ناصر ، مصطفى :
- نظرية المعنى في النقد العربي ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦٥ .
- النجار ، محمد الطيب :
- الموالي في في العصر الاموي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٤٩ .
- النص ، احسان :
- الخطابة العربية في عصرها الذهبي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة
١٩٦٢ .
- العصبية القبلية واثرها في الشعر الاموي ، دار اليقظة العربية ،
دمشق ١٩٦٤ .
- النويهي ، محمد :
- نفسية ابي نواس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٣ .
- هدارة ، محمد مصطفى :
- اتجاهات الشعر العربي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧٠ .
- وافي ، علي عبد الواحد :
- فقه اللغة ، ط ٦ ، دار نهضة مصر ، القاهرة (بدون تاريخ) .
- يونس ، عبد الحميد .
- الاسس الفنية للنقد الادبي ، ص ٣ ، دار المعرفة ، القاهرة
١٩٦٦ .

٣ . - الكتب الاجنبية المترجمة الى العربية :

- ارنولد ، توماس . و :
 - الدعوة الى الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧١ .
 - الخلافة ، دار اليقظة العربية ، دمشق ١٩٤٦ .
 اوليري ، دي لاسي :
 - الفكر العربي ومركزه في التاريخ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧٢ .
- بارتولد ، ف :
 - تاريخ الحضارة الاسلامية ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٦٦ .
 بلاشير ، ريجيس :
 - ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة (بدون تاريخ) .
 برنار لويس :
 - اصول الاسماعيلية ، مكتبة المثنى ببغداد ، ١٩٣٨ .
- بروكلمان ، كارل :
 - تاريخ الشعوب الاسلامية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٤٨ .
 - تاريخ الادب العربي (١ - ٣) ، طبعة دار المعارف بمصر .
 ترتون ، ا. س :
 - اهل الدمة في الاسلام ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٤٩ .
 جب ، هاملتون :
 - دراسات في حضارة الاسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٤ .
- جرونبام ، جوستاف فون :
 - حضارة الاسلام ، مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٥٦ .
 - دراسات في الادب العربي ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٥٩ .

- جوزي ، بندلي :
- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ، دار الروائع ، بيروت ،
(بدون تاريخ) .
- جولد تسيهر ، اجناس :
- العقيدة والشريعة في الاسلام ، دار الكاتب المصري ، القاهرة
١٩٤٥ .
- مذاهب التفسير الاسلامي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٥٥ .
- موقف اهل السنة بازاء علوم الاوائل ،
- العناصر الافلاطونية المحدثه والفنوصية في الحديث ،
(ضمن التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، ترجمة عبد
الرحمن بدوي ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٥ .
- جيوم ، الفرد :
- الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ .
- دونالدسون ، دوايت :
- عقيدة الشيعة : تاريخ الاسلام في ايران والعراق ، مطبعة
السعادة القاهرة ١٩٤٦ .
- دي بور :
- تاريخ الفلسفة في الاسلام ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ،
القاهرة ١٩٦٧ .
- روزنتال ، فرانتز :
- مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، دار الثقافة ، بيروت
١٩٦١ .
- ستيس ، ولتر :
- الزمان والازل ، مقال في فلسفة الدين ، المؤسسة الوطنية ،
بيروت ١٩٦٧ .
- سميث ، ولفرد كانتول :
- الاسلام والتطور (ضمن دراسات اسلامية ، ص ٢٩٥ - ٣٣١) ،
دار الاندلس ، بيروت ١٩٦٠ .
- شيدر ، هانز هينوش :
- روح الحضارة العربية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٤٩ .
- فان فلوتن :

- السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ، مطبعة السعادة .
القاهرة ١٩٣٤ .
- فك ، يوهان :
- العربية ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٥١ .
- فلهاوزن ، يوليوس :
- الخوارج والشيعة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ .
- تاريخ الدولة العربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .
القاهرة ، ١٩٥٨ .
- كريمير ، فون :
- الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الاجنبية ، دار الفكر
العربي ، القاهرة ١٩٤٧ .
- كوربان ، هنري :
- السهروردي المقتول ، مؤسس المذهب الاشراقي ، (ضمن
شخصيات قلقة في الاسلام ، ص ٩٥ - ١٣٣) ، مكتبة النهضة
المصرية ، القاهرة ١٩٤٦ .
- تاريخ الفلسفة الاسلامية ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٦ .
- لسترانج ، جي :
- بغداد في عهد الخلافة العباسية ، المطبعة العربية ، بغداد ١٩٣٦ .
- ماسينيون ، لويس :
- سلمان الفارسي والبواكير الروحية للاسلام في ايران ، (ضمن
شخصيات قلقة في الاسلام ، ص ٣ - ٦٠) ، ترجمة عبد
الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٦ .
- المنحنى الشخصي لحياة الحلاج (ضمن شخصيات قلقة ، ص
٦١ - ٩٥) .
- خطط الكوفة ، مطبعة العرفان ، صيدا ١٩٣٩ .
- متز ، آدم :
- الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، القاهرة
١٣٦٧ هـ .
- ناليو ، كارلو :
- تاريخ الاداب العربية (من الجاهلية حتى عصر بني امية) ، دار

- المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٤ .
- نيكلسون ، رينولد ألين :
- الصوفية في الاسلام ، القاهرة ١٩٥١ .
- في التصوف الاسلامي وتاريخه ، القاهرة ١٩٤٧ .
- وات ، مونتجومري :
- محمد في مكة ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت (بدون تاريخ)

دائرة المعارف الاسلامية .

٤ - المراجع الأجنبية :

- Anawati - Gardet : *Mystique musulmane*, Coll. « Etudes musulmanes » VIII, Vrin, Paris, 1961.
- Arnaldez, R. : — *Hallaj ou la religion de la croix*, Plon, Paris, 1964.
— *La mystique musulmane*, parue dans *la mystique et les mystiques*, Desclée de Brouwer, Paris, 1952.
- Berque, J. : — *L'Orient second*, Gallimard, Paris, 1970.
— *Les arabes d'hier à demain*, 1ère éd., Le Seuil, Paris, 1960.
- Berque, J. (et autres) : — *Normes et valeurs dans l'Islam Contemporain* Payot, Paris, 1966.
— *L'ambivalence dans la culture arabe* éd. Anthropos, Paris, 1967.
- Boirel, R. : *Théorie générale de l'invention*, P.U.F., Paris, 1961.
- Bradbury, R.E. : *Essais d'Anthropologie religieuse*, Gallimard, Paris, 1972.
- Cassirer, E. : *La philosophie des formes symboliques*.
1. *Le langage*
2. *La pensée mythique*
Les éd. de Minuit, Paris, 1972.
- Chavannes, H. : *L'Analogie entre Dieu et le Monde*.
Les éd. du Cerf, Paris, 1969.
- Corbin, H. : — *L'imagination créatrice dans le soufisme d'Ibn 'Arabi*
— Flammarion, Paris, 1958.
— *Histoire de la philosophie musulmane*, I, Gallimard, Paris, 1964.
— *Le songe visionnaire en spiritualité Islamique*, (paru dans *le rêve et les sociétés humaines*, Gallimard, Paris, 1967).
- Crastre, V. : *Poésie et mystique*. Les éd. de la Bacacconnière Neufchâtel (Suisse), 1966.
- Deleuze, G. : — *Différence et répétition*, P.U.F., Paris, 1968.
— *Présentation de Sacher-Masoch*, les éd. de Minuit, Paris, 1967.
— *Nietzsche et la Philosophie*, P.U.F., Paris, 1962.
- Durand, G. : — *Les Structures Anthropologiques de l'Imaginaire*, P.U.F., Paris, 1963.
— *L'Imagination symbolique*, Coll. « Initiation philosophique », P.U.F., Paris, 1964.

- Fahd, T. : La naissance du monde selon L'Islam, dans Sources orientales, I, Seuil, Paris, 1959.
- Focillon, H. : Vie des formes, P.U.F., Paris, 1964.
- Foucault, M. : Les mots et les choses, Gallimard, Paris, 1966.
- Gibb, H.A.R. : La structure de la pensée religieuse de l'Islam, Institut des hautes études Marocaines, Notes et documents, fasc. VII, 1950.
- Goldmann, L. : Structures mentales et création culturelle, éd. Anthropos, Paris, 1970.
- Goldziher, I. : La notion de sakina chez les Mohématants, Revue de l'histoire des religions, 1893.
- Greimas, A. (et autres) : essais de sémiotique poétique Larousse, Paris, 1972.
- Grimaldi, N. : Le désir et le temps, P.U.F., Paris, 1971.
- Kraus, P. : Jabir Ibn Hayyân, contribution à l'histoire des idées scientifiques dans l'Islam (Mémoires de l'Inst. français d'Egypte, vol. 44-45), 1942-1943.
- Laoust, H. : — Essai sur les doctrines sociales et politiques d'Ibn Taimiya, P.I.F.A.O., Le Caire, 1939.
— Les shismes dans l'Islam, Introduction à une étude de la religion musulmane, Payot, Paris, 1965.
- Lefebvre, H. : La fin de l'histoire, Les éd. de Minuit, Paris, 1970.
- Loucel, H. : L'origine du langage d'après les grammairiens arabes, dans Arabica, X, fasc. 3, 1963.
- Massignon, L. : — Opera Minora, 3 tomes, Coll. « Recherches et Documents », Dar al-Maaref, Beyrouth, 1963.
— Parole donnée, U.G.E., Paris 1970.
— Akhbar al-Hallaj, éd. et trad. française, Paris, 1936.
— Diwân d'Al-Hallaj, éd. et trad. française, nouvelle édition, P. Geuthner, Paris, 1955.
— Essai : Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane, 2e éd., Vrin, Paris, 1954.
— La Passion : la passion d'Al-Hosayn Ibn Mansour Al-Hallaj martyr mystique de l'Islam, 2 vol., Geuthner, Paris, 1929.
— Quatre textes : Quatre textes inédits relatifs à la biographie d'Al-Hosayn Ibn Mansour Al-Hallaj Geuthner, Paris, 1914.
— Recueil : Recueil de textes inédits concernant l'histoire de la mystique en pays d'Islam, Geuthner, Paris, 1929.

- Kitâb al-Tawâsin, Geuthner, Paris, 1913.
- Meyerovitch, E. : *Mystique et poésie en Islam*, Desclée de Brouwer, Paris, 1972.
- Mossé - Bastide, R.S. : *Bergson et Plotin*, P.U.F., Paris, 1959.
- Nwyia, P. : — *Ibn 'Abbâd de Ronda*, Coll. « Recherches » XVII, Beyrouth, 1961.
- *Exégèse Coranique et langage mystique*, éd. Dar el-Machréq, Beyrouth, 1970.
- Polin, R. : *Ethique et politique*, éd. Sirey, Paris, 1968.
- Rey, J.M. : *L'enjeu des signes, Lecture de Nietzsche* éd. du Seuil, Paris, 1971.
- Richard, J.P. : *L'univers imaginaire de Mallarmé* éd. du Seuil, Paris, 1961.
- Singevin, Ch. : *Essai sur l'un*, éd. du Seuil, Paris, 1969.
- Toynbee, A.J. : *Le changement et la Tradition*, Payot, Paris, 1969.
- Waardenburg, I.J. : *L'Islam dans le miroir de l'Occident*, Paris, 1963.
- Oeuvres collectives :
- R. Brunschvig et G.E. Von Grunebaum (et autres) : *classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam*. Librairie Maisonneuve, Paris, 1957.
- L. Massignon et autres : *L'Islam et l'Occident*, Cahiers du Sud, 1947.

فهرست

القسم الاول

٩ تأصيل الاتباع او الثبات

الفصل الاول

١١ التزامي وتأصيل الاصول الدينية - السياسية

الفصل الثاني

٣٥ تأصيل الاصول البنيانية - الشعرية : الاصمي والجاحظ

القسم الثاني

٥٩ تأصيل الابداع او التحول

الفصل الاول

٦١ الحركات النورية : ثورة الزنج والحركة القرمطية

الفصل الثاني

٧١ المنهج التجريبي وابطال النبوة

الفصل الثالث

٨٩ الحمفة والشريعة ، الباطن والظاهر

الفصل الرابع

١٠١ الاتباع والحدائث في الشعر : ابو نواس وابو تمام

القسم الثالث

١٢١	جيل الاتباع والابداع او القديم والحديث
	الفصل الاول
١٢٣	في معنى القديم ومعنى المحدث
	الفصل الثاني
١٤٩	في الحركة اللغوية
	الفصل الثالث
١٧١	في الحركة النقدية الشعرية : الصولي والامدي
٢٠٣	خلاصة الكتاب الثاني
٢١٥	هوامش الفصل الاول (القسم الاول)
٢٢٣	هوامش الفصل الثاني (القسم الاول)
٢٣٢	هوامش الفصل الاول (القسم الثاني)
٢٣٤	هوامش الفصل الثاني (القسم الثاني)
٢٣٩	هوامش الفصل الثالث (القسم الثاني)
٢٤٢	هوامش الفصل الرابع (القسم الثاني)
٢٥٠	هوامش الفصل الاول (القسم الثالث)
٢٦٤	هوامش الفصل الثاني (القسم الثالث)
٢٧٥	هوامش الفصل الثالث (القسم الثالث)
٢٩٣	مراجع البحث ومصادره

